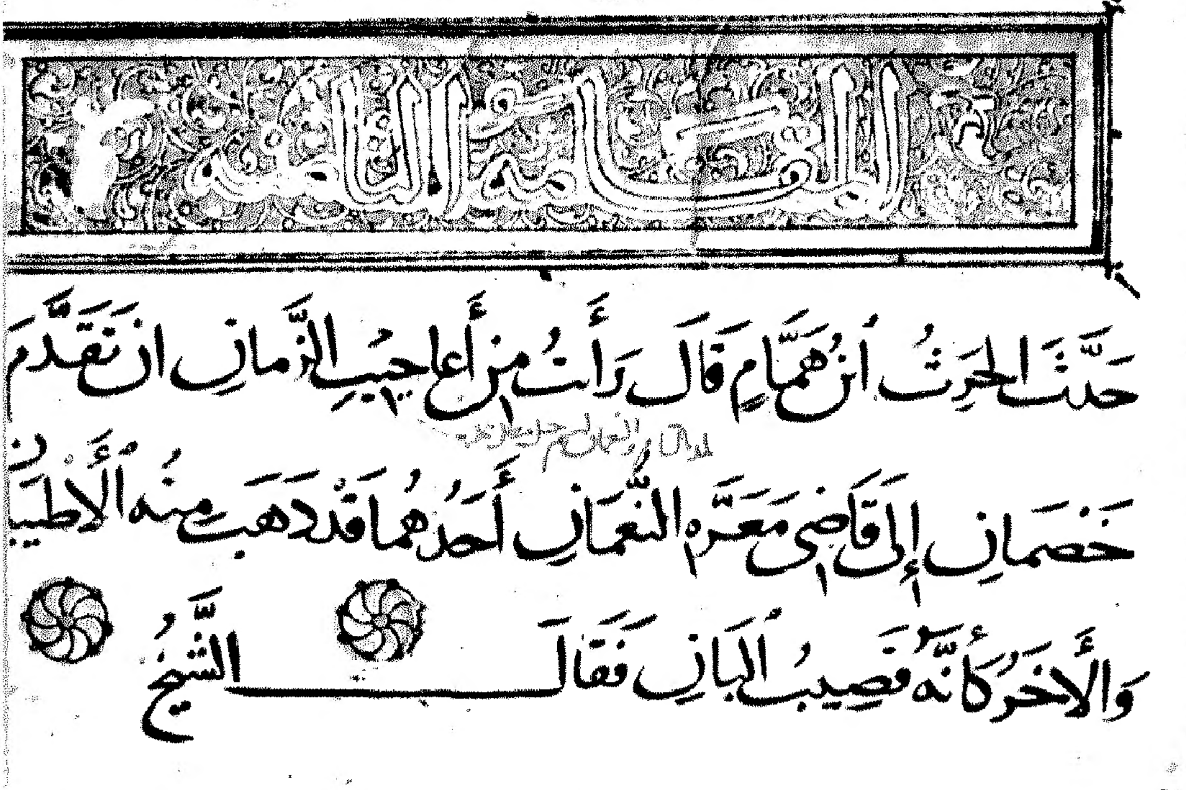
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

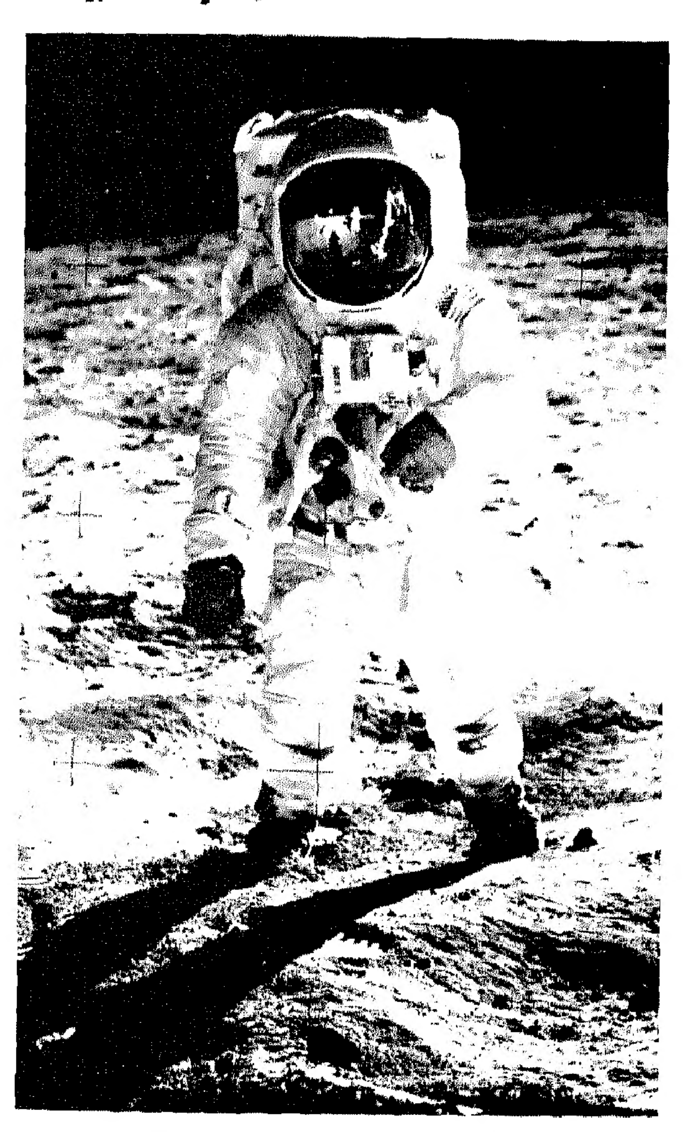
السنة الثالثة، العدد التاسع والعشرون - آذار (مارس) ١٩٨١ - الموافق جماد الأول ١٤٠١هـ.

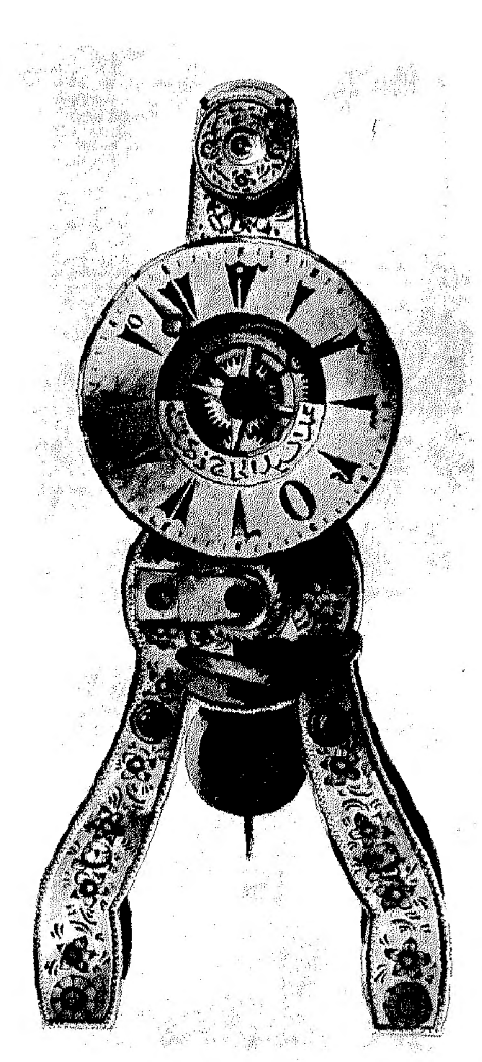




الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل

المـلاحـة بـيـن
الكـواكـب السـيـارة





السـاعـة
الميـكـانـيكـيـة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة، العدد التاسع والعشرون - آذار (مارس) ١٩٨١ - الموافق جماد الأول ١٤٠١هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.	سوريا : ٦ ل.س
العراق : ٨٠٠ فلس	تونس : ١ دينار
السعودية : ٨ ريال	الكويت : ٧٠٠ فلس
الاردن : ٥٠٠ فلس	أبوظبي : ٨ درهم
دبي : ٨ درهم	قطر : ٨ ريال
البحرين : ٨٠٠ فلس	عدن : ٨ شلنات
مسقط : ٨٠٠ بيزة	المغرب : ٦ درهم
فرنسا : ١٠ فرنكات	بريطانيا : جنيه استرليني
	أميركا : ٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية.

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان ، بناية أبو هليل - شقة ١١ ، شارع الساداتُ - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3, No. 29. MARS. 1981
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»



الف ليلة وليلة أصلها وانتماؤها
(راجع المقالة ص٧٠)

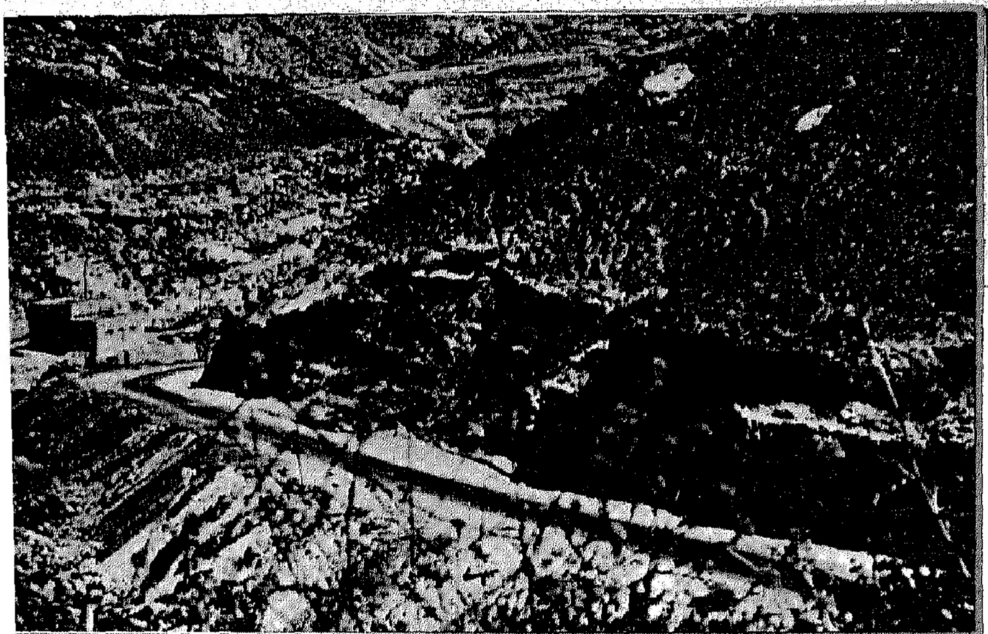
في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الموضوع — الصفحة

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.

المؤابيون
شعب ثار على الاحتلال



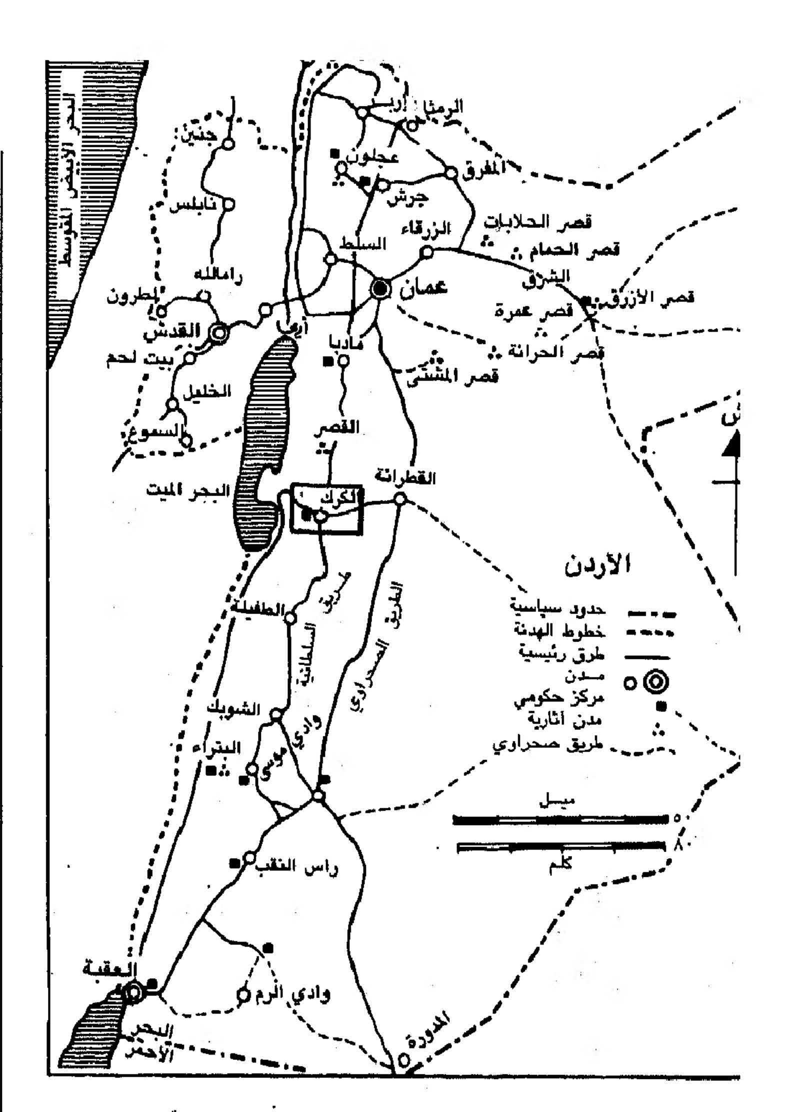


مؤاب منطقة تاريخية قديمة تقع جغرافياً في المملكة الأردنية الهاشمية وتشمل لواء الكرك على وجه التخصيص. أما الأسم «مؤاب» فمن المرجح أنه يعود إلى الشعب الذي سكن تلك الأرض، وقد يطلق على الأرض نفسها أو هو علم من الأعلام، قد يكون لإله قديم جداً عبده شعب مؤاب في غابر الأزمنة واكتسب اسمه منه.

كان المؤابيون قبائل رحّلاً قبل نزولهم أرض مؤاب. ولا نعرف على وجه التحقيق من أين أتى هذا الشعب العربي البدوي، انما الراجح أن المؤابيين تحدّروا من القبائل العربية التي كانت تقيم في البادية السورية حوالي الف بن العشرين قبل الهجرة/القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي عاشوا هناك قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. ومن الراجح أيضاً أنهم دخلوا المنطقة المسماة اليوم لواء الكرك في الأردن، على شكل موجات من القبائل البدوية المتحولة إلى الزراعة. فلواء الكرك في الأردن، بحسب تاريخ البيئة للمنطقة، كان منطقة زراعية خصيبة، فما تزال معالم ذاك الغنى الطبيعي ماثلة في احراش جبال الشراة التي ما فتىء السكان يفاجأون فيها حتى اليوم بظهور وحش كاسر من فصيلة الفهد أو النمر...

تنعم المنطقة التي سكنها المؤابيون بعدة

د. فواز احمد طوقان، دكتوراه دراسات شرقية من جامعة يال في الولايات المتحدة الأميريكة، استاذ الأدب العربي في الجامعة الأردنية - عمان.



أنهار كانت في الماضي حدوداً مائية زخّارة أهمها وادي الموجب ووادي الواله ووادي الحسا. أما عن مصادر المياه فان علماء تاريخ البيئة يفيدون بأن منطقة مؤاب كانت ذات موارد مائية جمّة. يضاف إلى ذلك مراعٍ خصبة واسعة، وأحراش كثيفة ملتفة.

***

يعتمد الدارس لتاريخ المؤابيين على ثلاثة مصادر: (١) التوراة وغيرها من كتابات الأمم الأخرى المعاصرة للمؤابيين، (٢) العادات الأثرية المؤابية، (٣) النقوش المؤابية.

. أما التوراة، فمصدر غير موثوق به تاريخيا، لأنها وثيقة حُرّفت في عصور تالية، كما أنها كتبت في عصور لاحقة جداً لفترة الاحتكاك الاسرائيلي المؤابي. أضف إليه أن التوراة بالنسبة للمؤابيين وثيقة مطعون في نزاهتها: فقد كان بين الشعبين حروب وإحَنٌ وتِرَاتٌ. ومن البدهي أن يلفق كُتّاب التوراة مطاعن كثيرة ضدّ ألدّ أعدائهم، ألا وهم المؤابيون.

واما كتابات الأمم الأخرى فغير قليلة. ورد في النقوش المسمارية اسم مؤاب تسع مرات، وهذا عدد وفير بالنسبة لمملكة صغيرة جداً بالقياس إلى امبراطوريات ما بين النهرين: آشور وبابل. فكم من الممالك الأخرى الكثيرة المعاصرة لمؤاب لم يرد ذكرها في تلك النقوش؟ ولكن في الهيروغليفية، فاننا لن نعثر على ذكر لمؤاب. ذلك لأن عصر سيادة مصر على سورية الطبيعية جاء سابقا للنهضة المؤابية بقرون عديدة.

يبقى لنا بعض الكتابات الأخرى عن المؤابيين وردت عند المؤرخ فلافيوس يوسيفوس اليهودي، وبعض المنحولات اليهودية الأخرى كسفر يوديث. بيد أن هذه الأخرى لا يعوّل عليها فيما ذكرت مؤاب فيه، والحكم في كتابات التوراة عنهم هو ذات الحكم في هذه المنحولات.

هذا لا يعني أننا نطّرح كل ما كتبه اليهود عن مؤاب. بل المؤرخ الذكي هو الذي ينقد نصوصه، يجرّحها ويعدّلها... يستقيد من الرواية التاريخية، مهما كانت وجهة نظر صاحبها، ينتقدها ويقومها. فمن المصادر اليهودية، أمكننا أن نعيد كتابة كثير من الوجود المؤابي وأن نتتبع احداث ثورتهم الوطنية الظاهرة ضد أعدائهم بني اسرائيل.

مع أن الموجودات الأثرية المؤابية لا تتجاوز بعض الأواني الفخارية والاختام وقليلاً من المخلفات الهندسية، الا ان هذه العاديات كافية لتمكين الباحث المتمرس من وضع الحضارة المؤابية ونوعيتها بإزاء مثيلاتها المتعاصرة معها. على أن خير ما يعطينا الثقة الموضوعية في أخبار المؤابيين، أو على الأقل في أخبار نهضتهم، هو النقوش المؤابية التي خلفوها لنا. وخير هذه هي مسلة الملك مشيع بن كموشيت الديباني ملك مؤاب الذي اعتلى على العرش ما بين سنة ١٥٣٧ قبل الهجرة وبين سنة ١٤٩٦/أي ٨٧٠ – ٨٣٠ قبل الميلاد.

كانت مملكة مؤاب في عهد الملك كموشيت، والد الملك العظيم مشيع، تقع على ضفتي نهر الموجب (نهر أرنون في النقوش المؤابية). ولعل ذلك يعني أن المؤابيين قبل زمن والد ملكهم العظيم كانوا يشكلون مملكة بالمعنى الحقيقي. بيد ان الأمر تطور معهم في ظل الملك مشيع،

فبلغوا بالنفوذ حتى جنوب مدينة عمان (شمالاً) والبحر الميت غرباً، ومن الجنوب بلغوا وادي الحسا، ومن الشرق لم تكن لهم حدود سوى البادية التي أنشأتهم...

من الممتع أن نقارن ما بين توسع نفوذ المؤابيين من منطقتهم إلى الشمال وبين شعوب أخرى أتت بعدهم. فالأدوميون العرب الذين ورثوا حكم مؤاب في القرن الثالث عشر قبل الهجرة/السابع قبل الميلاد نهضوا من ذات المنطقة، على نفس الشاكلة، ولم يتجاوزوا مدينة عمان شمالاً. وأما الأنباط، الشعب العربي الثاني الذي ورث حكم المنطقة، فقد توسعوا شمالاً على فترات، فوصلوا أولاً إلى عمان، ثم إلى دمشق. وكذلك الغساسنة، فقد بدأوا في منطقة مؤاب وتخومها من البادية شرقاً، وامتد نفوذهم شمالاً حتى وصل إلى حوران والجولان ودمشق. وكذلك العرب المسلمون الفاتحون... لقد انطلقت جيوش الفتح الأولى زمن الرسول إلى مؤتة، بالقرب من الكرك، وهي رديفة الربة عاصمة المؤابيين. ثم لما انطلقت جيوش الفتح الثانية زمن ابي بكر وعمر رضي الله عنهما، سارت في أرض مؤاب أولاً، سارت القبائل العربية من لخم وجُذام، فانشطرت إلى شعبتين، واحدة يممت شطر فلسطين، والثانية شطر اليرموك. وبعد استقرار الفتح الاسلامي، اتخذ الامويون من مؤاب، وما جاورها من الاقاليم، البلقاء وحوران والبعادية الأردنية، مستقراً لهم، فأنشأوا فيها القصور الباذخة التي ما زالت آثارها ماثلة للعيان حتى اليوم. وكما الامويون، كذلك العباسيون. فلقد بدأت دعوتهم السرية في الحميمة، حيث كانوا يعيشون في اقطاعاتهم الزراعية. والحميمة بُلَيْدة في جنوب مؤاب كانت ملكاً علي بن عبدالله بن عباس!

نستشف مما ذكر أن منطقة مؤاب وما جاورها من الاقاليم كانت فارغة من السكان في القرن العشرين قبل الهجرة/الرابع عشر قبل الميلاد. دخلها العرب واستمروا حكمها حتى اليوم. وقد تعاقب على دخولها بغية السيطرة على سورية الطبيعية أمم كثيرة وحكومات عديدة، كالاخشيديين والفاطميين، والصليبيين، والايوبيين والمماليك... حتى عصابة الارغون.

ولقد جهد مؤرخو الصهيونية هذه الأيام في اثبات أن منطقة شرق الأردن، أي مؤاب والبلقاء إلى شمالها، كانت أرضاً خالية خربة حتى دخلها بنو اسرائيل تائهين، ثم محتلين زمن حكم بني اسرائيل لشمال فلسطين، ثم مقيمين زمن ثورة المكابيين. وهم بذلك يحاولون تمهيد الطريق أمام ابداء زعم جديد بأن أرض مؤاب والبلقاء لم تكن مأهولة من قبل وجودهم... وبالتالي فهي من ضمن أرض ميعادهم... ولكن هيهات.

فلقد دخل المؤابيون أرض مؤاب، وانتشروا فيها، واتسعوا إلى أرض البلقاء، قبل قرنين من السنين، قبل مائتي عام من زعم بني اسرائيل أنهم مرّوا في مؤاب وأن نبيهم موسى وقف بقرب ماديا (جبل بنو) فتراءت له الأرض الموعودة...في هذه الفترة بالذات كان المؤابيون يحكمون كل البلاد، ولهم فيها دولة وكيان... فكيف لنا أن نصدّق ما تزعمه التوراة من أن بني اسرائيل التائهين مرّوا في بلاد مؤاب الخالية، مرّوا بجموعهم، بقبائلهم، بأسباطهم الاثني عشر... من دون أية مقاومة!!

لم تسلم مؤاب من مؤثرات حضارية خارجية، لأنها عاشت غير منعزلة عن بقية العالم القديم. فموقعها الجغرافي ضمن لها طرقاً تجارية أغنتها حضاريا وماديا. وهذه الطرق، استعملهامن بعد المؤابيين أقوام عديدون كالانباط وأهل مكة في العصر الجاهلي. اتصلت مؤاب، اذن، بالحضارة العربية الجنوبية، لكننا لا ندري مدى هذا الاتصال أو عمقه. فالزمن الذي لمع فيه نجم مؤاب، كان الزمن نفسه الذي نهضت فيه حضارة اليمن. وإلى الغرب من مؤاب، لم يقم البحر الميت حاجزاً يحول دون اتصال البلاد بالحضارات المصرية والفينيقية والقبرصية. بيد أن أكثر أتصال وأمتنه كان بين القطر المؤابي وبلاد الآراميين. فتأثير الحضارة الآرامية، والثقافة كذلك، في حضارة مؤاب، تأثير كبير.

يتضح من دراسة مخلفات المؤابيين الحضارية أنهم كانوا على جانب كبير من التحضرّ. فمثلاً، نرى سمات فنٍّ عريق يزيّن فخارهم... سمات إن دلت على شيء، فتدل على

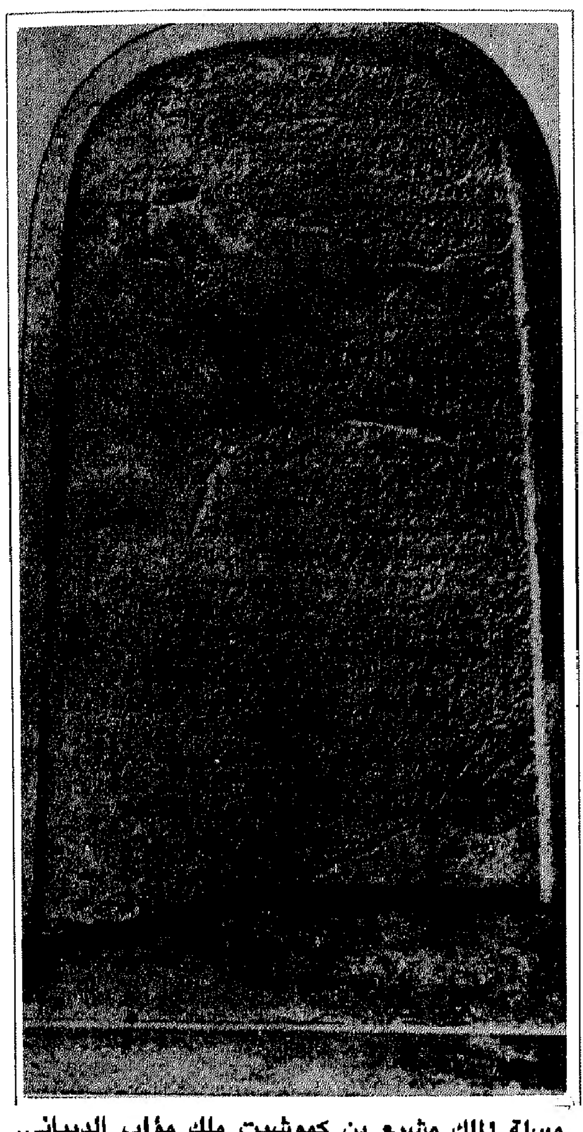
وجود فنانين وصناع وحرفيين ماهرين. أما نظام الكتابة المؤابية، فنظام متطور ينمّ عن تقدم حضاري رفيع.

واضح تماماً، مما وصلنا من النقوش المؤابية، أن ابجديتهم كنعانية السمات، مع تغييرات طفيفة. إلاّ أن كُتّاب المؤابيين أدخلوا تطويراً حاسماً على ما أخذوه. ففي مسلة الملك مشيع نرى الاحرف محفورة بدقة ورشاقة وبتناسق عجيب السمت، ونرى نقطة تفصل ما بين الكلمة والكلمة، ونرى كذلك خطاً عمودياً قصنيراً يفصل ما بين الجملة والجملة. هذا الطراز هو أفصح دليل على مدى تقدم المؤابيين الثقافي.

اختلف علماء اللغات السامية في تحديد هوية اللغة المؤابية. وجنح بعض العلماء المستشرقين إلى القول بأنها لهجة عبرية. بيد أن الحق غير ذلك. المؤابية، لغة عربية الأصل، أرامية اللهجة، تأثرت بما حولها من اللهجات السامية الأخرى، كالعبرية أو العمّونية...

في أوائل القرن الخامس عشر قبل الهجرة/التاسع قبل الميلاد، احتلت مملكة اسرائيل أرض مؤاب. وعبثاً حاول ملوك المؤابيين دفع هذا الاحتلال. ولعل أحكم ملك مؤابي كان كموشيت الذي رضي أن يستقل بالجزء الجنوبي من مملكته على الأقل مقابل دفع جزية... بلغت حداً باهظاً في آخر زمانه... مائة ألف رأس خروف ومائة ألف كبش بأصوافها.

بيد أن سياسة الاحتلال الاسرائيلي لمملكة مؤاب لم تتوقف عند فرض الجزية، بل تعدّتها إلى ما هو أفحش من ذلك. فلقد طفق الاسرائيليون (يستوطنون) في مدن مؤاب بعد طرد سكانها أو ذبحهم، أو ابتناء مستوطنات جديدة لهم... (ما أشبه الليلة بالبارحة!!) يقول الملك مشيع الديباني في مسلته: «... أما عُمْري ملك اسرائيل فقد اضطهد مؤاب طويلاً...» ويذكر الملك الثائر كذلك عدة مواقع مؤابية كان المحتلون قد سكنوها أو هدموها. أما التوراة نفسها، فتذكر في تفاصيل الحملة العسكرية التي جردتها مملكة اسرائيل لاعادة احتلال مؤاب، أن الأوامر صدرت للجند بتدمير الحقول



مسلة الملك مشيع بن كموشيت ملك مؤاب الديباني. موجودة في متحف اللوفر في باريس. طولها متر تقريباً. وهي من حجر البازلت/ الصوان الأسود. عثر عليها في ديبان عام ١٨٦٦م في الأردن.

كذلك! فقد حمل كل جندي حجراً ليلقيه في أي حقل يرى مزروعاته يانعة. يضاف إلى ذلك تكتيك آخر استعملته القوات الغازية، الا وهو افساد مصادر المياه، طمر العيون وتغويرها، هدم البرك... إن مجموع الأعمال العسكرية الاسرائيلية في مؤاب كان بحقّ اضطهاداً...

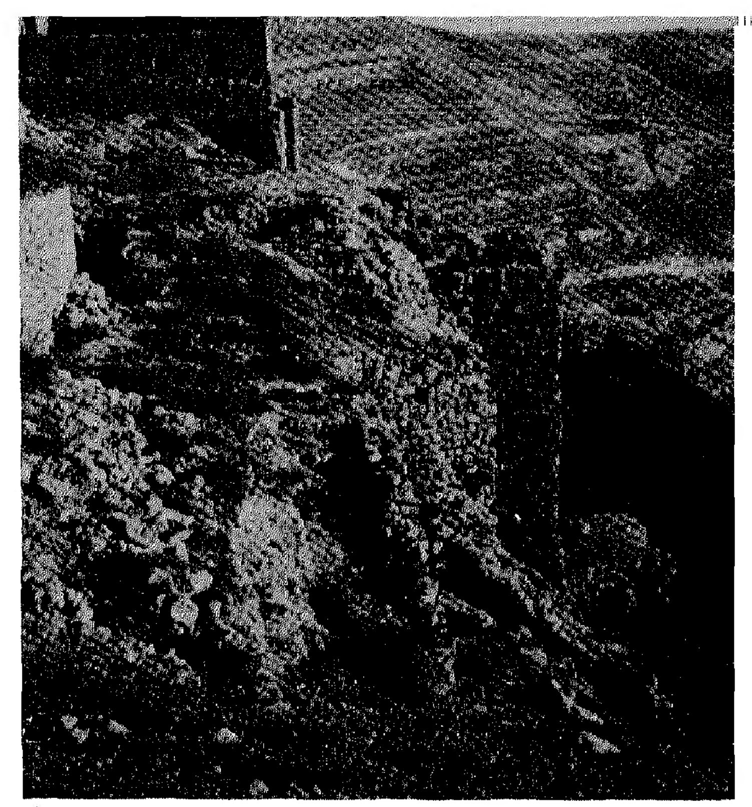
تتلخص خطة استعادة البلاد من الاسرائيليين على يد الملك الثائر مشيع ابن كموشيت بثلاثة مبادىء: (١) اعداد الجبهتين الداخلية والخارجية، (٢) الزحف الخاطف المركز على أهم الموقع، (٣) اذلال العدو المحتل.

بدأ الملك الديباني مشيع ثورته برفض دفع الجزية، وتمركز في القسم الجنوبي من مملكته، وشرع في الاعداد للمعركة. كما أقام أحلافا مع جيرانه أعداء الاسرائيليين التقليديين: العمونيون والبلعاميون سكان مملكة الاغوار (وعاصمتها ديرعلا في وادي الأردن الشمالي).

لم يقف الاسرائيليون مكتوفي الايدي ازاء تمرّد مشيع عليهم. فجردوا حملة احتلال ثانية بعد أن وحّدوا صفوفهم المتفرقة. وساروا بعسكر مجرٍ متبعين خطة جهنمية. فبدل اجتياز نهر الأردن والهبوط على مؤاب من الشمال، قطعوا صحراء النقب وجاءوا إلى عقر دار مشيع، من «برية أدوم». فدخلوا مؤاب «وهم يضربون المؤابيين. وهدموا المدن وكان كل واحد يلقي حجره في كل حلقة جيدة حتى ملأوها، وطمّوا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة»... [عن سفر الملوك الثاني، الاصحاح الثالث].ما أشبه الليلة بالبارحة... ان المطلع على وثيقة كونيغ الصهيوني الداعي إلى «تهويد» منطقة الجليل، لا يرى فرقا ما بين احتلال مؤاب قبل ألفين وتسعمائة سنة، واعادة احتلال الجليل في فلسطين على يد الصهاينة.

أما الملك مشيع، العظيم، الذي عقد أحلافا مع جيرانه، فانه لم يركن إلّا إلى قوته الذاتية المستمدة من وحدة شعبه وتجمّعه. فأنقض على الاسرائيليين وحلفائهم. واستمرت الحرب قرابة ثلاثين سنة... لنمضِ الآن مع الملك مشيع في مسلّته التاريخية ونرى كيف قضى هذا الملك الوطني على مغتصبي بلاده. يقول الملك مشيع في مسلته:

أنا مشيع بن كموشيت ملك مؤاب الديباني [نسبة إلى ديبان عاصمته]. أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة. وأنا ملكت بعد أبي. وأنشأت أهراما هنّ أدلاءٍ، لكموّش [اله مؤاب الوحيد]، بقرحى [مدينتهم المقدسة]. ولقد بنيت ذلك بسرور، لأن كموّش اعانني على قهر كل الملوك، ولانه أشمتني بكل أعدائي المغتصبين. أما عُمري، ملك اسرائيل، فقد اضطهد مؤاب طويلاً، ذلك لأن كموّش أضحى مكروها في أرضه. وخلف عُمّري ابنه، فقال هو الآخر: «سأضطهد مؤاب». أجل لقد قال شيئا كهذا الكلام. ولكن كموّش جعلني أراه مهزوما من أمامي، هو وأهل بيته. بادت اسرائيل، بادت إلى الأبد. وكان عُمْري قد ورث أرض مادبا فأقام فيها مدة حكمه. كما أقام بها الاسرائيليون من بعده، مدة تبلغ نصف حكم أبناء عُمْري. فمجموع ما أقاموه بلغ أربعين سنة. وأرجع كموش مادبا في ايام حكمي. ولقد بنيت خربة معين، وحفرت فيها البركة. ولقد بنيت خربة القريات. أما شعب جاد [قبيلة اسرائيلية كبيرة] فقد كان يسكن خربة عطاروس منذ زمن. وكان ملك اسرائيل قد بنى لشعب جاد خربة عطروس. والتحمت بالمدينة وافتتحتها. وذبحت كل سكانها لأجل كموش ومؤاب (أي لأجل الاله والشعب). ورددت من هناك موقد ايل، اله ملك اسرائيل المحبوب (لاحظ أن الاسرائيليين كانوا يعبدون ايل الاله السامي الوثني القديم) وسحبته إلى بين يدي كموش بالمدينة. وأسكنت فيها شعب شران (قبيلة مؤبية كبيرة) وشعب محرت (قبيلة أخرى مؤابية). وقال لي كموش: «اذهب خذ نبو من اسرائيل». (نبو موقع جبلي حصين بقرب مادبا وقف فيه موسى ورأى فلسطين ولكن لم يدخلها. ومن هذا الموقع اليوم ترى في الليل أضواء مدينة القدس ومآذنها وقبابها بالعين المجردة). فذهبت في نفس تلك الليلة. واشتبكت بالمدينة (نبو) من وقت تبين الخيط الاسود من الابيض حتى الظهر. وافتتحتها. وذبحت كل سكانها وعددهم سبعة آلاف: رجالاً وصبيانا ونساءً وبناتا واماءً. ذلك لأنني ضحيتها لكموّش. كما أنني أخذت من هناك مواقد يهوه، وسحبتها جميعا حتى وضعتها بين يدي كموش. وكان ملك اسرائيل قد بنى عليان وقت محاربته اياي. ولكن كموّش طرده من أمامي. وأخذ من مؤاب مائتي رجل وهم قوام فرقتها العسكرية، ثم قدتهم ضد عليان وأفتتحتها مستردا اياها إلى مملكة ديبان. وأنا الذي بنى قرحى [مدينتهم المقدسة] والحمى [أي الحرم الذي فيها] وبنيت كذلك سور الاكروبولس فيها وأنا الذي بنى أبوابها وأسوارها. وبنيت كذلك موقع بيت الملك. وأنا الذي حفر كلا البركتين للماء بداخل المدينة. ذلك لأن المدينة كانت خالية من أي بئر. فقد



قلعة الكرك

قلتُ يومها للشعب: «ليحفر كل رجل منكم بئراً بداخل بيته». وأنا الذي قطع الاخشاب بأيدي الاسرى الاسرائيليين لقرحى. وقد بنيت عُراعر، وعبّدت الطرق في وادي الموجب. وأنا الذي بنى بيت بموت لأنها كانت مهدّمة تماماً. وأنا الذي بنى أم العمد (اضحت زمن الانباط عاصمة اقليمية مهمة) لأنها كانت قد أصيبت بسوء... وأنا ملكت على مائتي مدينة كنت قد استرددتها إلى ملكة ديبان. وبنيت مادبا من جديد، وخربة دليلة الشرقية وخربت معين وأطلقت هناك الاغنام ذوات الأرجل القصيرة، وضأن المملكة كله لكي ترعى الكلأ. وأما خربة الذباب فقد سكن فيها... (هنا نقص بسبب كسر في المسلة)... وقال لي كموش: «انزل والتحم بخربة الذباب». فنزلت والتحمت... (كسر آخر في المسلة)... وأعادها كموش في أيامي. وكان بقربها من الطرف البعيد عشر... (وهنا تتكسر المسلة ولا نعود نعرف تكملة القصة)...

هذه هي قصة ثورة الملك كموشيت وابنه الملك مشيع، وهي قصة الشعب العربي المؤابي... نقرأها ونقول بمرارة: ما اشبه الليلة بالبارحة.

يلاحظ دارس مسلة الملك مشيع أنها سجل حافل لملك وطني عظيم...

طرد الغزاة الاسرائيليين،
أوقع فيهم أفدح الخسائر،
حرر البلاد من اضطهاد المغتصبين،
استرد الأرض إلى حدود بلاده،
رمم المدن وحصنها،
أشاد المباني والمعاقل والمعابد،
ولم ينس الشعب، فخاطبه، ووجهه، حرص على مصلحته، وسهر على سلامته،
... وجلب إلى بني وطنه خيراً كثيراً...

هذا ما يقوله الملك مشيع في مسلته. افنصدقه فيما يذهب إليه؟

ولم لا! ألم تكتب لنا التوراة المتحيّزة للاسرائيليين عن مشيع وثورته وثورة أبيه؟ ألم تذكر لنا دحره أياهم واستقلاله بوطنه؟ ولم لا نأخذ بأقواله من مسلته، وعلماءالتأريخ على الدوام يكتبون تاريخ الأمم القديمة نقلاً عن مِسَلاّتهم ومن مدونات ملوكهم؟

يكفينا الآن أن نسلم مع الملك الوطني العظيم مشيع بن كموشيت بأنه طهر مملكته من الاسرائيليين الغزاة المحتلين، ووسعها، وأحدث فيها حركة عمرانية كبيرة. ولعمري، فإن هذه المنجزات لَحَريَّةٌ بكل افتخار... جديرة بكل تقدير.

واليوم الذي سنقول فيه مثل الملك مشيع: «بادت اسرائيل»... لن يكون بعيداً.

■





البيروني
٩٧٣ - ١٠٥٠

تاريخه وصفاته من مصنفاته

د. ابراهيم فريد الدر

شغل البيروني والانشغال به:

حين عزمت على معالجة البيروني، ظننت الأمر سهلاً. هو عبقري، فلم لا أغرف قليلاً مما عنده وأفرغ منه. فدخلت عالمه، ويا لبحر هائج مائج. تقف على شاطئه فلا تدرك مداه، وتغوص فيه فلا تسبر أغواره. يسحرك فلا تستطيع رجعة، وتستنجد بما كتب عنه فيدوخك التناقض في تواريخ أخباره. ثم تسمعه مؤنباً «...وقد عاينتني فدع السماعا».

وهكذا تصبح أسيره، لن تعرف أخباره، وصفاته وشخصيته وعبقريته ما لم تقرأه. تنتقي من مصنفاته ما تشاء فلا تضجر، فعنده لكل شربه: رياضيات، فلك، جغرافية، تاريخ، دين، لغة، فلسفة، جيولوجيا، وما في طبقات الأرض من معادن وجواهر، طب، نبات وزهر، أعاجيب المخلوقات، وطالعك في النجوم (حظك والأبراج!).

د. ابراهيم فريد الدر: استاذ الكيمياء الحياتية في كلية الطب في الجامعة الأميركية.

نعم، ثلاثة عشر ألف صفحة كبيرة مرصوصة بالحقائق المسبوكة سبكاً علمياً، إلى معلومات تقنية، ومعادلات رياضية هي خزانة البيروني، يروعك جوهرها، فتوقن عندئذ بعبقريته. ليست الحقائق مبعثرة بل موحدة ذات صورة كاملة. يدافع مثلاً عن الجغرافيا فيربطها إلى «تحديد المسافات بين مختلف الأماكن والقدرة على تعيين الاتجاهات للمسافرين براً، والدراية الكاملة لطبيعة الماء وقاع البحر للربابنة والمرشدين» ويقيم الدليل على أهميتها بذكره حوادث تاريخية منها توجه خالد بن الوليد إلى العراق، وكيف نجا بجيشه حين قطع الصحراء. وفي دفاعه عن القياس والوزن لا يجد فرقاً بين تحديد عروض البلاد والعروض والبلاغة فيقول «... وإذا كان الانسان ناطقاً مع مخالفيه في أمور الدنيا والآخرة مجادلاً خصيماً، احتاج إلى ميزان لكلامه...» الكم والكيف والجدل أمور شغلته كثيراً.

صفاته:

صلب معتز بنفسه ايما إعتزاز، ملتزم بالحقيقة، متجرد من كل تعصب وهوى، فلا يقيم لرأي وزناً إلّا إذا فلّاه. والذي أثار الاعجاب به والنفور منه معاً هو كونه على صواب غالباً. جريء في النقد، فسجل «ما استشنع على أرسطو»، وصحح أخطاء بطليموس، وشرح «لماذا خبر الحيات التي إذا رآها امرؤ أو سمع فحيحها مات، فقال «ليت شعري من أخبر بمكانها أو بأمرها إذا كان المطلع عليها ميتاً»، وأنّب الرازي لاستخفافه بالهندسة، ولتفاهته على الرياسة، ولأنه«منخدع لكن ليس خادعاً».

يميز في نقده بين الشخص وقوله أو عمله. البيروني أحب الرازي مثلاً ونقده بشدة. أضنى نفسه في دراسة الهندسة وأحب أهلها، لكنه غضب لتخليطهم العلم بالخرافة، فقال:«إني أشبه ما في كتبهم من الحساب والتعاليم «..بدر ممزوج ببعر ... والجنسان عندهم سيان» وهو الذي وصف أرقامهم أحسن وصف.

نشاط خارق وحركة مستمرة. تراه على جبل تارة، وفي واد بعد قليل، يقيس ويرصد. إذا لم يجد آلة صنعها. أو جعل من ورقة مقياساً دقيقاً بعد إبتكار المعادلة الملائمة. ويعود متعباً، فيلومه صديق على كثرة إنشغاله، ويجيبه البيروني بكتاب يشرح فيه فوائد ذلك العمل، ويسأله صديق سؤالاً بسيطاً فيقدم له سفراً قيماً. وهذا دأبه فلقد كرس حياته للعلم والتعليم. حتى على فراش موته يطلب من عالم جواباً، فيبكي هذا العالم: أعلى فراش الموت تطلب العلم، فيرد أبو الريحان «أخشى أن ألقى ربي جاهلاً».

أهمل ذكره ابن خلكان في الوفيات، وابن الأثير في تاريخه. لكن البيروني ليس بالرجل الذي يرضى أن يؤرخ له أحد، وهو الذي أرخ للأمم، وفي طبيعة عمله في الرصد بساعاته وتواريخه نعرف تحركاته. لم يخسر البيروني إذن، بل الخاسر من أهمل ذكره. تصور مؤرخاً لرجال القرن العشرين لا يذكر اينشتين، أو جريدة لا تذكر أخبار أعظم علماء عصرها! يجمع المستشرقون أن «تاريخ العلوم لا يكتمل إلّا بذكره... وسيحتل مكانة رفيعة بين أي مجموعة من أكبر علماء الدنيا... فيه أمُّ صفات العالِم... وهو قدوة لكل العصور...».

بقيت أكثر كتب البيروني متداولة حتى القرن الخامس عشر ثم انطوى ذكره وانطفأ نور العلم حين زلزلت أخيراً مراكز العلم من قواعدها وأخذ الظلام يلف الحضارة العربية.

لم يعرف الغرب بالبيروني إلّا في القرن التاسع عشر، وما كان سهلاً اكتشافه، ذلك أن ترجمة أعماله تتطلب مقدرة لغوية وعلمية، ثم أن نظرياته المتقدمة ومعادلاته في الرياضيات كان سيعيا فهمها على أهل العصر. لذلك يقول أحد المستشرقين «... كان ذو نظرة شاملة لا تتقيد بزمن ... وكتبه من ألف سنة تسبق كثيراً من المناهج الفكرية التي نظنها حديثة...».

الغرب يبعثه:

كان المستشرق نيكولاس دي خانيكوف أول من نبه اوروبا إلى البيروني سنة ١٨٦٦. وسرعان ما تتدفق الكتب «حساب المثلثات عند البيروني، جغرافية البيروني..». من أعظم

اسطرلاب من القرن التاسع

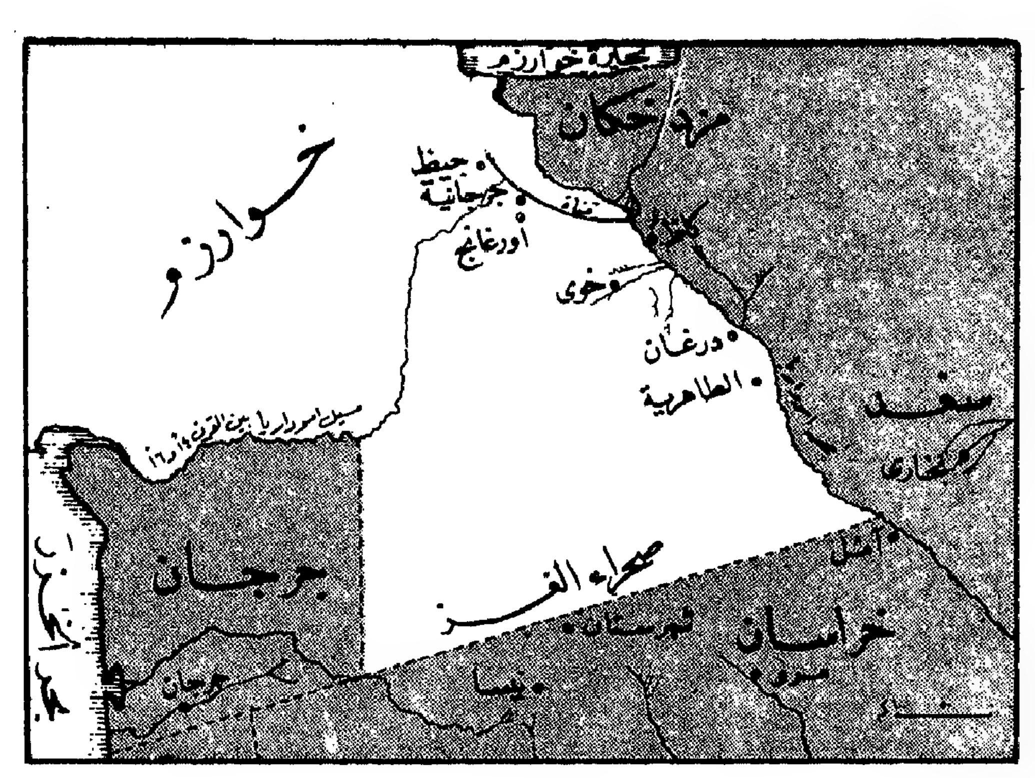


المحققين كان الألماني ساخاو الذي ترجم إلى الالمانية والانجليزية كتابين ضخمين (الآثار الباقية عن القرون الخالية، ١٨٧٩ وتاريخ الهندسة ١٨٨٨) ويقول ساخاو «... البيروني أعظم عقلية ظهرت في التاريخ ...» وبعد أن اطلع الخبراء على كتبه عن الهند قال أحدهم «... محاولة فريدة من رجل مؤمن يدرس بنزاهة وتجرد حضارة وثنية ... ومن جهة تاريخية جاءت هذه الدراسة أكبر ظاهرة علمية في تاريخ الاسلام ... وجميع ما كتب من قبل هو أشبه بألعاب أطفال...» لذلك اهتم الهنود بالبيروني، وفي ١٩١٣ قامت بعثة لتجميع آثاره، وكذلك الفرس. وما إن دخل النصف الثاني من القرن العشرين حتى كثرت المهرجانات والكتب، وأخذت الدول تتنازع شرف الانتماء إليه، فتحسبه من أبنائها.

روسيا تسمي جامعة ومدينة على اسمه، وتقيم له تمثالاً في جامعة موسكو. وتكرمه الهند وايران وافغانستان، وجامعات في اميركا والمانيا، واليونسكو تصدر فهرساً بالمآثر العربية، ومن بينها أعماله. حتى تركيا تريده، لأنها تظن أن البيروني سليل الأتراك الذين انتشروا بين بحري أرآل وقزوين.

ديننا والدولة عربيان:

أما البيروني فقال في آخر مصنفاته (الصيدنة في الطب): «ديننا والدولة عربيان ... وكم احتشد طوائف من التوابع ... في إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم تنفق لهم في المراد سوق... حبل الاسلام غير منفصم وحصنه غير منثلم... وإلى لسان العرب نقلت العلوم فازدانت وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في



الشرايين والأوردة..» كان يتكلم الفارسية ولغات غيرها، إنما كتب بالعربية، وهو الذي يقول «الهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية».

ليس مدار هذا القول تثبيت حق أمة في البيروني دون غيرها، فالبيروني نادى بوحدة الجذور الانسانية بين شعوب شتى في عالم واحد، لا تستهويه شؤون البشر الدنيوية، فتجرد من كل هوى وتعصب، وانزوى عن مباهج الدنيا ومفاتنها، فعاش زاهداً، يطلب من الغير إلتزاماً إقامه على نفسه، وكأنه يهتدي بالفاروق في كثير من صفاته وتصرفاته ...« فإني لا آبى قبول الحق من أي معدن وجدته...».

أما الآن فسنترك آثاره العلمية وابتكاراته البديعة لمن يفهمها، لنسرد قليلاً من التاريخ المتعلق بعصره وبحياته وبالمناطق التي عاش فيها...

عصره:

عصر البيروني عصر مظلم لما اشتعلت فيه من فتن، إنما يذهل بما جمع من خالدين. هذا ابن يونس (متوفي ١٠٠٩) عبقري الفلك وحساب المثلثات يخترع الرقاص الكروي، ويستعمله مقياساً للزمن، وذاك ابن الهيثم (١٩٦٥ - ١٠٣٩) نابغة الرياضيات والفيزياء يطور علم البصريات والعدسات، وهناك علي بن عيسى أشهر جراح ومصنف في حقل البصر والعيون. ولا ننسى الفيلسوف الطبيب ابن سينا. هؤلاء قلة من علماء المشرق، ونستميح العذر من علماء المغرب مثل ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) إذ لم يتسع المجال لذكر أسمائهم. ويجود هذا الحين بنخبة من الأدباء مثل أبي العلاء المعري الذي ولد بعد البيروني بثلاثة أشهر، فلا عجب إذا كان هذا العصر هو عصر التأليف العلمي الخلاق في تاريخ الحضارة العربية، وفيه وصل الفكر ذروته في القرون الوسطى.

يقول المؤرخ سارطون الذي قوم حضارات الأمم وعدد منجزاتها في كتابه الضخم «المقدمة إلى تاريخ العلوم» إن النصف الأول للقرن الحادي عشر ينبغي أن يسمى «عصر البيروني» لأنه ملأ عصره، وفاق معاصريه إذ حلق فلم يلحق به أحد.

أما الناحية السياسية لعصر البيروني فكانت مرحلة الهوان والانحلال للخلافة العباسية، إذ طغى عبيد وعساكر على ولاتهم، فتبعثرت الخلافة دويلات تركية وفارسية من شيع وطوائف مختلفة، كانت أشبه بكبكوبة خيطان، يدوخ من يحاول فك عقدها. سنذكر بعض هذه

الدويلات حين نستعرض حياة البيروني.

خوارزم تدخل الحضارة العربية:

ترعرع البيروني في خوارزم، وسنذكر قليلاً من تاريخ هذه المنطقة وصفات أهلها.

حين استقر الحكم للأمويين أوعز الحجاج ابن يوسف سنة ٧٠٤ إلى والي خراسان المقيم في مرو، القائد قتيبة بن مسلم، أن يعبر نهر آموداريا (جيحون آنذاك) ويفتح بلاد ما وراء هذا النهر الذي توقفت عنده جيوش عثمان بن عفان. كان هذا النهر يفصل بين قوميات تتكلم الفارسية وأقوام تتكلم التركية (التركمان). بعد عمليات رائعة دامت ٨ سنوات أخضع قتيبة الأقاليم الشمالية الشرقية (بخاري، طشقند وسمرقند)، كما أخضع الأقليم الشمالي الغربي (خوارزم). ولقد دمر قتيبة كثيراً من الأصنام والمعابد، ولم يغفر البيروني لقتيبة تدميره بحضارة الخوارزميين. جاء هذا الفتح بعواقب محمودة إذ مهد لنمو مراكز علمية وثقافية عظيمة ساهمت في تقدم الحضارة العالمية الممثلة آنذاك بالعرب. لعل القارىء يذكر أن عباقرة مثل الزمخشري والخوارزمي ولدوا في خوارزم، وكذلك البيروني. وما بين بحر خوارزم (آرال) وبحر قزوين إلى الغرب عاش البيروني النصف الأول من حياته.

صفات أهله ووطنه:

اشتهرت في خوارزم آنذاك مدينتان: كات والجرجانية إلى الشمال. كلاهما على نهر آموداريا وتعرفان اليوم بأسمي كيفا (خيفا) وأورغنج، وهما في روسيا حالياً. يقول ياقوت عن خوارزم: ... أهلها علماء فقهاء أذكياء أغنياء، فهي لعمري بلاد طيبة .. فيهم جلد وقوة .. غالب عليهم الطول والضخامة ... وفي رؤوسهم عرض، ولهم جبهات واسعة ... مرنوا على القناعة بالشيء اليسير (والمترفون مثل الفقراء) ونستنتج أيضاً أنهم ذو تعلق شديد بوطنهم.

يقول لنا المقريزي: «أخبار البلاد وآثار العباد»: الجرجانية مدينة عجيبة إذ كل أهلها أجناد حتى البقال والقصاب والخباز والحائك... وأهلها أهل الصناعات الدقيقة ... يغلب عليهم ممارسة علم الكلام في الأسواق والدروب، يناظرون بلا تعصب، وينكرون من أحد ذلك قائلين: ليس لك إلاَّ الغلبة بالحجة...».

عاش البيروني أيضاً في جرجان (ايران) على بحر قزوين وهي (مدينة حسنة على واد عظيم ... سهلية جبلية بحرية .. أودية هائلة وجبال عالية ... إذا غدا القناص راح بما اشتهى. بها الثلج والنخيل .. وحرها ينضج الجلود ... وبها ثعابين تهول الناظر لكن لا ضرر لها... أما أهلها فيأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة).

وقضى البيروني مدة كبيرة من حياته في غزنة (افغانستان) وسنذكرها بعدئذٍ.

نشأته:

ولد البيروني في ٤ أيلول ٩٧٣ قريباً من كيفا (كات)، ويقول أنه لا يعرف نسبته ولا أباه



ولا جده. أما كلمة «بيرون» الفارسية فتعني «الغريب أو الخارج»، مما يدل على أنه لم يكن من أفراد مجتمع مستقر. لربما كان ذلك من كثرة تجوال أهله كتجار، أو لأقامتهم خارج أسوار المدينة تجنباً لدفع الضرائب.

اشتغل من صغره كمساعد لعالم نبات يوناني، فكان يجمع الزهر، ويشاهد ترتيبها وفحصها. لا ريب أن هذا العمل أثَّر فيه، لأنه

ترك لنا مصنفات في الزهر وخصائص أوراقها من ناحية عددها. غير أن حبه الأول والأخير هو للرياضيات، إذ فيها يرى القدح، ومن حسن حظه أن يكون استاذه الفلكي المشهور أبو نصر المنصور بن علي بن العراق (تلميذ أبي الوفاء). الذي تنبه إلى نبوغه، ودربه، ثم نشأت بينهما مودة وثقة عظيمتان. اشتغل بالارصاد الفلكية، ولم يتجاوز سنة ١٧ سنة حين صمم طوقا مقسماً إلى أنصاف درجات، ليرصد إرتفاع الأوج للشمس في كيفا، وليستخرج بذلك خط العرض لموقعها على الكرة الأرضية. وبعد أربع سنوات خطط لعمليات أوسع، وصمم الأدوات الضرورية وطوقا قطره ٨ أمتار تقريباً، لكنه قام برصد واحد في صيف ٩٩٥، لأن فتنة ضربت بلده. يقول في كتابه «تحديد الأماكن لتصحيح مسافات المساكن»:

«ولم أتمكن إلا من رصد غاية الارتفاع بقرية على غربي جيحون وجنوب مدينة خوارزم ... وردف هذا اليوم من التشاويش بين كبيري خوارزم ما أحوج إلى تعطيل ذلك والتحصن ... ثم الاغتراب عن الوطن ... ولم يستقر بي بعدها القرار...».

تشرده:

لا ريب أن سبب تشرّده هو هربه من فتنة ضربت كات حين غزاها وحاصرها والي الجرجانية المدنية الثانية والكبيرة في غوارزم، لعل القارىء يذكر أن ذلك العصر شاهد تفتت أطراف الدولة العباسية، فأمست دويلات، في كل مدينة متمرد ثم سلطان. يذكر المقريزي أن محمداً بن فامون والي الجرجانية استولى على كات بعد أن قتل الخوارزم شاه أبا العباس (أو أبا عبد الله) عام ٩٩٥، وضم كات وما حولها إلى سلطانه. كان البيروني يناصر والي بلده، فهرب. يقول البيروتي في كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أنه لجأ إلى الري (القريبة من طهران وبحر قزوين)، وكان في بؤس وفقر مدقع مما أثار عليه سخرية أحد المنجمين، لكنهما تصاحبا بعد ذلك. ثم دعاه الأمير البويهي فخر الدولة، فبنى له مزولة كبيرة على جبل مشرف على الري، وسماها باسم الأمير. وفي هذه المدة عمل في مناطق كثيرة حول بحر قزوين، ولا سيما قريباً من مدينة مزدهرة آنذاك اسمها جرجان (جزء من طبرستان).

بعد ذلك يقول في كتابه «تحديد...» أنه عاد إلى كيفا حيث شاهد خسوف القمر ليلة ٢٤ أيار ٩٩٧، ويقول أنه كان قد اتصل بالفلكي أبي الوفاء في بغداد، وطلب منه رصد الخسوف وتقرير الوقت لمعرفة الفرق الزمني بين مشاهدة الخسوف في بغداد وكيفا. بادر البيروني إلى هذا العمل المشترك. وإذا تذكرنا مواصلات ذلك العصر، أدركنا أن البيروني كان يخطط ويرتب وينسق لمهمات وأعمال ينوي تنفيذها في المستقبل.

إلى بخارى وجرجان:

وفي هذا العام (٩٩٧) تولى الأمير الساماني الشاب منصور بن نوح الثاني الحكم في بخارى، فلجأ إليه البيروني، وعينه الأمير منجما في البلاط. ولعل القارىء يذكر أن نجم البلاط المتألق آنذاك كان الطبيب ابن سينا الذي حظي بمنزلة رفيعة لشفائه امير. ولربما كانت هذه الفرصة الأولى للقاء شخصي بين البيروني وابن سينا الذي كان يصغر البيروني بسبع سنين. يبدو أن البيروني لم يسر بجو البلاط، فقد وضع لنفسه أهدافا أكبر ولا بعلمه، ولا بشخصية ابن سينا، فقرر أن يترك وهو الذي سنحت له الفرصة في عام ٩٩٨ حين زار في بخاري أمير الزياريين شمس المعالي قابوس الذي كان والياً على جرجان: عرف عن هذا الأمير ذكاؤه وحبه للعلم والعلماء، فاصطحب البيروني إلى جرجان. من حسن حظ البيروني أنه ترك بخارى، ذلك أن الفتن عصفت بالبلد، فخلع الأمير الشاب وسمل، وتطورت الأمور حتى دخل بخارى الأمير الغزنوي محمود. كان ابن سينا شاهداً على هذه الاضطرابات، وهرب من بخارى بعد أربع سنوات من رحيل البيروني، وتشرد وذاق ذلًا بعد عز.

أما البيروني فقد استقر في جرجان، وطلب منه قابوس أن يكون مستشاره فأبى، مفضلاً التفرغ إلى العلم، فكان له ذلك، وصنف كتابه

المشهور «الآثار..» وقدمه إلى الأمير سنة ١٠٠٠. يذكر في هذا الكتاب ما صنفه من كتب (سبعة مفقودة) غير أن وصفه يدل على أنه تثبت في العلوم، ووضع الأسس لما كان ينوي عمله بعدئذٍ. ويتحدث عن النظام العشري للحساب، وعمليات الرصد وغير ذلك من أمور، وكان عمره حينئذ ٢٧ سنة. وفي هذا الكتاب يشير إلى ابن سينا «بالشاب». يقول الدكتور كندي إن هذا الوصف من رجل ما زال في العشرينات يشير إلى تكبر البيروني على شاب نبغ مبكراً.

عودة إلى الوطن:

حين مات محمد بن مأمون الذي منه هرب البيروني، وخلفه ابنه علي، كانت الأحوال السياسية والحزازات الشخصية قد هدأت، فدعاه علي ليرجع إلى خوارزم، فرجع لما نعرفه غن البيروني من تعلق بمنطقته. ونعرف متى عاد من سجلاته للارصاد: فيقول أنه رصد كسوف القمر ليلة السبت، ١٩ شباط ١٠٠٣، وليلة الأحد، ١٤ آب ١٠٠٣ وهو في جرجان. أما الرصد الثالث فكان ليلة الأربعاء، ٤ حزيران ١٠٠٤ من الجرجانية عاصمة خوارزم (القانون، المقالة ٧، صفحة ٧٤٠ - ٧٤١). إذن قبل دعوة علي الذي ألحقه بحاشية أخيه الأمير ابن العباس مأمون. وبعد رحيل البيروني عن قابوس عصفت الفتن بجرجان وأودت بحياة قابوس خلال سنوات قليلة.

بعد وفاة علي حوالي ١٠٠٩ خلفه أبو العباس الذي زاد من أعباء البيروني إذ عينه مستشاراً سياسياً مقيماً في القصر وسفيراً مفيداً لرجاحة عقله وطلاقة لسانه وقوة حججه في الاقناع. يتذمر البيروني لأن ارصاده تأثرت، وأعماله في مجلس العلوم خفت، فيقول في (تحديد...) «... فأكرهت من أحوال الدنيا على ما حسدني عليه الجاهل ... ثم تفرغت قليل التفرغ في أيام الشهيد أبي العباس..» لكن أشغاله لا تثنيه عن إنهاء ما بدأه سنة ٩٩٥ من قياسات لارتفاع الشمس، ولا سيما أن ولي نعمته وهبه مالاً لينشيء جهازاً يرصد به أوج الشمس، ويقوم بذلك ما بين ٧ حزيران و ٧ كانون الأول سنة ١٠١٦ وفي هذه الفترة المزدهرة يصمم «نصف كرة» قطرها ٥ أمتار، لتكون جهازاً يبين الحلول بالخطوط البيانية لمسائل تتعلق بعلم هيئة الأرض وقياس خواصها كالمساحة مثلاً.

الأسر:

وتأبى الأقدار إلّا تخريب عمله فتهب فتنة يذهب مأمون ضحيتها، وكما يقول البيروني «... أسفر عقباها من أمن لا يتسع للعود إلى الحال الأولى، والاشتغال بما هو بمثلي أولى...». عندئذٍ يثأر محمود الغزنوي لصهره فيحتل خوارزم في ٣ تموز ١٧١٧، ويسوق من في البلاط أسرى بمن فيهم البيروني، في ربيع ١٠١٨. وهكذا ينتهي هذا العالم إلى غزنة، عاصمة محمود في افغانستان.

لكن البيروني ليس بالرجل الذي يهدأ، أو تعيقه المصائب عن مهماته، فيبدأ كتابة (تحديد..) وهو في طريقه إلى الأسر، ونقرأ له في بداية الفصل الثالث:

«إنني يوم كتابتي هذا الفصل، وهو يوم الثلاثاء غرة جمادي الآخرة سنة تسع وأربعمئة للهجرة (١٤ تشرين أول ١٠١٨) كنت بجيفور، قرية إلى جنب كابول.. وقد حملني شدة الحرص على رصد عروض هذه المواضع، وأنا ممتحن بما أظن أن نوحا ولوطا لم يمتحنا بمثله ... ولم أتمكن من آلة للارتفاع، واعوزني وجود شيء من المواد التي منها تهيأ، فخططت على ظهر تخت الحساب قوساً من دائرة...».

هو ويمين الدولة:

كانت العلاقة بين الأمير محمود والبيروني خليطاً من الحذر والتقدير، فالأمير أخذ على البيروني رفضه ترك بلاط خوارزم حين دعاه إلى غزنة من قبل، والأمير قاهر الأمصار ذو شخصية تختلف عن شخصية عالم منفتح على العلم بكل ما فيه، تأنف العنف والقهر. كلاهما حمل بعضهما بعضاً على بغض. لكن البيروني المغلوب على أمره لا يقصر في واجبه العلمي وإن قصر في ثنائه على الأمير. ومحمود لا يبخل على العالم بالمدد وإن ضيق عليه في حريته، فكان

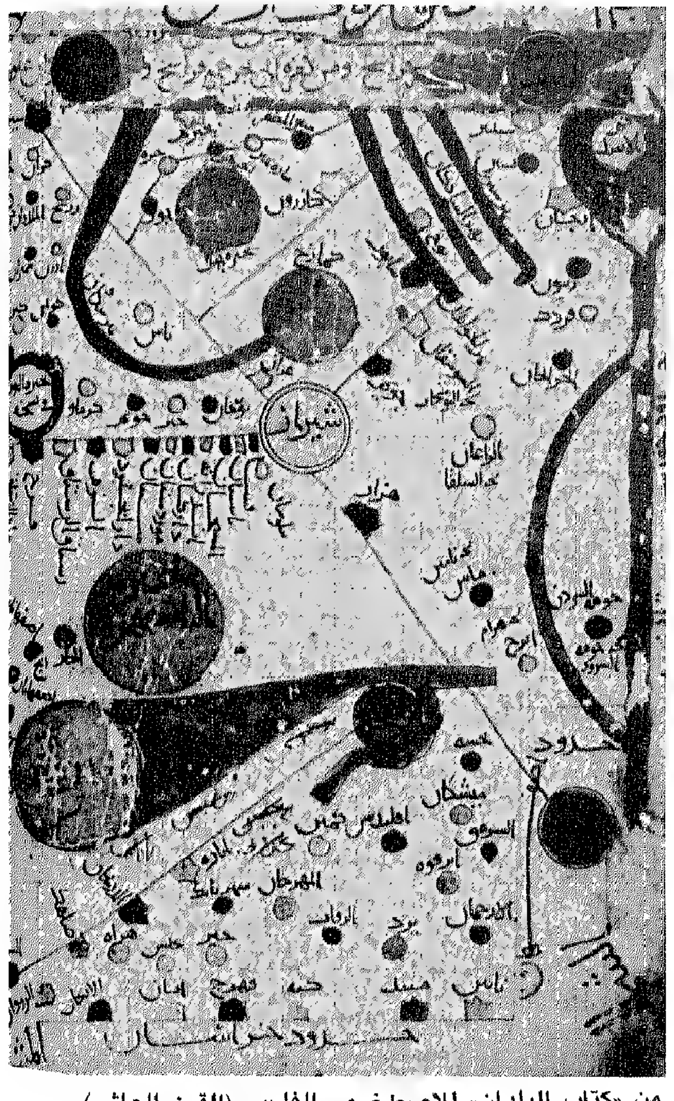
يأمن شره ويستفيد منه باصطحابه في غزواته للبنجاب، وقد رافقه ١٣ مرة خلال عشر سنين.

اشتغل البيروني في الجامعة العظيمة التي أنشأها محمود في غزنة، وأصبحت مركزاً علمياً وثقافياً ومده بالمال لإنشاء مركز ضخم لتحديد خط العرض للعاصمة ما بين ١٠١٨ - ١٠٢٠، والبيروني لا يبخس أحداً حتى أعداءه حقاً، فكان يشير إلى هذا المركز «باليميني» على لقب محمود الذي سماه الخليفة يمين الدولة. ويجدر بالاشارة أن التسمية مذكورة في كتب صنفها بعد وفاة محمود، ولم يقدم كتاباً له أبداً.

إذا تذمر البيروني من محمود، فرب ضارة نافعة، ذلك أن إصطحاب محمود للبيروني إلى الهند عام ١٠٢٢ كان كسباً جليلاً للحضارة والعالم، بما قدمه البيروني من دراسات كاملة وشاملة عن الهند، وسنفصلها في مكان آخر. المهم أن البيروني استقر في غزنة حتى وفاته حوالي ١٣ كانون الأول ١٠٥٠، أو بعد ذلك.

الأيام الهادئة:

بعد وفاة محمود في ١٠٣٠ خلفه ابنه مسعود الذي تغلب على أخيه، وتحسنت أحوال البيروني المادية، وزادت حريته فتمكن من زيارة بلده سنة ١٠٣٢ أو ١٠٣٤. وامتازت هذه الفترة بغزارة التصنيف في حقول مختلفة. كان يكتب مصنفه العظيم «القانون» وقد فرغ منه حين مات محمود. وانتظر البيروني نتيجة الصراع بين الأخوين قبل إصداره، وانتصر مسعود الذي سارع إلى إعطاء هذا العالم حريته فزار بلده، ووفر له الحياة الكريمة. عندئذ قدم البيروني مصنفه الرائع إلى مسعود وسماه (القانون المسعودي). في مقدمة هذا الكتاب لا يثني على محمود وهو المتوفي من عهد قريب، ولا يشير إليه إلّا «بالأمير رحمه الله» أو بلقبه «يمين الدولة»، ويخص مسعوداً بالثناء، وإن كان هذا الأمير سكيراً عربيداً، فهذا شأنه. ولم لا يمدحه بعد معاملته الطيبة للعلم بشخص أكبر عالم عنده. يقول في المقدمة «... فكيف وقد مكنني في صبابة عمري من الانبساط لخدمة العلم، إذ حلاّني وأسبل علي في ظله الظليل ستر الآمنة، ومطر بهو أطل النعمة، وشفع ذلك



من «كتاب البلدان» للاصطخري الفارسي (القرن العاشر) خريطة تفصيلية لموقع «شيراز»

بتقريب وإيناس متتابع ... وشرّف بتوقيعاته ... الخزاين والديوان...» إذن حصل البيروني على ما يشبه معاش التقاعد، وعلى مساعدين من الكتبة والفنيين ليتفرغ إلى عمله، ولينتقل بحرية بين البلاد.

عبقري يؤخذ بالأحلام والمنجمين:

يقول في «تاريخ الهند» الذي أصدره ١٠٣١ أنه بعد الخمسين من عمره مرض مرضاً شديداً مرات كثيرة، وفي ضيقه يسأل المنجمين عما يخبىء له القدر! ولم تتحسن صحته إلاّ حين بلغ سن الستين (بالتاريخ القمري). ويروي أنه شاهد حلماً ظهر فيها هلال أخذ يختفي، وسمع صوتاً يقول له «سترى مثل هذا الهلال ١٧٠

آخـرين...». وصحت الأحـلام إذ نيّف عـلى الثمانين!.

إنقطاع أخباره:

في سنة ١٠٤٠ يثور قواد مسعود ويذبحون الأمير، ويخلفه ابنه مودود، الذي يقدم إليه آخر مصنفاته «الصيدنة في الطب» وفي هذا الكتاب يـذكر أنـه نيّف على الثمـانـين وخف سمعـه وبصـره؛ وتقل أخبـاره بعد ١٠٤٨ ذلـك أن الاضطرابات أنهت حكم مودود. تذكر المصادر العربية أن وفاته كانت سنة ١٠٤٨، لكن الثابت من أقواله في كتاب «الصيدنة في الطب» أنه كان حيا ذلك العام، ولربما توفي حوالي ١٠٥٠.

مصنفاته:

في سنة ١٠٣٦ ينهي «فهرساً» بأعماله حتى هذا التاريخ، فلا يشكّل على أحد، ويقول بلغة الواثق والمتيقن من أهمية أعماله:

«... ويجب عليك أن تعلم فيما عددته من كتبي بما عملته في حداثتي، وازدادت المعرفة بفنه بعد ذلك فلم أطرحه أو استرذله، فإنهـا جميعاً أبنائي، والأكثر بأبنه وشعره مفتون ...» ثم يذكر أسماء الكتب التي اتفق لي عملها سنة ٤٢٧ للهجرة. وقد تم من عمري ٦٥ سنة قمرية، و٦٣ سنة شمسية...» ونعرف أنه كتب ١٨٠ مصنفاً أو أكثر، نوجز الحديث عن بعض منها.

لا بد أن نعود إلى كتابه «تحديد الأمـاكن لتصحيح مسافات المساكن». ذكرنا هذا الكتاب حين سردنا تاريخ البيروني. فرغ تصنيفه في ٢٨ آب ١٠٢٥ والكتاب سفر قيم لقياس خطوط العـرض والطول، ومـوقع البلـدان على الكـرة الأرضية. وكان همه الأول تحديد موقع الكعبة الشريفة بالنسبة إلى غزنة وغيرها من بـلاد. ولقـد أنجز المهمـة بنجاح بـاهـر كمـا يقـول البـروفسور كنـدي. وفي الكتـاب بحث واسـع لتحركات الجبال والمحيطات وأثرها في تغير مركز الأرض. وبالتالي تغير الخطوط المذكورة.

وصلتنا مخطوطة واحدة تـرجمها الـدكتور جميل علي إلى الانجليـزية، وعلق عليهـا خبير



من الأطلس الكبير للادريسي (القرن الثاني عشر) خريطة العالم المعروف و«نهاياته»، تبدو آسيا واوروبا وشمال افريقيا.

البيروني الدكتور أدوار كندي الذي حول رموزها وأشكـالها إلى المصطلحـات الحديثـة، وراجـع حسابات البيروني مستعملاً الدماغ الالكتروني أحيانا، ولقد سجل إكباره للبيروني لدقة حساباته وابتكاراته. في هذا الكتاب يغير ويطور المعنى القديم لمصطلح «الميل إلى معناه الحديث، وهو إنحراف المسافة لشيء ما عن مستوى الشمس، ويبتكر الطرق الضرورية لتحديد قيمته».

أما «القانون المسعودي» الذي أشرنا إليه. فهو موسوعة ضخمة تلخص قواعد البيروني وابتكاراته. وفي الموسوعة خزانة كبيرة لتاريخ الأمم وتقاويمها من «يوم آدم» إلى يوم البيروني ... فليراجعه من يشاء...

لم يُصدر «القانون» فحسب بل كتابين ضخمين عن الهند ما بين سنتي ١٠٣٠ – ١٠٣١ (طريق الهند، وتاريخ الهند) إلى غيرهما من كتب علمية.

أما كتاب «تاريخ الهند» فهو «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة». مرجع أساسي كامل للحضارة الهندية. لم يترك شيئاً إلاّ وكتبه، ويقول المستشرق بيلر «كتبه .. وهو ينظر بعقل الفيلسوف والرياضي العارف بمناهج البحث عند أرسطو وأفلاطون وبطليموس وجالينوس...» ويعترف البيروني «... ولقد أعيتني المداخل فيه، مع حرصي الذي تفردت به في أيامي...» ولقد أراد البيروني الكتاب لكل مسلم راغب في مناقشة الهنود، أن يفعل ذلك فيكون حوار الند للند!

بعض مآثره:

كان له من العزم ما جعله يقوم بحسابات وحل معادلات لا تعالج اليوم إلاّ بالأدمغة الالكترونية. اختار أصعب المسائل وحلها، وتسمى هذه المسائل الهندسية والرياضية «مسائل البيروني». وقدم طريقة بسيطة للرسم على الأوراق أشكالاً هندسية من ذوات البعد الثالث، كالأجسام الكروية. ومن أهم أعماله الفلكية ابتكاره نظرية خاصة لتقدير «النسبة التقريبية» الضرورية لحساب مساحات ومحيطات الدوائر، وتمكن من تقدير محيط الكرة الأرضية وقطرها. يجد البيروني قيمة النسبة التقريبية ٣,١٤١٧٤ والصحيحة هي ٣,١٤١٥٩. هو إذن مبتكر القاعدة المعروفة بقاعدة البيروني، وهي معادلة رياضية تستخدم في حساب نصف قطر الأرض استناداً إلى معرفة محيطها. المعادلة بسيطة، شأنها شأن القواعد الجليلة، ويقول نللينو «... معادلة البيروني لقياس محيط الأرض هي من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة...».

صمم جهازاً بسيطاً لقياس الوزن النوعي (الكثافة) لبعض المعادن والجواهر، ونتائجه تشهد عليه: الذهب: ١٩,٢٦، وهذه هي اليوم! ويقول أن الذهب سمي كذلك «لأنه سريع الذهاب بطيء الاياب على الأصحاب!». وهو أول من استعمل الوحدة (نسبة واحد) للنسب المعروفة في حساب المثلثات، وهذا الاستعمال قائم حتى الآن...

مصنفاته باستثناء القليل ذات أسلوب واضح، لا لبس فيه ولا إبهام، وإن كان غير سلس. يحب الايجاز فيقول أنه يكتب «... لمن له دراية واجتهاد، ومحب العلم ... ومن كان على غير هذه الصفة، فلست أبالي أفهم أم لم يفهم...».

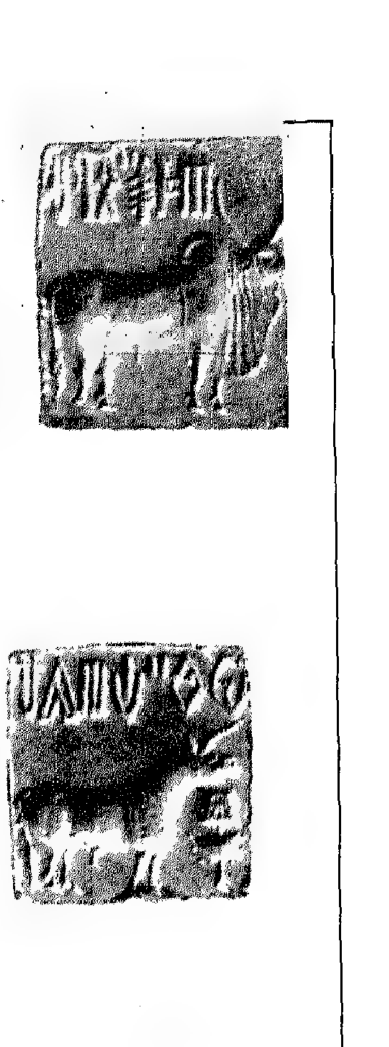
بعض ما نأخذ عليه:

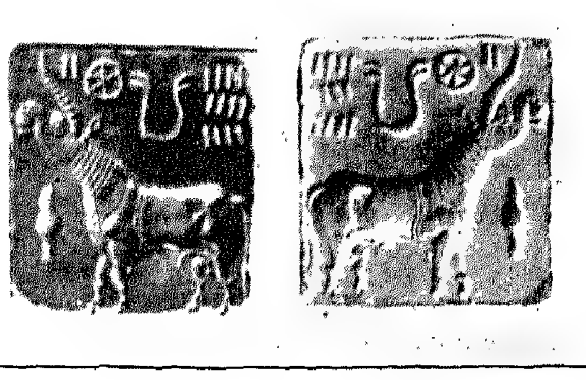
نأخذ عليه تقصيره في استقصاء مسائل حيوية أثارها هو بنفسه، كدوران الأرض حول الشمس، ودوران الاجرام في مدارات بيضية لا كروية، وهكذا يكون قد سبق كوبرنيكس وكبلر بستمئة سنة. ولم ينكر أراء أرسطو كليا وإن أنكر عليه كثيراً من أقواله. ويبقى يعتقد أن الشمس ليست مصدر الحرارة، بل مصدرها احتكاك الأجرام.

لربما إنشغاله بإعادة تجاربه حتى استحوذت عليه دقة الأرقام بمنازلها الست، صرفه عن أمور كان ينبغي عليه أن يدرك أهميتها أكثر من أهمية فروق في النتائج. لا أعتقد أن البيروني سيغضب لهذا النقد إذ لم انخله كما نخل الناس!. ◘

مدنية السند وعلم الآثار

د. نقولا زيادة





أختام من موهنجودارو

كان المتعارف عليه بين المؤرخين إلى أوائل القرن الحالي أن قوماً دخلوا حوض السند في أواسط الألف الثاني ق.م. من الجهة الشمالية الغربية، وإن هؤلاء هم الذين أوجدوا حضارة الهند التي حفظتها لنا الخرافات والأساطير وتحدث عنها الكتاب ووصفها الرَّحالة وهي التي كانت السنسكريتية لغتها وآدابها.

ولكن في سنة ١٩٢١ كان بعض المسؤولين في تلك المنطقة يدورون بالمعبد البوذي القائم في مكان يسميه الناس «تل الموتى» (موهنجودارو) لتنظيف البناء، لما تبدَّت لهم آثار لا تمتّ إلى المعبد بصلة. فأخذوا يخدشون الأرض، ثم أخذوا يعمقون الجراح. وتولى أمر الحفر هناك السير جون مارشال، الذي كان مديراً لإدارة الآثار الهندية، فكان أن اتضح لعلماء الآثار، في غضون سنوات قصيرة، إن المكان الذي يسميه الناس «تل الموتى» كان، قبل أربعة الآف وخمسمئة سنة، مدينة تعج بالحياة بكل معنى الكلمة. وكان كل موسم يزيح نقابا عما خفي



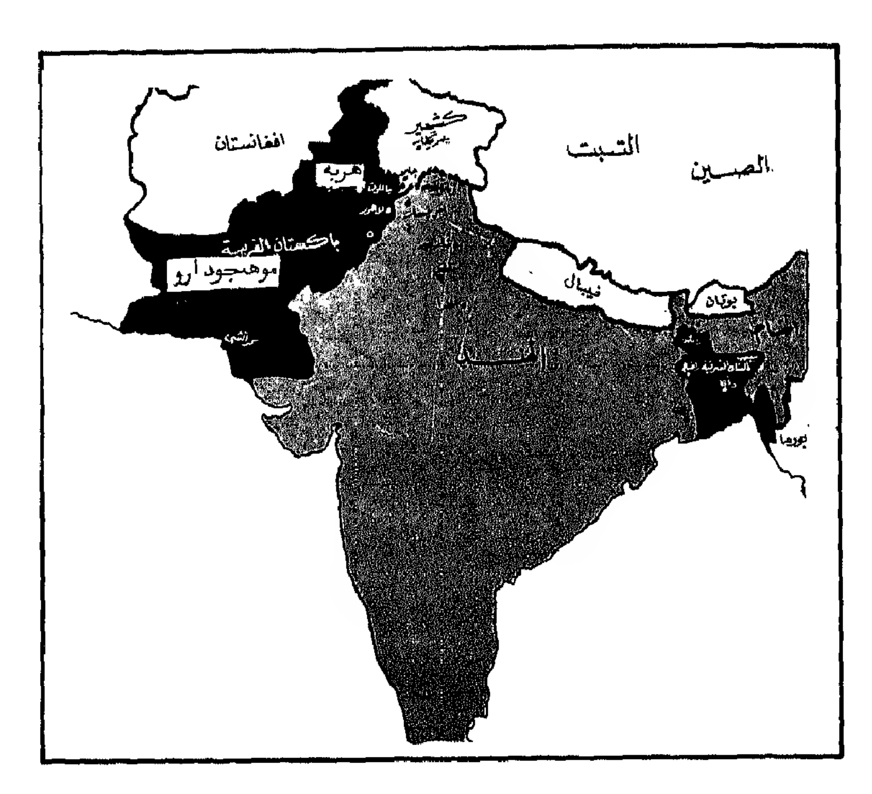
الصورة مأخوذة في موهنجودارو في شباط/ فبراير/ ١٩٥٩. المناسبة كانت حضور ندوة عقدت في كراتشي عن «الإسلام في العصر الحديث» ويبدو في الصورة الدكتور قسطنطين زريق والدكتور نقولا زيادة.

من قبل حتى كان كشف سنة ١٩٥٠ فاتضح أمر موهنجودارو. وإذا تذكرنا أن الحفر لم يقتصر على هذا المكان بل اتجه إلى «هَرَبة» وغيرها من الأماكن، عرفنا أن المنطقة التي كانت تزدهر فيها حضارة السند كانت تمتد نحواً من ألف وخمسمئة ميل من الشمال إلى الجنوب ونحو ثلث هذا شرقاً في غرب.

وسنقتصر في هذا الحديث على وصف موهنجودارو على ما رأيناها بأنفسنا في زيارتنا باعتبار أنها نموذج لمدينة السند.

تقع أنقاض موهنجودارو (تل الموتى) على مقربة من نهر السند، في منبسط من الأرض يتعرض لأن يغرقه النهر إذا خطر له أن يغير مجراه، وما أكثر ما كان يفعل ذلك. ومن أجل ذلك رفع أهل المدينة المصاطب ليبنوا مدينتهم في أمان من النهر وفيضانه وتغيير مجراه. وكانت الأرض المحيطة بتل الموتى تخترقها قنوات الري فتجعل منها، بدل التربة المهملة اليوم، أرضاً تنتج الخير الكثير لسكانها. فكان القمح والشعير والسمسم والقطاني والشوفان وبعض القطن مما تجود به الأرض. والأرض تعطي متى اعتني بها، وتفقر متى أهملت. أما المدينة التي كانت تقوم هناك حول ٢٠٠٠ق.م. فقد كانت مدينة كبيرة، وكانت حضارتها من النوع الذي عرفه العالم القديم في أحواض الأنهار الكبرى في العراق ووادي النيل وما إليهما. وكانت أنواع الخزف تعرض في أسواقها للبيع، كما يبدو أن سكانها اتقنوا صناعة الآجر المشوي الذي استعملوه للبناء الرسمي والعادي.

كانت المدينة تتألف من قسمين – الأعلى والأدنى. والأول كان يقع في الجهة الغربية من المدينة، وينتشر في مستطيل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٦٠ متراً، أما عرضه فنحو نصف ذلك. والجدير بالذكر أن هذا القسم كان في غاية التحصين. إذ فضلاً عن المصطبة الضخمة التي أقيمت لإرساء الأسس عليها ، نجد بقايا سور يبلغ سمكه في أسفله نحو ١٢ متراً ويدق قليلاً كلما ارتفع، ويتراوح ارتفاعه بين ١٠ و ١٢ من الأمتار. ومع أنّ السور مبني من الآجر المجفف بالشمس أو من التراب ، فإن جداره الخارجي كان من الآجر المشوي بالنار وهذا كان يحميه من الأمطار



الموسمية الغزيرة. وكانت تقوم على مسافات متساوية فيه حصون مستطيلة بنيت بناء قويا.

يدور هذا السور بأرض رفعت نحو عشرة أمتار عن المستوى الأصلي، بحيث تكون الأبنية المقامة عليها في مأمن من الفيضان. وقد أقيمت على هذه المصاطب البنايات العامة، سواء في ذلك الأبنية المدنية والدينية. ومن هذه خزان كبير للماء، وبيت لعله كان مقرّ حاكم المدينة، وبناء آخر لعله كان الديوان العام الذي يجتمع فيه أهل الشورى والادارة.

أما القسم الثاني - الأدنى - من المدينة فتتضح لنا معالمه إذا ارتقينا مكاناً عالياً في القسم الأول يشرف عليه. إنه الجزء الشرقي من «موهنجودارو». إن آثاره، من البيوت والحوانيت، تمتد كيلومترا ونصف الكيلومتر في إتجاه نهر السند، حيث تقوم في آخر هذه المسافة، مصطبة ضخمة توضح للنهر المدى الذي يستطيع أن يصل إليه دون أن يؤذي المدينة أو سكانها. ولم يكن نهر السند ليرضى بهذه الحدود دوما، فما أكثر ما بلغت به سورة الغضب أن يتجاوز هذه المصطبة فيخرب ويحطم. لكنه لا يلبث ليعود إلى مجراه باسماً مسالما، وعندئذ ينشط القوم إلى البناء ثانية والاستمتاع بنعمة هذا النهر الكبيرة.

لقد رأينا، ونحن واقفون على أطراف تحصينات القلعة وهي القسم الأصلي الغربي من المدينة، شوارع متوازية ومتعامدة في عرض نحو عشرة أمتار، تمتد أمامنا، وتقسم المدينة أقساما متسقة متساوية تقريبا، كل منها نحو ٦٣٠ في ٢٠٠ من الأمتار المربعة. وهذا الأمر يدل دلالة قاطعة على أن المدينة لم تنمُ نموا عاديا على مر السنين، بل كانت نتيجة تخطيط من صنع مهندس عليم بأمر تخطيط المدن. ولكل شارع مجاريه المنظمة المرتبة تحمل فضلات المياه بحيث تلقيها بعيدا. لكن هذه الشوارع كانت ترابية، أي أنها لم تغط بالحجارة قط.

ولعل مما يلفت النظر في هذه المدينة هو سيطرة النظام التام على أبنيتها التي تبدو متشابهة تماما، وانعدام أي أثر للزينة العامة في الشوارع أو الساحات العامة، وعدم وجود الأبواب أو النوافذ المطلة على الشوارع الرئيسية. ذلك أن البيوت كان يُدْخَلُ إليها من الأزقة الجانبية، كما كانت بسيطة الزخرف، بسيطة الأثاث. وفي ناحية نائية من هذا القسم من المدينة تقوم بقايا ١٦ كوخا صغيرا لعلها كانت مساكن للعبيد أو ما شاكلهم ممن كانوا يعملون جماعات تحت أمرة المدينة.

ولم يعثر الباحثون بعد على ما يمكن أن

يعتبر هيكلاً أو معبداً. ولما كانت النقوش القليلة التي عثر عليها لم تحل رموزها بعد، فإن ما يمكن أن يقال عن دين هؤلاء السكان وعبادتهم هو أقرب إلى الحدس والتخمين منه إلى التقرير الواقعي العلمي. فالذي وجد هناك من تماثيل نسائية صغيرة إلى وجود نوع من عبادة «الآلهة الأم». وثمة ما يشير إلى قيام نوع من العبادة الجنسية التناسلية وعبادة الأشجار. فإذا صح هذا الاستنتاج فإن العبادة التي كانت تقام أسرارها في موهنجودارو وما إليها كانت عبادة أساسها الخصب والانتاج.

ويرى علماء الآثار الذين درسوا المدينة وما أظهره التنقيب عنها أن السكان كانوا يستعملون القليل من الثياب. لكن هذا الذي استعمل فيه تنوع من الألوان وفيه زركشة. والظاهر أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يطلقون لحاهم. ومما لفت النظر تنوع السكان، مما يدل على أنّ عناصر من خارج المنطقة جاءتها متاجرة ومهاجرة ومستوطنة. وهذا لا يخرج عما يمكن أن يرى إلى الآن في منطقة السند.

ولعل أطرف ما كشفت عنه أعمال الحفر في موهنجودارو هو مخزن الحبوب العجيب. فقد رفعت أرض المخزن نحو ستة أمتار عن أرض المنطقة (في الجزء الشرقي من المدينة) في بناء أسُسُه من الآجر المشوي، في مساحة ستة عشر متراً طولاً في عرض ثمانية أمتار. وكان يعلو هذا الأساس المبني إطار من الخشب تُركَت فيه محار للهواء بحيث لا يتأذى المخزون من الحب من الرطوبة. وكان الحب يحمل في أكياس على عربات تجرها الثيران إلى مكان مرتفع يقع شمالي المخزن ذاته، ومن هذه العربات تنقل الأكياس إلى أماكن الخزن. وضخامة هذا المخزن تدل على أنه كان عاماً، ولعله كان للحكومة التي كانت تفكر بأمر الرعايا فتحتفظ لهم بكميات من الحبوب تغنيهم عن التذمر والألم فيما إذا فشل الموسم.

وأكثر الذين درسوا موهنجودارو يرون أنها لم تكن مدينة محصّنة، بمعنى أن السور والحصون لم تكن تدور بها جميعها كما كانت الحال في مدينة «هربة» التي تبعد عنها نحو خمسمئة كيلومتر. ولعل موهنجودارو كانت مدينة مفتوحة، باستثناء القلعة التي كانت تشغل جزءاً صغيراً من مساحة المدينة الكلية.

هذه المدينة الآمنة المطمئنة كان رزقها يأتيها رغداً من كل مكان، من زراعتها وصناعاتها وتجارتها. ولكن ذلك لم يدم. فحول سنة ١٥٠٠ق.م. أو نحو ذلك، على ما كشفته أعمال الحفر، تعرّضت هذه المدينة لهجوم عنيف، لم يكتف الذين قاموا به باحتلال المدينة، ولكنهم هدموها وأحرقوها. فالجثث المثّل بها، والرماد الذي ظهر في طبقات المدينة، وآثار الحرائق الباقية إلى الآن، تدل على ذلك. وهكذا انتهت قصة موهنجودارو، المدينة المنظمة المرتبة الناجحة، إلى تدمير وتخريب.

وإذن فما كان الأدب التاريخي يعتبره بدءاً لحضارة تلك الديار، أثبت علم الآثار أنه كان نهاية لمدينة عظيمة.

والسؤال الذي يقلّبه الباحثون في مدينة السند هذه هو: كيف تم لتلك البلاد أن تنشأ فيها مثل هذه المدينة؟.

ليس الجواب يسيراً. فكل سؤال عن أصل مدينة ما سهل طرحه ولكن الاجابة عليه، صعبة. ولننقل خلاصة رأي مورتيمور هويلر حول هذه القضية. يقول إن الأحوال الجغرافية كانت تمكن الشعب من التقدم. لكن الشيء الذي يلفت النظر هو أن مدينة السند ليست نتيجة تطور تدريجي، إذ ليس لها أصول متطاولة في القدم. لكن يجب أن لا يغرب عن البال أنه كان ثمة مدنيتان قد سبقتاها وهما مدنية أرض الرافدين ومدنية وادي النيل. لكن يجب أن لا يتبادر إلى الذهن أن أيّا من هاتين المدنيتين يمكن أعتبارها أمّاً مباشرة لمدينة السند. ولكن الآراء تنتقل، والحافز لمدنية الهند جاء من الغرب – من أرض الرافدين من بلاد سومر. فالصلات البحرية، عن طريق الخليج العربي، كانت قوية.

أرض غنية زراعة، وقوم يشعرون بوجودهم وحافز يدفعهم. مدينة واسعة عميقة تنشأ وتموت، ويأتي الرفش والمعول فيكشفان عنها.

■



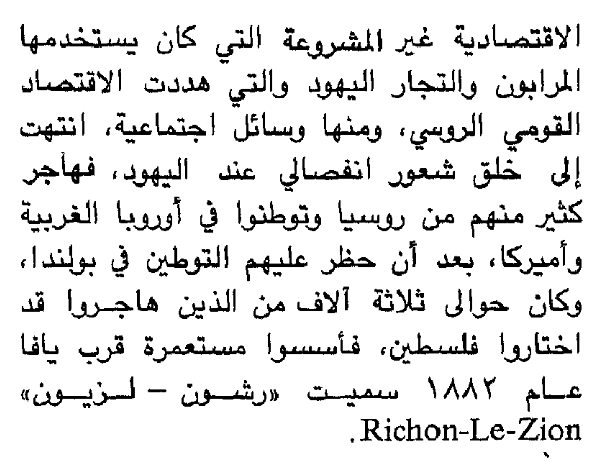
نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه

عازوري والصهيونية

د. زاهية قدورة (الحلقة الأخيرة)

في هذه الحلقة الأخيرة، تتابع الدكتورة زاهية قدورة دراسة تطور الفكرة الصهيونية في زمن نجيب عازوري، ليس عبر منظريها فقط بل قصدت إبراز الاحداث الكبيرة التي ساهمت في بلورتها وذلك حتى تاريخ وعد بلفور.

وكان من أشهر منظري الأفكار الصهيونية اليهودي الروسي «ل. بنسكر» (L. Pinsker) ١٨٢١ – ١٨٩١ الذي وجه نداء إلى يهود العالم في كتاب سماه «التحرر الذاتي» Auto-Emancipetions الذي نشر عام ١٨٨٢ مطالبا فيه بالحل القومي للمشكلة اليهودية اللاسامية Anti-Semition دون تحديد فلسطين بالذات، أي على اليهود الذين يعيشون مضطهدين في بلادهم أن يخرجوا إلى بلد آخر يعيشون فيه على أساس قومي يهودي، كأمة واحدة تجمع بينهم لغة واحدة، وعادات مشتركة، فيكون هذا البلد يهوديا مستقلاً(١). وقد أكد «بنسكر» على ضرورة أن يسكن اليهود «أرضا يمتلكونها» ويكون بذلك قد انطلق من فكرة «الاستيطان». ثم تطورت تطلعات «بنسكر» فيما بعد، وكان له أثر ملحوظ في فكرة استيطان اليهود في فلسطين إلاّ أنه قد حدثت نكسة في مسار الحركة الصهيونية عام ١٨٨١ عندما اغتيل قيصر روسيا الاسكندر الثاني، وكان اليهود قد شاركوا في اغتياله فحصلت موجة من اضطهاد اليهود أدت إلى مذابح قاسية، ولم يكن سبب هذا الاضطهاد مقتل القيصر فحسب، بل كانت هناك أسباب أخرى عديدة منها الوسائل

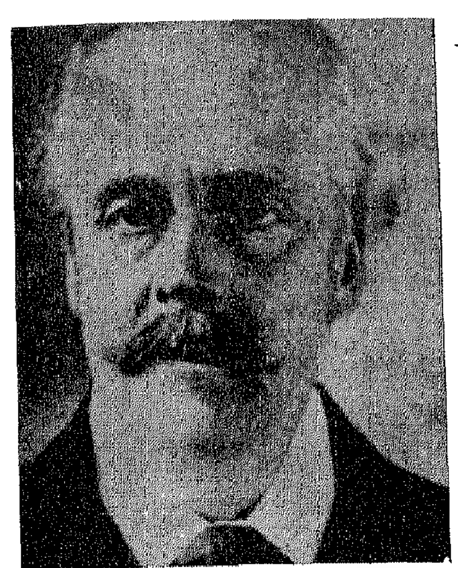


الاقتصادية غير المشروعة التي كان يستخدمها المرابون والتجار اليهود والتي هددت الاقتصاد القومي الروسي، ومنها وسائل اجتماعية، انتهت إلى خلق شعور انفصالي عند اليهود، فهاجر كثير منهم من روسيا وتوطنوا في أوروبا الغربية وأميركا، بعد أن حظر عليهم التوطين في بولندا، وكان حوالى ثلاثة آلاف من الذين هاجروا قد اختاروا فلسطين، فأسسوا مستعمرة قرب يافا عام ١٨٨٢ سميت «رشون – لزيون» Richon-Le-Zion.

كما ظهرت حركة في روسيا في العام نفسه عرفت باسم «أحياء صهيون» Chubbalk Zion انتظمت في جمعيات «شوفيفي – زيون، وأحبّاء صهيون» عملت جميعها بجهد على تحقيق فكرة الاستيطان في فلسطين. وإحياء اللغة العبرية، وهكذا نبتت أولى بذور الصهيونية.

وفي عام ١٨٨٧ شرعت جمعية تأييد المزارعين وأصحاب الحرف اليدوية من اليهود التي انشئت في روسيا تؤيد فكرة الهجرة إلى فلسطين وبالاخص من بين يهود أوروبا الشرقية بتأييد من «بنسكر» أحد مؤسسي تلك الجمعية.

كما ظهرت أفكار عديدة كان لها أثر ملحوظ في تكوين الفكر الصهيوني، وكان لرجال الدين اليهود دور بارز، وكان من هؤلاء «صموئيل إيزاكس» Samuel Yzakess ١٨٢٥ – ١٩١٧ الذي يرى بأن لليهود الحق في اسرائيل الصغرى، واسرائيل الكبرى، وقد حاول تدعيم نظريته هذه باستنتاجات مستمدة من التوراة، تجعل لكل منهما حدوداً معينة. ويحدد «اسرائيل الصغرى» بالأراضي المقدسة، ثم يدخل فيها لبنان كله، وشمال غربي سوريا، وقسماً من جنوب تركيا، أما اسرائيل الكبرى فهي تشمل الأراضي التي منحها أله اسرائيل لبني اسرائيل، على أن تمتد اسرائيل الصغرى المعروفة بأرض كنعان إلى اسرائيل الكبرى المستقبلية والتي تشمل: فلسطين والأردن، وسوريا، ولبنان، والعراق حتى خليج البصرة (باستثناء القسم الشمالي من العراق) وسيناء والدلتا من الأراضي المصرية، وشمالي الحجاز: المدينة المنورة وما حولها من مناطق بين قريظة وبني النضير وخيبر وغيرها(٢).



بلفور

ومن الذين لعبوا دوراً فعالاً في مسار الحركة الصهيونية، اليهودي المجري (بودابست) «ماكس توردو» Max Tordeau ١٨٤٩ – ١٩٢٣ والذي استقر في باريس عام ١٨٨٠ ومارس الطب، وكانت له مؤلفات عدة تمثل الثقافة اليهودية الخالصة، وقد التقى في باريس «هرتزل» وتعاونا معاً وكان «هرتزل» يعول على انتماء «توردو» إلى الحركة الصهيونية، لأن ماكس توردو كان يحظى بتأييد اليهود الشباب المثقفين.

وفي المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ألقى «ماكس توردو» الخطاب الافتتاحي، وكان خطاباً ذكياً، استطاع أن يكسب أعضاء المؤتمر في أن يضعوا كل طاقاتهم في سبيل حل «المسألة اليهودية». ومما جاء فيه ... (يتوفر عند اليهود الغربيين الخبز، لكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» وأكد على انتشار اللاسامية، وبالرغم من أن أوروبا حررتهم ومنحتهم حق المواطنية إلّا أن اللاسامية كانت ما تزال منتشرة ولا تزال لافتة «ممنوع دخول اليهود» تحارب اليهودي أينما حل(٣).

وإلى جانب فكرة الاستيطان القومي في فلسطين أو خارجها وجدت فكرة الصهيونية الثقافية والروحية، وهي فكرة متطورة للصهيونية الدينية. ويرى مؤسس هذه المدرسة الفكرية أن لا مانع من بقاء اليهودي في وطنه الأصلي على أن يكون مواطناً صالحاً في مقره وملكه، وفي الوقت نفسه يهودياً في روحه، ولا بأس من

هجرة من استطاع إلى الأراضي المقدسة ليتزود من الروح الثقافية اليهودية الأصلية، ولذلك دعا إلى ضرورة إيجاد مركز روحي ثقافي في فلسطين[٤].

وكان «أحد هاعام» Ahad Haam ١٨٥٦ - ١٩٢٧ مؤسس فكرة الصهيونية الثقافية والروحية، ويمكن القول: «إن «أحد هاعام» من الصهيونيين القلائل الذين تنبأوا بقيام معارضة وردود فعل عربية على الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٥].

وقد تلاشت دعوة «أحد هاعام» بعد تأسيس المنظمة العالمية اليهودية.

وهنا تبدأ المرحلة العملية، أو المرحلة الثانية من الحركة الصهيونية التي بدأت بهرتزل وكتابه ١٨٨٢، الذي دعا فيه إلى استعمار اليهود لفلسطين بدعم من بريطانيا، فتصبح فلسطين دولة قومية يهودية. وقد استهل هرتزل عمله الموحد بمؤتمر بازل ١٨٩٧ - وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة التنظيمية.

وقبل ان نبدأ بالحديث عن المرحلة الثانية من الحركة الصهيونية لا بد من ذكر نقطتين بايجاز هما: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، والصهيونية والاستعمار، وتلازم هاتين الحركتين منذ البدء.

لقد شغلت القضية الصهيونية جانباً مهماً من السياسة العثمانية، وقد ذكرنا سابقاً شيئاً عن وضع اليهود في الدولة العثمانية وحسن معاملتهم لهم ومساواتهم بغيرهم من المواطنين، فكان اليهود يتمتعون بالحقوق والواجبات التي كان يتمتع بها غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى. ولكن ذلك كان قبل قيام فكرة الهجرة والاستيطان. ولكن الحال تغيّر عندما تطورت الفكرة الصهيونية، وبدأ اليهود يهاجرون في قوافل منظمة منذ عام ١٨٦٨ بغية الاستيطان في فلسطين، وأخذت المؤسسات اليهودية من الأليانس الاسرائيلي العالمي وغيره تعمل على نشر أهدافها عبر الجمعيات الدينية اليهودية، وعبر الصحف والجمعيات الثقافية، ألا وهي: الهجرة والاستيطان في فلسطين، وفعلاً استوطن عدد كبير منهم في مناطق حيفا ويافا وطبريا والقدس ثم امتدوا إلى خارج هذه الرقعة...

شعر السلطان العثماني بتزايد الهجرة وامتداد رقعة الاستيطان فعارض طلب أحد كبار اليهود شراء مساحات في فلسطين عام ١٨٧٦. ولكن شعوره هذا جاء متأخراً، فلم يكن يدرك خطر الهجرة اليهودية في الفترة الأولى أي من عام ١٨٦٨ إلى عام ١٨٨١، معتبراً أنها ليست خطيرة نظراً لقلة عدد اليهود المهاجرين، لكن الدولة عادت وأدركت خطورة الهجرة واتخذت موقفاً واضحاً عام ١٨٨١ عندما صدر أول قرار عثماني ضد الهجرة اليهودية[٦] عندما هاجر اليهود الروس بأعداد كبيرة، بعد اغتيال القيصر الروسي عام ١٨٨١ وتوالت الهجرات المنظمة الكبيرة بدعم وتنظيم زعماء وقادة يهود بواسطة جمعيات منظمة، حاولت الاتصال بالحكومة العثمانية للحصول على اذن لها بواسطة قنصل تركيا في روسيا لكن القنصل رفض السماح لها تنفيذاً لأوامر حكومته.

ومنذ ذلك الحين أي عام ١٨٨٢ أصدرت الحكومة العثمانية قرارات خاصة بالهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية عامة، لكن الصهاينة لم يتوقفوا عن نشاطهم، واستمرت محاولاتهم، متخذين لذلك وسائل كثيرة لإقناع السلطان عبدالحميد الثاني بتغيير قانون الهجرة، وقد جرت محاولات كثيرة بواسطة قناصل وسفراء أوروبا وأميركا، وبواسطة مندوبين يهود توجهوا إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان، لكن السلطان عبدالحميد أصر على موقفه وأفهم المبعوث اليهودي أن الدولة العثمانية، وان رحبت بالمضطهدين لكنها لا ترحب باقامة مملكة يهودية في فلسطين. وأخذت الحكومة العثمانية بين الحين والحين تصدر القوانين بمنع الاجانب من شراء الأرض أو الاستيطان، أو انشاء مستوطنات يهودية منها قوانين عام ١٨٥٧ وقانون ١٨٨٧، و١٨٩٢.

درس اليهود أوضاع الدولة العثمانية واطّلعوا على نقاط الضعف فيها، فاغدقوا على السلطان عبدالحميد الوعود والاغراءات، منها المساعدات المالية لتسوية أوضاع الدولة الاقتصادية، ومساندة السلطان في قضية الأرمن بالنسبة للرأي العام العالمي، وغير ذلك من



شارع يهودي للتسوّق - في الخمسينات -

طروحات. لكن ذلك لم يغير من موقف السلطان عبدالحميد الذي قال لهرتزل عند أول مقابلة له في ١٨٩٦/٦/١٩: قال هرتزل، لقد «استمع إلى الصدر الأعظم بكل هدوء، وسأل بعض الاسئلة منها: فلسطين كبيرة، في أي جزء منها تفكرون؟ فنقل اليه المترجم جوابي، إن ذلك يعتمد على مدى ما تقدمه من منافع، لنمضي بكمية أكبر لجزء أكبر من البلاد»(٧).

وكان رد السلطان التركي الحاسم بواسطة رفيق هرتزل نيولنسكي الذي نقل هذا الرد لهرتزل: (وقال السلطان لي: «إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما انت صديقي فانصحه أن لا يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي، قد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا. لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر؟ لأن أحداً منهم لم يرض بالتسليم، ورفضوا إلا أن يموتوا في ساحة القتال. الامبراطورية التركية ليست لي وانما للشعب التركي، لا استطيع أبداً أن أعطي احداً أي جزء منها ليحتفظ اليهود بملايينهم، فاذا قسمت الامبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، انما لن تقسم إلّا على جثتنا، ولن اقبل بتشريحنا لأي غرض كان»(٨).)

وكان عبدالحميد يكره الصهيونية، وكانت القدس بالنسبة له مقدسة مثل مكة(٩).

وكان ردّ السلطان عبدالحميد إلى نيولنسكي، صديق هرتزل، الذي قال أن فلسطين مهد اليهود واليها يريدون ان يرجعوا: «ولكن فلسطين مهد الأديان»(١٠) وعلى هذا أجاب نيولنسكي: «إذا لم يستطع اليهود أخذ فلسطين فسوف يذهبون إلى الارجنتين»(١١).

على أن موقف الدولة العثمانية الرسمي والواضح لم يمنع بعض المسؤولين في الحكومة العثمانية من التصرف خلافاً لموقف الدولة. وكان ثمن ذلك الرشوة التي أنفقها اليهود بسخاء وشارك فيها الحكومات والقناصل الاجانب.

الحركة الصهيونية والاستعمار:

ارتبطت الفكرة الصهيونية بالاستعمار قبل أن تظهر الدولة الصهيونية إلى الوجود، وقبل أن يتحدد زمانها ومكانها. وكان نابليون سباقا إلى استغلال اليهود منطلقاً من تطلعاتهم واحلامهم بالعودة الى فلسطين. استغل نابليون هذه التطلعات من منطلقاتها الدينية، لأنه كان بحاجة إلى دعم مالي، ففكر بالحصول عليه، من يهود أوروبا ويهود الدولة العثمانية. وجه نابليون نداء في ٤ نيسان (ابريل) ١٧٩٩، جاء فيه، ان العناية الالهية وجهته نحو هذه البلاد «... وجعلت من القدس مقري العام وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها بلد داوود... ثم تابع مخاطباً اليهود ... إلى ورثة فلسطين الشرعيين... (وقد طلب منهم)... لا العمل على احتلال وطنكم فحسب... بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الامة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم لكي تصبحوا اسياد بلادكم الحقيقيين...»(١٢).

واستمر نابليون في تملقه لليهود فوجه نداءً إلى يهود اسيا وأفريقيا يحثهم فيه على الالتفاف

حوله، من أجل اعادة مملكة القدس القديمة، فالتحق بجيشه عدد لا بأس به من يهود مدينة حلب(١٣).

وكان من مظاهر تعاون نابليون واليهود، أنه من بين المخططات السرية في «حكومة الادارة» عام ١٧٩٨ أنه وعد اليهود بتأسيس كومنولث يهودي في فلسطين على أن يدعم اليهود الفرنسيين في الشرق.

غير أن الحال تغيرت بعد أن هزمت فرنسا بالمنطقة في القرن التاسع عشر على يد الإنجليز وقيام محمد علي الكبير في بناء دولته العتيدة بهمة وجدية، وامتداد حملاته التوسعية إلى بلاد الشام وضمّها إلى حكمه، ومنها فلسطين ١٨٣١ – ١٨٤١، وكانت هذه الخطوة من أسباب التعاون البريطاني اليهودي، فانتقلت اللعبة من فرنسا إلى بريطانيا التي قلقت على خطوط مواصلاتها إلى الهند، ففكرت في تحجيم نفوذ محمد علي أو إنهائه، وأن تضمن لنفسها شعباً بديلاً في فلسطين يكون عميلاً لها ويؤمن مصالحها، وهنا تكررت الرواية الاستعمارية فظهرت نداءات يهودية في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تطالب بوجوب عودة اليهود إلى فلسطين وتخلي الأتراك عن ذلك الجزء من ممالكهم الذي طرد منه اليهود، ويعيدونه إلى أصحابه الشرعيين...»(١٤).

وكان التعاون بين بريطانيا واليهود على مختلف المستويات، لقد استعمل البريطانيون اليهود، مثلاً، في اثارة الفتن الطائفية في بلاد الشام، وارتكبوا عشرات الحوادث من قتل وجرائم مختلفة، كما طالبوا بحماية بريطانية لهم، ثم تعددت الاقتراحات والتقارير والمساعدات البريطانية لليهود من أجل فلسطين، ولم يستثن لبنان من ذلك. واستغلت انكلترا الثروات اليهودية في سبيل تحقيق اهدافها، ويتضح ذلك في شرائها لأسهم قناة السويس باموال يهودية في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٧١، حين حصلت هذه الصفقة زمن رئيس الوزراء البريطاني «دزرائيلي» وهو يهودي قلباً وقالباً. وقد وصف البارون اليهودي روتشلد هذه الصفقة بانها صفقة سياسية لا تجارية. وظل التعاون بين الطرفين اليهودي والبريطاني مستمراً إلى ان سقطت مصر في يد الانكليز عام ١٨٨٢، فاشتدت هذه العلاقة، واشتد تقرب اليهود من انكلترا بعد أن اصبحت ذات النفوذ القوي في المنطقة، وبالمقابل واصلت انكلترا مساعيها بكل نفوذها لدعم «الصهيونية» وتملكها لفلسطين وإقامة دولة فيها بواسطة ساستها في انكلترا وسفرائها في الخارج.

وظلت رعاية بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية مستمرة لليهود إلى أن كان وعد بلفور عام ١٩١٧ من قبل بريطانيا، بعد وفاة نجيب عازوري بعام واحد. هكذا كانت ولا تزال الصهيونية حجر الزاوية في المخططات الاستعمارية.

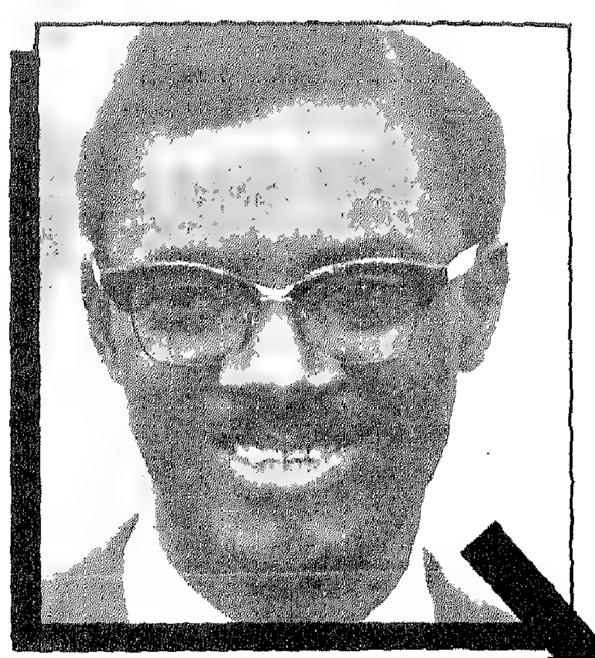
هوامش

(١) Leo Pinker: Auto Emancipetion, p.20.
(٢) أسعد رزوق، اسرائيل الكبرى، ص٣١٨ – ٣٢٨.
(٣) أنيس الصايغ، ولطفي العابد، وآخرون، الفكرة الصهيونية – النصوص الأساسية، ص ١٢٩ – ١٣٤.
(٤) يوسف هيكل، فلسطين قبل وبعد، ص٩٤.
(٥) حسان حلاّق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ١٨٩٧ – ١٩٠٩، ص٢٨.
(٦) M. Mandel: Turk, Arabs, and Leursk Immigratien into Palestine, 1882-1914 Vol. p. 80.
(٧) يوميات هرتزل، ص ٣٧٥.
(٨) يوميات هرتزل، ص٣٧٨، ص٣٥.
(٩) يوميات هرتزل، ص١٧٢.
(١٠ + ١١) المصدر نفسه، ص٣٩٤.
(١٢) بطرس عوده: القضية الفلسطينية والواقع العربي، ص٢٤.
(١٣) شاهين مكاريوس: تاريخ الاسرائيليين، ص١٨٥.
(١٤) ملف وثائق فلسطين، ج١، ص٤١.



صورة تاريخية تمثل لومومبا ورفيقيه ساعة إلقاء القبض عليهم وهم مكبلون بالقيود

إن الأحداث التي تشابكت وقائعها لتؤلف حياة باتريس لومومبا هي ذاتها الأحداث التي صاغت فكره، فمن خلال معاناة لومومبا الذاتية للواقع الموضوعي، ومعايشته له، تفتحت أمامه معالم أيديولوجيته السياسية. ذلك أن الفكر السياسي عند لومومبا قد مر بأطوار متباينة، بل ومتناقضة، حتى تحددت معالمه واكتملت مقوماته.





إذا أمعنا النظر في «حياة» لومومبا أمكننا أن نتبين ثلاثة أطوار هامة في «فكره» السياسي:

- **الطور الأول: هو طور انفتاح للوعي الوطني عند لومومبا واكتشافه لأبعاد الحقيقة الاستعمارية.**
- **الطور الثاني: هو طور الصدام المروع بين وعي لومومبا الذي يسعى لتحرير الكونغو وتوحيده وبين الاستعمار وأعوانه من الخونة الكنغوليين.**
- **الطور الثالث: هو تلك اللحظة المهيبة التي اغتيل فيها لومومبا. ففي تلك اللحظة ماتت افريقية بأسرها لتبعث من جديد، على حد تعبير فرانز فانون.**

الوعي والحقيقة:

يعد الطور الأول لفكر باتريس لومومبا من أعسر أطوار حياته الفكرية مخاضاً، وأحفلها بعدم وضوح الرؤية نظراً لافتقاره الى الوعي بحقيقة الاستعمار. ويعد كتاب لومومبا **«الكونغو أرض المستقبل: هل هي مهددة؟»**، الذي كتبه عام ١٩٦٥، يعد أبلغ وثيقة تكشف لنا عن فكر لومومبا في هذا الطور. **فقد كان لومومبا، كما جاء في كتابه «يحلم» باقامة «مجتمع متكافىء للجميع بلجيكيين وكنغوليين» على أن يتحقق في اطاره الاندماج العنصري بين البيض والسود وخاصة بين النخبة السوداء التي نالت قسطاً من التعليم والثقافة، وأصبح يطلق عليها اسم «المتطورين»**. وكان لومومبا يطالب في ظل هذا المجتمع المنشود بتساوي البيض والسود في ميدان العمل وانفتاح جميع الوظائف للكنغوليين تبعاً لما يتمتعون به من كفاءات.

وقد عبر لومومبا عن هذا «الحلم» بقوله في عام ١٩٥٦: «**إننا نعتقد أنه سيكون ممكناً منح النخبة الكنغولية وبلجيكيي الكونغو في مستقبل قريب نسبياً حقوقا أساسية، وفق بعض المقاييس التي ستضعها الحكومة**».

غير أننا سنرى في الصفحات القادمة كيف اكتشف لومومبا خداع هذا الحلم وزيفه واستحالة تحقيقه... وكيف أصبح منذ اكتوبر عام ١٩٥٨ يناضل بلا هوادة من أجل تحقيق الاستقلال والوحدة الوطنية والوحدة الافريقية.

* * *

وكان عدم وضوح الرؤية الفكرية عند لومومبا، ينعكس انعكاساً حاداً على موقفه إزاء تقديره للاستعمار البلجيكي. وهو الموقف الذي يتضح بجلاء في كتابه الذي سلف ذكره. فقد كان لومومبا، على حد تعبير جان بول سارتر، كثيراً ما ينوه بالجوانب الايجابية للاستعمار البلجيكي في الكونغو. هذه الجوانب التي تتمثل

في زيادة قيمة الأرض والموارد المعدنية، وارسال الارساليات التعليمية، وتقديم المساعدات الطبية والصحية.

بيد أن هذا لم يحجب عن لومومبا رؤية الأوضاع المهينة التي يعيشها مواطنوه. فعندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، أي في عام ١٩٤٨، كتب في احدى صحف الكونغو متسائلا:

«**لماذا يعامل البيض كلابهم على نحو أفضل مما يعاملون خدمهم من الزنوج؟**».

ومن ثم فقد كان لومومبا يفصح، في ذات الوقت، عن النظرة الأخرى للتناقض الذي يعيش في ذاته، وهو إدراكه لبشاعة الحكم الاستعماري. وقد بلغ هذا الادراك قمته في رد لومومبا الشهير على الملك بودوان ملك بلجيكا في ٣٠ يونيه ١٩٦٠، يوم استقلال الكونغو. لقد هاجم لومومبا الاستعمار البلجيكي بعنف وضراوة. وهاجم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المهينة التي كان الشعب الكنغولي يعيشها في ظل الادارة الاستعمارية. ثم وعد الشعب بالقضاء على هذه الأوضاع التي تتمثل في سخرة العمل، والتفرقة العنصرية، والنزاع القبلي، ثم يسجل لومومبا على جبين التاريخ هذه الكلمات المضيئة: «**لا يحق لأي كنغولي أن ينسى أننا حققنا استقلالنا بالدموع والنار والدم. إننا فخورون جد الفخر بنضالنا... لأنه كان نضالاً عادلاً ونبيلاً، وكان لا مناص منه لوضع نهاية لقيد الذل الذي فرض علينا طوال ثمانين عاماً من الحكم الاستعماري. إن جراحنا ما تزال دامية وهي تؤلمنا ألماً لا يجعلنا ننساها**».

سر مرحلة التناقض:

والسؤال الآن: ما هو تفسير هذا الموقف الفكري الذي كان يتسم بالتناقض عند لومومبا؟

إن الاجابة على هذا السؤال من الأهمية بمكان. اذ انها تمثل طوراً هاماً من أطوار حياة لومومبا وفكره. وهنا يتعين علينا بادىء ذي بدء أن نقرر حقيقة موضوعية هامة وهي أن لومومبا في هذا الطور إنما كان ضحية لخداع التعليم والثقافة الاستعمارية، تلك الثقافة التي ترمي أول ما ترمي إلى القضاء على الذاتية الوطنية تحت شعار «سياسة الأبوة البلجيكية». وكان يكمن وراء هذه السياسة الاستعمارية قوتان هما - كما قال رولف اتاليااندر في كتابه «الزعماء الجدد في افريقية» - الرأسمالية والكنيسة الكاثوليكية. وكان الشعار الذي ترفعه هذه السياسة هو: «ما يفعله الأب دائماً حق». وطالما أن الاطفال صغار فهم يطيعون الاب او يتظاهرون بذلك. بيد انهم عندما يشبون عن الطوق يثورون وعندئذ تزول سلطة الأب.

ويصدق قول اتاليااندر هذا على لومومبا، فقد كانت مرحلة ما يمكن أن نطلق عليه الطفولة الفكرية في حياة لومومبا مرحلة تهيمن عليها «الأبوة» البلجيكية. غير أن لومومبا ما كاد يشب عن الطوق وتتفتح أمامه الحقائق القاسية التي يعيش الكنغوليون في ظلها حتى ثار على «الأبوة» البلجيكية. وعندئذ بدأت مرحلة الفكر الثوري عند لومومبا.

ولكي نجلو سر التناقض في فكر لومومبا لابد لنا من الوقوف على حياته. وتعد دراسة الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر عن «الفكر السياسي عند لومومبا» من أخصب الدراسات وأعمقها في هذا الصدد. إذ يحلل لنا سارتر حياة لومومبا كاشفاً عن سر هذا التناقض. وسوف نلتمس في دراسة سارتر هذه اجابة على السؤال الذي سلف طرحه، ويكون البدء بالوقوف على طفولة لومومبا:

ولد باتريس اميلي لومومبا في ٢ يوليو ١٩٢٥ في قرية أوناليو، بمقاطعة كاساء، بالكونغو. وكان والده فلاحاً كاثوليكياً. وقد اعتاد أن يصحب لومومبا منذ بلغ السادسة من عمره الى الحقول فقد كان يريد أن يجعل منه فلاحاً. غير أن «الآباء الكاثوليك» قرروا أن يذهب لومومبا الصغير الى المدرسة. فقد كانوا يريدون أن يجعلوا منه مدرساً للتعليم المسيحي. بيد أن الارسالية البروتستانتية تلقفت لومومبا عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره وعلمته مهنة تتيح له: «**أن يترك الوضع الفلاحي الى وضع ذوي المرتبات**».

وهكذا قضى لومومبا طفولته، كما يقول سارتر، في الريف الكنغولي، والبؤس المدقع للفلاحين والزنوج معروف، ولولا المنظمات

الدينية التي تعهدته لكان هذا البؤس نصيبه وأفقه الوحيد.

وهنا يتساءل سارتر «أتراه قد فهم على الفور أن الارساليات الدينية هي عملية الاستعمار؟» ويجيب قائلا: «لا ، بلا ريب».

بل ان لومومبا لم يكن يدرك في تلك الفترة أن الحياة التعيسة الحافلة بالفقر والبؤس في الريف الكنغولي هي بصورة مباشرة أو غير مباشرة نتاج الاستغلال الاستعماري.

ويحيط سارتر اللثام عن سر عدم إدراك لومومبا لهذا الوضع حين يقول: «كان «الآباء» يمنحونه طموحاً ضارياً الى ان يعرف بؤسه بأسبابه، ومن ثم رغبته في أن يخضع له». وقد عبر لومومبا عن هذا التناقض، عندما تكشفت له الحقيقة الاستعمارية في قصيدة له فيما بعد.

وعندما أتم لومومبا تعليمه في الارسالية البروتستانتية، وكان يبلغ من العمر، آنذاك، ثمانية عشر عاما رحل الى «كندو» حيث عمل موظفاً باحدى الشركات. وقد أبدى لومومبا في عمله نشاطاً عظيماً، وتفوقاً لامعاً أصاب البيض بالدهشة. وفي هذه الفترة كان يراود لومومبا حلمه باقامة مجتمع بلجيكي - كنغولي يتحقق فيه الاندماج العنصري بين البيض والسود. غير أن لومومبا طرح هذا الحلم الذي اكتشف زيفه، جانباً عندما تبين له استحالة تحقيقه.

فكيف تسنى للومومبا أن يكتشف زيف فكرة الاندماج العنصري، ذلك الاكتشاف الخطير الذي كان نقطة تحول ثورية في حياته وفكره؟

حدث هذا عندما انتقل لومومبا من كندو الى ستانلي فيل ليعمل موظفاً بمكتب البريد. فقد كانت هذه الرحلة بمثابة «الرحيل الفكري» من مرحلة عدم وضوح الرؤية لحقيقة أوضاع بلاده في ظل الاستعمار الى مرحلة جديدة تماماً، هي المرحلة التي ظهر فيها لومومبا للعالم أجمع كمناضل افريقي يطالب بالاستقلال لبلاده والحرية والوحدة الافريقية.

لقد أدرك لومومبا من تجربة حياته في المدينة (ستانلي فيل ثم ليوبولدفيل) حقيقة النظام الاستعماري، وحقيقة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها أبناء البلاد. لقد أدرك أن المواطنين الكنغوليين يحكم حياتهم في المدينة قاعدتان استعماريتان هما:

- **التفرقة العنصرية.**
- **التفاوت الاقتصادي العنيف بين السود والبيض. فالأبيض يتقاضى ضعف ما يتقاضاه الأسود.**

الفرص الاقتصادية:

ولقد كانت التفرقة العنصرية والتفاوت الاقتصادي بين السود والبيض تجربة جديدة بالنسبة للومومبا. وهو لم يكن ليدركها لو عاش في الريف وذلك «بسبب انعدام الاتصال بين السود والبيض» وتظهر اجراءات التمييز في المدن، وهي تشكل، كما يقول سارتر، حياة أبناء البلاد اليومية.

ولقد تمخضت تجربة لومومبا في المدينة عن انفتاح الوعي عنده، وكان مفجر هذا الوعي ومحركه اكتشافه لحقيقة عميقة للغاية هي أن «المساواة» التي يروم تحقيقها بين البيض والسود إنما هي فكرة مستحيلة لا يقبلها الاستعمار والادارة الاستعمارية. لقد اكتشف، كما يقول سارتر، صلابة النظام الاستعماري الذي خلقه ليزداد استغلالا له، ذلك النظام الذي يتماسك بالقسر والاجبار ويزول حين يوافق على القيام بالتنازلات.

وكان هذا الاكتشاف الهام تصعيداً بموقف لومومبا وأيديولوجيته من طور ما يمكن أن نطلق عليه «الحل الوسط» الى طور «الحل الثوري» لمشاكل الشعب الكنغولي. وكان هذا الحل الثوري يتمثل في إيمان لومومبا بالانفصال عن بلجيكا والاستقلال. وكان ان أسس لومومبا حزب «الحركة الوطنية الكنغولية» في اكتوبر من عام ١٩٥٨.

وأعلن لومومبا أيديولوجيته هذه في مؤتمر أكرا للشعوب الافريقية الذي عقد في غانا في ديسمبر عام ١٩٥٨. فقد حضر لومومبا هذا المؤتمر ممثلاً لحركة الكفاح الكنغولي، وأصبح عضوا في اللجنة الدائمة للمؤتمر. ويرى الكاتب «رولف اتالياندر» «**أن مؤتمر أكرا كان نقطة تحول هامة في أفكار لومومبا، فقد تحول الى السياسة كلية. واستطاع أن يحظى بتأييد الشعوب الافريقية. ومن ثم أصبح زعيم**

الحركة الوطنية في الكونغو، بلا منازع، وكان ان توسعت حركته حتى أصبحت مكاتبها السياسية منتشرة في جميع أنحاء الكونغو.

وعند عودة لومومبا من أكرا كانت أحداث هامة تنتظره في ليوبولدفيل. فقد كان من المقرر أن يتحدث لومومبا في مؤتمر شعبي، في ٣ يناير ١٩٥٩، عن قرارات وتوصيات مؤتمر أكرا. وعلى الرغم من أن السلطات البلجيكية منعت عقد هذا المؤتمر، الا ان جماهير الشعب الكنغولي سارت الى مكان الاجتماع، فما كان من الجنود البلجيكيين الا ان استقبلت الجماهير بالرصاص. وكان هذا ايذاناً باندلاع ثورة شعبية استمرت ثلاثة أيام توقفت فيها الحياة في المدينة تماماً. وقد تمخضت هذه الثورة الشعبية، كما قال أحد المعلقين السياسيين عن تحول السخط التلقائي الى طلب اجماعي بالاستقلال العاجل.

وتحت ضغط الشعب الكنغولي وافقت بلجيكا في أواخر عام ١٩٥٩ على عقد مؤتمر مائدة مستديرة في بروكسل في يناير ١٩٦٠ للتفاوض مع الزعماء الكنغوليين على شروط الاستقلال. وعقد مؤتمر بروكسل في الفترة ما بين ٢٠ يناير و٢٠ فبراير عام ١٩٦٠. وصدر عن المؤتمر ٦٠ قراراً.. من بينها هذا القرار الهام:

«تصبح الكونغو دولة مستقلة تماماً منذ ٣٠ يونيه ١٩٦٠، وتتألف دولة الكونغو من ستة أقاليم بالحدود الجغرافية الراهنة».

رياح المؤامرة:

بيد أن الكونغو لم تكد تحصل على الاستقلال حتى هبت عليها رياح الصراعات الفكرية ومؤامرات الاستعمار الجديد. فبعد خمسة أيام فقط من الاستقلال وقع تمرد في الجيش بقصد اقصاء قائد الجيش البلجيكي اميل جانسن. وكان جانسن استعمارياً يحول دون «أفرقة» الجيش الكنغولي.

واحتلت قوات الجيش المتمردة ليوبو لدفيل، وعمّ التمرد البلاد بأسرها. بيد أن الحكومة تمكنت من التوصل الى اتفاق مع القوات العسكرية ثم اعفاء جانسن، ووعدت الحكومة بالعمل على «أفرقة» الجيش الكنغولي.

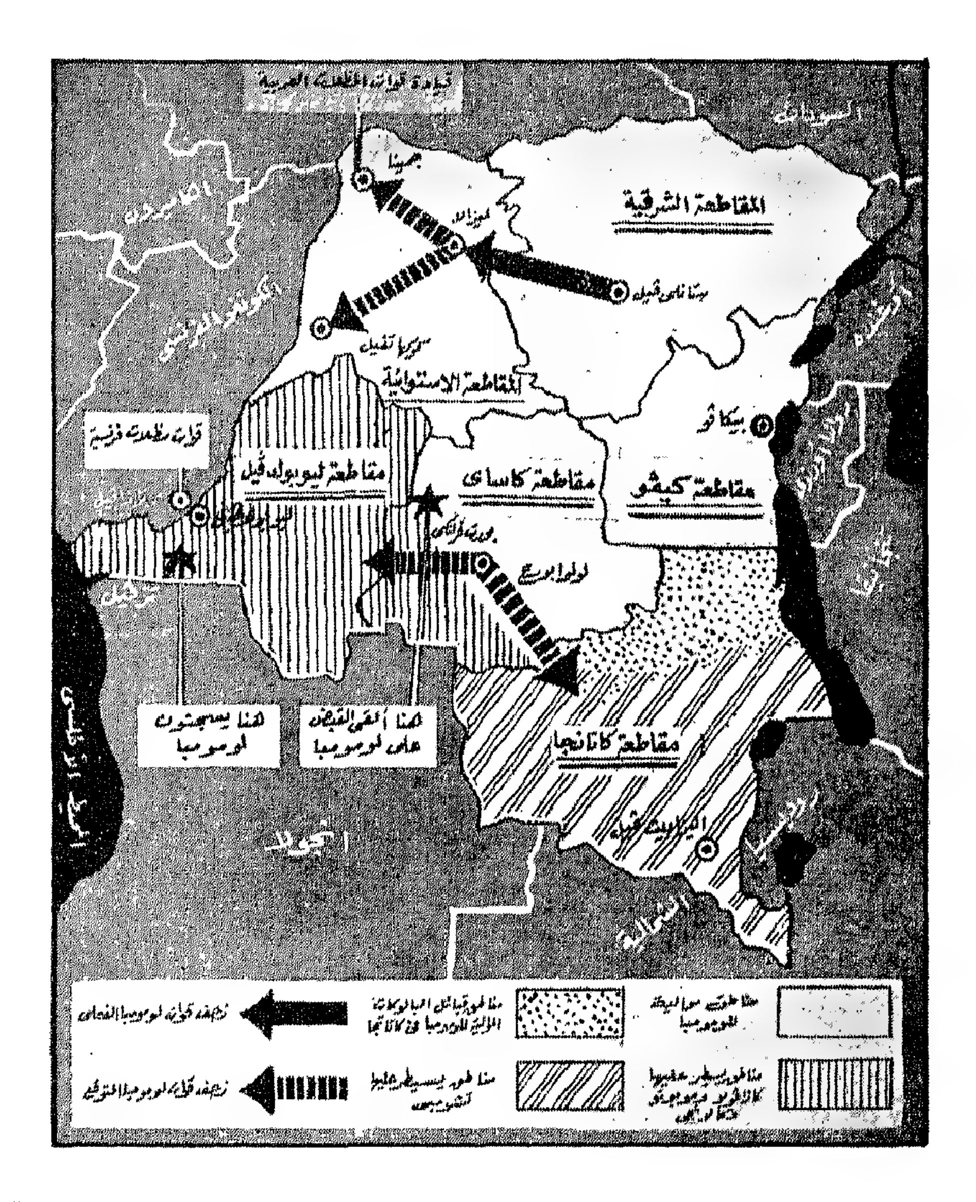
واذا كان قد أمكن التوصل الى اتفاق بشأن تمرد الجيش، إلا أن «قنبلة زمنية انفصالية» سرعان ما انفجرت في اقليم كاتنجا، بعد أحد عشر يوماً من الاستقلال، فاهتزت لها أركان الكونغو. وكان الرجل الذي فجر هذه «القنبلة الانفصالية» هو مويس تشومبي زعيم حزب الكانوكات وعميل «اتحاد المناجم» فقد أعلن تشومبي في ١١ يوليو ١٩٦٠ استقلال اقليم كاتنجا وانفصاله عن الحكومة المركزية. واتهم الحكومة باعتمادها على أغلبية برلمانية من المتطرفين الذين وصلوا الى الحكم بالخداع. وذهب الى أن هدف هذه الحكومة هو فيما يبدو «تفكيك الجهاز الاداري والعسكري وايجاد حكم ارهابي يطرد البلجيكيين الذين يعاونوننا». وكان احرى بتشومبي أن يقول: «الذين يستغلوننا»!

وناشد تشومبي روي ولنسكي الاستعماري البريطاني رئيس وزراء روديسيا أن يرسل قواته الى الكونغو ليعيد النظام اليه. وظن ولنسكي ان الساعة التي ظل ينتظرها قد حانت. ولكن ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك منعه من أن يرسل أية قوات الا بعد أن تسمح له بذلك الحكومة البريطانية في لندن، على نحو ما ذكر رولف اتالياندر.

ولكن الحكومة البلجيكية أرسلت قواتها على الفور الى كاتنجا. وهكذا كانت التجزئة المتمثلة في الكيان القبلي الانفصالي القائم في كاتنجا هي «القاعدة» التي أنشأها الاستعمار البلجيكي لتهبط عليها طائراته المحملة بجنود «البراشوت» لحماية مصالحه واحكام سيطرته واستغلاله لموارد كاتنجا: فهي تنتج ٦٠٪ من اليورانيوم الذي يستخدمه الغرب، و٨٠٪ من الماس الصناعي في العالم، و٧٣٪ من الكوبالت في العالم، و٨٪ من النحاس في العالم. كما تضم مواردها المعدنية: الذهب والزنك والمنجنيز.

والسؤال الآن: من الذي قرر مصير كاتنجا؟

يجب سارتر، بوضوح مذهل، على هذا السؤال قائلاً: **لقد تقرر مصير كاتنجا بين البلجيكيين والانجليز والفرنسيين والامريكيين وحكام روديسيا وجنوب افريقية. ولئن بدا كل شيء مدبرا اليوم. ولئن عادت كاتنجا الى الكونغو فذلك لأن الولايات**



المتحدة الامريكية قد اتفقت مع البلجيكيين - ضد روديسيا واتحاد افريقية الجنوبية ومطامع الانجليز والفرنسيين - لتستغل استغلالا مشتركا الثروات الكنغولية عن طريق الشركات المختلطة.

ولقد اقتضى تنفيذ هذا المخطط الاستعماري ازاحة الكونغو من المفاوضات والمناقشات، وهذا يعني، كما يقول سارتر، القضاء على لومومبا. ذلك أن لومومبا كان يمثل الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

الصراعات الفكرية:

غير أن ما حدث في الكونغو، بعد الاستقلال، لم ينفجر فجأة، فقد كانت هناك مقدمات تشير الى امكانية وقوعه. فقد بدا واضحاً منذ مؤتمر بروكسل ١٩٦٠ ان ثمة خلافات فكرية حادة بين زعماء الكونغو. فقد كان كازافوبو رئيس حزب الأباكو يطالب بدستور فيدرالي. أما مويس تشومبي زعيم حزب الكوناكات فقد حاول الحصول على بند في اتفاق الاستقلال ينص على قيام «حكم ذاتي» في كاتنجا. الا أن لومومبا رفض، باصرار عنيد، هذه المحاولات الانفصالية التي تصدر عن نزعات قبلية، وتمسك بقيام دولة موحدة ذات حكومة مركزية في الكونغو.

وهنا نلمح الافتراق الأساسي بين أفكار باتريس لومومبا وافكار كازافوبو وتشومبي.

ففي حين أن الايمان بالكيانات القبلية الانفصالية هو المنطلق الفكري عند كازافوبو وتشومبي، فان الايمان بالوحدة الوطنية هو المنطلق الفكري عند لومومبا.



تشومبي



انطوان جيزنكا

وتعد الحركة السياسية الحزبية في الكونغو تعبيراً واقعياً عن هذه الصراعات الفكرية. وفي الامكان ادراك ذلك إذا ما تسنى للمرء أن يقف على أصول ومبادىء الأحزاب الرئيسية الثلاثة في الكونغو، وهي:

● حزب الأباكو: ويرأسه كازافوبو. وقد تأسس عام ١٩٥٠. وهو يمثل «تحالف قبائل الباكونجو»، كما يقول رونالد سيجال في كتابه «صور افريقية». ويهدف هذا «الحزب القبلي» الى انشاء دولة مستقلة في الكونغو الأدنى. ومن ثم فان كازافوبو كثيرا ما يتحدث، كما يقول رولف اتاليا ندر، عن «مملكة باكونجو القديمة» التي ازدهرت فيما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر.

● حزب الكانوكات، ويرأسه مويس تشومبي. وقد تأسس في يوليو عام ١٩٥٩. ومقره اقليم كاتنجا. ويهدف هذا الحزب الى اقامة حكم ذاتي في كاتنجا. ويعتمد اعتماداً كبيراً، كما يقول رونالد سيجال، على قبيلة لوندا. ويستمد تأييده من بلجيكا ومن اتحاد المناجم، وهي الشركة التي تسيطر على أغنى مناجم النحاس في كاتنجا، ومن ثم فان حزب الكوناكات ليس قبلياً انفصالياً فحسب، وانما هو عميل أيضاً.

● حزب الحركة الوطنية الكنغولية: ويرأسه لومومبا. وقد تأسس هذا الحزب في ١٠ اكتوبر عام ١٩٥٨. ومن أهم مبادىء هذا الحزب تحقيق الوحدة الوطنية، واقامة دولة موحدة ذات حكومة مركزية قوية في الكونغو.

وهكذا يتضح لنا أنه لم يكن هناك سبيل الى التوفيق أو التوافق بين هذه الاتجاهات الفكرية المتصارعة. فالوحدة الوطنية نقيض القبلية والنزعات الانفصالية. وكان لومومبا يرى أن الوحدة الوطنية هي السبيل الوحيد لشجب الصراعات القبلية التي تفتت الوطن الكنغولي.

بيد أن سارتر يأخذ على لومومبا أنه لم يقرن دعوته الى المركزية والوحدة الوطنية وتكافؤ الفرص بالعدالة الاجتماعية ففي رأي سارتر أن المطلوب باسم الوحدة أن يضحي كل فريق اجتماعي بمصالحة من أجل المصلحة المشتركة.

ولكن من يتسنى له الاطلاع على بعض خطب لومومبا بعد الاستقلال يجد بين سطورها عبارات موحية تشير الى ادراكه ضرورة تغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المهينة التي يرزح فيها الشعب والتي خبرها لومومبا بنفسه. ففي يوم الاستقلال يختتم لومومبا خطبته بقوله: «**إنني أطلب من جميع المواطنين رجالا ونساء وأطفالا، أن يشرعوا في العمل على خلق اقتصاد وطني، أن يعملوا على ضمان استقلالنا الاقتصادي**». وفي مواضع اخرى من



كازافو بو

خطب لومومبا... نجده يؤكد ضرورة تحقيق «العدالة الاجتماعية» للمواطنين.

وأيا كان الأمر، فان من العسير للغاية تقويم هذا الوعي عند لومومبا نظرا لأنه لم يبق في الحكم إلا نحو ثمانية شهور واجه فيها أحداثا سياسية عاصفة ومؤامرات ودسائس لا حصر لها... أفضت الى اغتياله.

الوحدة الافريقية:

وإذا كان لومومبا قد خاض «حرباً مقدسة» من أجل تحقيق الوحدة الوطنية في الوطن الكنغولي، فانه كان يخوض هذه الحرب، في ذات الوقت، من أجل تحقيق الوحدة الأفريقية. **ذلك أن النظرة الشمولية الواعية عند لومومبا قد مكنته من الربط العضوي بين الوحدة الوطنية للكونغو المتحرر وبين الوحدة الأفريقية. ومن ثم فقد كان تحرير الكونغو عنده هو في ذات الوقت، تحريراً لافريقية. وان العوامل التي تحول دون تحقيق الوحدة الافريقية ولذا فان الامر يقتضي، كما قال في مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨، النضال ضد العوامل الداخلية والخارجية التي تشكل عقبة في وجه تحرير بلادنا وتوحيد أفريقيا.**

بل ما هو أعمق من هذا أن لومومبا كان يدرك تمام الادراك أن مشكلات الكونغو، كما يقول سارتر، هي مشكلات افريقية كلها، بل ما هو أكثر من هذا أن بلده لن يجد القوة على أن يعيش بعد الاستقلال الا في اطار افريقية حرة، فقد كان الكونغو يبدو للومومبا موجزاً مكثفاً لجميع الفوارق التي تخلد نزعات الانفصال الافريقية، من حدود اقليمية، وصراعات قومية ودينية، وتميزات اقتصادية.

ولقد بدأ لومومبا منذ اللحظة الأولى التي حصل فيها الكونغو على الاستقلال يعمق أبعاد قضية الوحدة الافريقية. فقد أعلن للجماهير الكنغولية التي تحتفل بالاستقلال: «ان تحرير الكونغو يعد خطوة حاسمة نحو تحرير **القارة الافريقية بأسرها»**. وعندما اجتمع المؤتمر الثاني للشعوب الافريقية بليوبولد فيل أعرب لومومبا في الجلسة الافتتاحية، في ٢٥ أغسطس ١٩٦٠، عن ايمانه الحار العميق بالوحدة الافريقية. وقد طرح لومومبا ابعاد قضية الوحدة الافريقية على هذا النحو:

«**إن هدفنا المشترك هو تحرير افريقية، ولن يمكننا تحقيق هذا الهدف الا عن طريق التضامن والوحدة، بيد ان تضامننا لن يكون له معنى الا اذا كان تضامنا بلا حدود، ويكون ذلك بأن نؤمن جميعا بأن مصير افريقية لا يتجزأ**».

ولقد كان لومومبا يدرك العقبات التي تعترض طريق الوحدة الافريقية، وهي ما أطلق عليها عبارة «الاساليب الكلاسيكية» التي يستخدمها الاستعماريون لتجزئة القارة وتمزيق وحدتها هي: الاحتلال العسكري، والخلافات القبلية، وتحطيم المقاومة السياسية. وقد أشار لومومبا الى الاسلوب الجديد الذي يستخدم به الاستعمار شعاره التقليدي «فرق تسد»: «**لقد كان الاستعمار في الماضي يقسم الدول على اساس القبيلة أو العشيرة أو القرية، أما اليوم، وافريقية تحرر نفسها، فانه يسعى لتقسيمها على اساس خلق مجموعات من الدول الافريقية المتعادية**». ومن ثم فقد كان لومومبا يدعو لتوحيد جبهة مقاومة الأمم الافريقية الحرة ضد الدول الاستعمارية.

وفضلا عن هذا، فقد كان لومومبا يتطلع في ظل الوحدة الافريقية الى انشاء نظام جديد



مظاهرة نسائية تأييداً للومومبا

يتواءم مع متطلبات التطور الافريقي. وكان هذا يتطلب، في رأيه، «**أن نغير الاساليب التي فرضت علينا وان نكتشف انفسنا، ونحررها من الاتجاهات العقلية، وكافة العقد التي فرضها الاستعمار علينا طوال عدة قرون**». ومن ثم فقد كان لومومبا يؤمن بأن هدف الافريقيين الاحرار هو: بعث القيم الثقافية والفلسفية والاجتماعية والاخلاقية والافريقية.

بيد ان هذه الاحلام الرائعة لا يمكن أن تتحقق الا عن طريق الوحدة الافريقية... ومن هنا فقد قال لومومبا في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني للشعوب الافريقية الذي عقد في ليوبولدفيل:

«**انها الوحدة، أيها الاخوة الأعزاء في الكفاح... أيها الاخوة الاعزاء في الفقر، التي تشد أزرنا وتمكننا من التصدي لدسائس الاستعماريين ومؤامراتهم، عندما نتحد كأبناء أسرة واحدة سوف يكون في مقدورنا ان ندافع عن شرف افريقية وحريتها**». ثم ينطلق لومومبا ليحدد رسالة افريقية ازاء الحضارة الانسانية حين يقول: **أن افريقية المستقلة المتحدة سوف تقدم مساهمة إيجابية وعظيمة للسلام العالمي، وأنها سوف تلعب دوراً هاماً في خلق عالم أفضل، عالم تسوده الأخوة**

ولم يكن غريبا والأمر كذلك ان يثير ايمان لومومبا بقضية الوحدة الافريقية ثائرة الاستعمار وعداوة بعض رجاله الأشداء من حكام روديسيا وجنوب افريقية الذين اتفقت مصالحهم مع مصالح الخونة الانفصاليين القبليين في الداخل على القضاء على لومومبا... وبمعنى أوضح: القضاء على أفكار لومومبا.

الثائر... والثورة:

«**إن أفكار لومومبا التي تتمثل في الوحدة الوطنية والوحدة الافريقية، والدولة الموحدة**


لومومبا محرّر الكونغو

ذات الحكومة المركزية بمثابة ثورة على الواقع القبلي الانفصالي في الكونغو، ومن ثم فقد كان لومومبا ثائراً... وهنا يتدخل سارتر ليقول: «ولكنه كان بلا ثورة». اذ ان ما حدث في الكونغو كان ثورة لم تقم

وتفسير ذلك عند سارتر أنه في الوقت الذي طالب فيه الشعب الكنغولي وقادته بالاستقلال العاجل بعد ثورة ٣ و٤ يناير ١٩٥٩. لم تعارض بلجيكا هذا المطلب، وحصل الشعب على الاستقلال يوم ٣٠ يونيه ١٩٦٠. وهكذا حصلت الكونغوكما يقول رولف تاليإندر، على استقلالها بأسرع مما حصلت عليه أي مستعمرة أخرى. وهذا على عكس ما حدث في الجزائر مثلا. فمنذ أعلنت جبهة التحرير الجزائرية بدء النضال المسلح، في أول نوفمبر عام ١٩٥٤، خاض الشعب الجزائري حرباً عنيفة ضد الجيش الفرنسي، وكان ان اضطرت فرنسا الى الجلاء عن الجزائر بعد أن ارتوت أرض الجزائر بدم مليون مناضل شهيد.

ومعنى هذا ان ما حدث في الجزائر كان ثورة شعبية، ومن شأن الثورة الشعبية ضد الاستعمار ان توحد، كما يقول سارتر، الجيش والشعب معا. ويقتضي هذا القضاء على القبلية والا غرقت الثورة في الدم. ويتم تصفية هذه الآثار بالاقناع والتعليم السياسي أو بالارهاب إذا لزم الأمر.

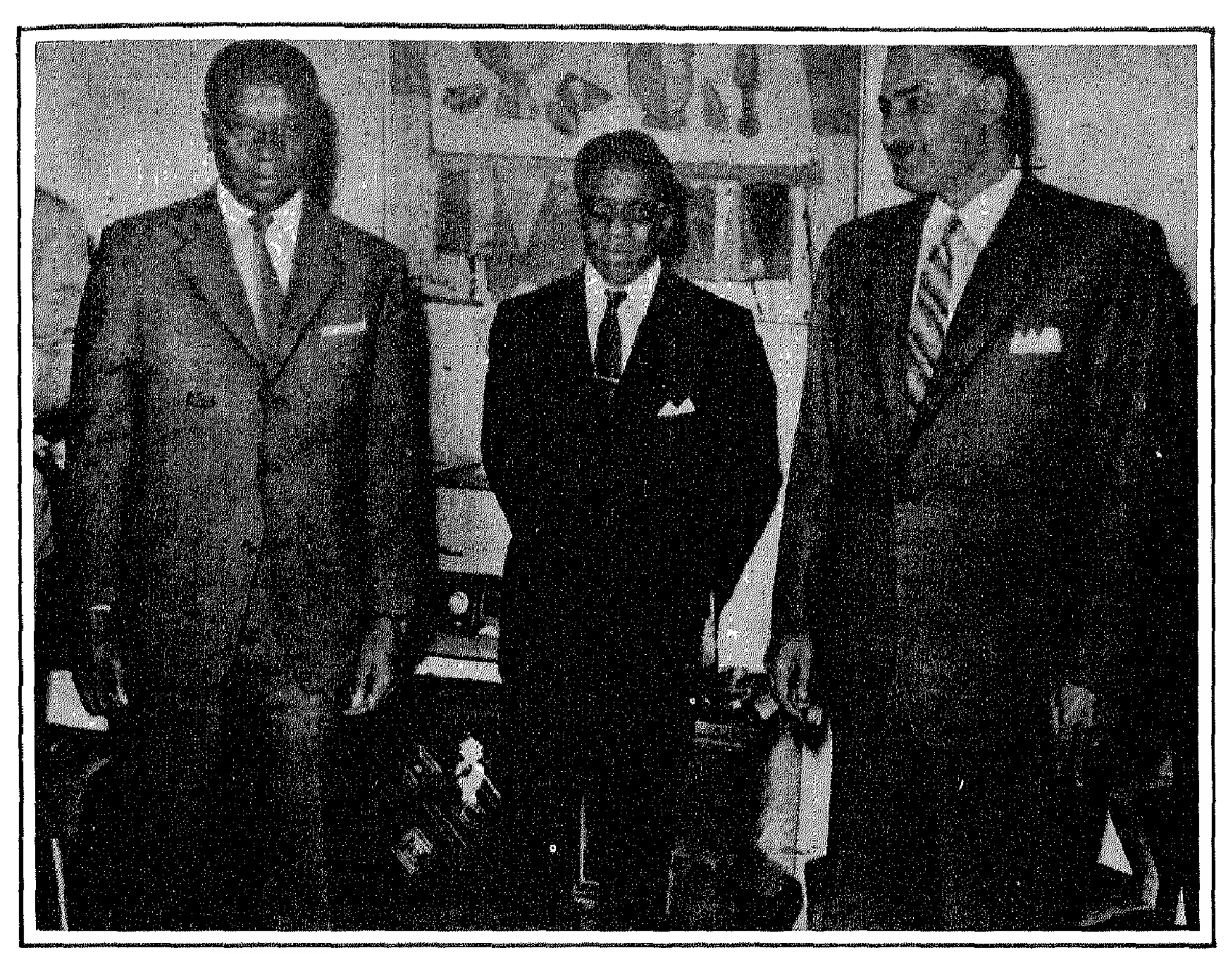
بيد أن ظروف الكونغو لم تتح قيام ثورة شعبية «يمتد فيها النضال الى أطراف البلاد فيوحدها». ومن هنا فقد ظلت القبلية في الكونغو محتفظة بكياناتها يغذيها الاستعمار تحقيقاً لمصالحه: ذلك أن القبلية تعنى الانفصالية. ومن المعروف أن مصالح الاستعمار لا تزدهر الا في ظل الانفصال والتطاحن بين أبناء البلد الواحد، طبقاً لسياسته: فرق تسد وهذه السياسة هي السلاح الذي يطعن به الاستعمار قلب الاستقلال الوطني، أي يطعن الوحدة الوطنية. فيبقى الاستقلال، ولكنه يكون جثة هامدة تنهش فيها المصالح الاستعمارية.

الخطر:

وهذا هو الخطر الحقيقي الذي كشفته معركة الكونغو، والذي يتعين على الحركات القومية في افريقية خاصة، وفي آسيا وامريكا اللاتينية عامة ان تدركه: إن التجزئة – والقبلية احدى صورها – هي البذرة التي يزرعها الاستعمار في البلاد ليجني ابناؤه حصاد الفرقة والخلاف... ومن هنا يسهل على الاستعمار أن يحمي مصالحه.

ومن ثم كان العمل الأساسي لأي حركة قومية هو اقتلاع جذور التجزئة، والعمل على توحيد الأمة. إذ ان الوحدة الوطنية هي المعادل الموضوعي للاستقلال الحقيقي.وبدون وحدة وطنية يكون الاستقلال في خطر.

ولقد كان انفصال كاتنجا معركة انتصر فيها الاستعمار الجديد الذي استطاع بعد ذلك، بالمؤامرة، أن يحرك صنائعه من أمثال كازافوبو... وموبوتو الذي كان «يعمل في خدمة بلجيكا» من أن يختطف السلطة ويعتقل، في ظل



بلغراد: الرئيس عبدالناصر مع رئيس وزراء الكونغو الموحد سيريل ادولا

وجود الأمم المتحدة، لومومبا. ثم تبلغ المؤامرة ذروتها حين يسلم كازافوبو لومومبا الى تشومبي. ومن كاتنجا مقر الانفصال أذيع نبأ اغتيال لومومبا في ١٣ فبراير ١٩٦١.

والسؤال الآن: من الذي اغتال لومومبا؟

إن الذين اغتالوا لومومبا هم الذين «اغتالوا» وحدة الكونغو بتدبيرهم مؤامرة انفصال كاتنجا.

ويرى سارتر ان الذين اغتالوا لومومبا هم البلجيكيون والفرنسيون والانجليز والشركات الكبرى ومستر همرشولد. وقد اغتالوه بصنائعهم كازافوبو وموبوتو وتشومبي ومونجو.

ولكن لماذا اغتالوه؟ لأنه كان لابد أن يختفي فهو، كما يقول سارتر، كان يمثل وهو حي الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

* * *

وفي تلك اللحظة الرهيبة التي مات فيها لومومبا ماتت أفريقية بأسرها لتبعث من جديد، كما قال فرانز فانون. ويعمق سارتر هذا المعنى حين يقول: ان لومومبا قد مات يكفي أن يكون شخصاً ليصبح افريقية بأسرها... بارادتها الوحدوية، وتنوع أوضاعها، ومنازعاتها وقوتها وضعفها:

انه لم يكن، وما كان يستطيع أن يكون بطل الوحدة الافريقية فأصبح شهيدها.

ولقد كان موت لومومبا، كما قال فرانز فانون، تحذيراً لافريقية كلها. ذلك أن تاريخه، كما يرى سارتر، قد ألقى النور أمام الجميع على الرابطة العميقة للاستقلال والوحدة والنضال ضد سياسات الانفصال على صعيد القارة، والنضال ضد مؤامرات الاستعمار الجديد.

نزهة ندية مع مخطوطة أدبية

إعداد: د. زينب القاروط

من مخطوطات الشيخ ابراهيم الأحدب

قبل ان نورد احدى المقامات التي اخترناها من مخطوط الشيخ ابراهيم الاحدب، لا بد لنا من ان نلم بشكل سريع بترجمته. عاش الشيخ ابراهيم الاحدب في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) وكان يمثل مع الاسير والشدياق مثلث النهضة الادبية، إلّا أنه لم ينل ما ناله من الشهرة لانه «كان يتطلع دائماً إلى الجديد ولكن لم يدركه أهل زمانه لأنهم كانوا يدورون على قطب واحد من انفسهم».(١)

اختلف المؤرخون في سنة مولده وسنة وفاته، ولكنا اعتمدنا ما أورده بروكلمن في مؤلفه من انه عاش من ١٢٤٢ إلى ١٣٠٨هـ. أي ١٨٢٦ إلى ١٨٩١م.(٢)

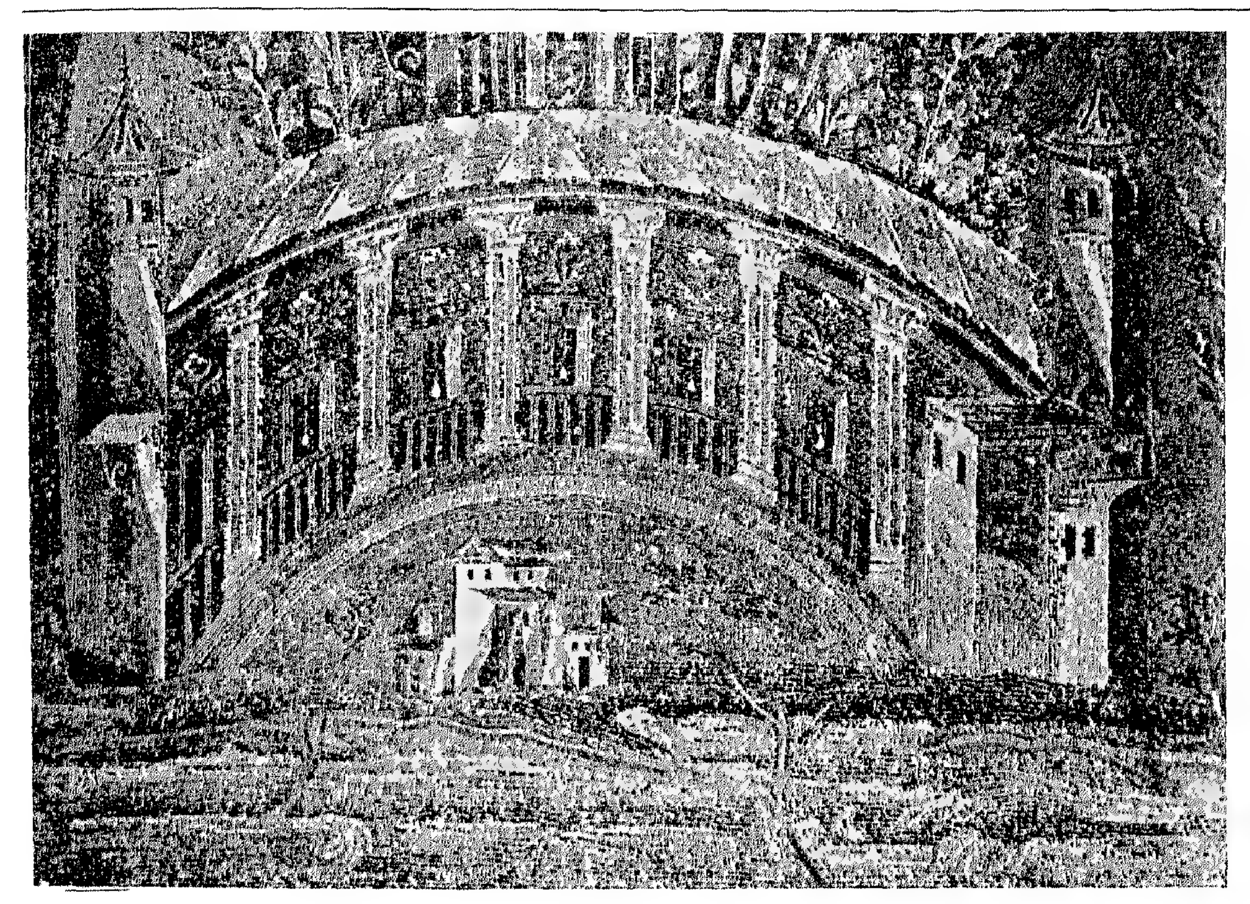
تلقى القرآن واتقن تجويده وهو ابن تسع سنين، قرأ معظم العلوم الشرعية في طرابلس الشام، وبرع في العلوم الأدبية والشرعية، وتقدم على اقرانه.(٣)

عكف على التدريس ونشر العلوم الأدبية عامة والسنّية خاصة، وانتفع من علومه الكثير من طلاب العلم في بيروت وطرابلس. انتشر صيت الشيخ ابراهيم بعد زيارته لدار الخلافة العثمانية فاستدعاه سعيد جنبلاط حاكم مقاطعة الشوف عام ١٢٦٨ (١٨٥٢) إلى مركزه في المختارة، واتخذه مستشاراً في الاحكام الشرعية ومعلماً لأولاده على عادة ذلك الزمان، يقول الدكتور شاكر الخوري «احضرني والذي معه إلى المختارة... وكان سعيد بك (جنبلاط) قد أستحضر الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي العالم العلّامة والشاعر العظيم ليعلم ولديه نجيب... ونسيب... وكان يدرسنا ديوان ابن الفارض غيباً... وكذلك الفية ابن مالك، وقصيدة لامية العرب...(٤)»

بقي في مركزه هذا مدة تقارب الثماني سنوات عاد بعدها إلى طرابلس الشام وذلك بعد الفتنة الشهيرة عام ١٢٧٧هـ. ١٩٦٠م. ثم انتدبته حكومة بيروت التركية وعينته نائباً في المحكمة الشرعية، ثم صار رئيساً لكتّاب المحكمة الشرعية وبقي في ذلك المنصب مدة ثلاثين عاماً. وبعدها عين في شعبة مجلس معارف لواء بيروت وعند تشكيل الولاية انتخب عضواً في مجلس المعارف.

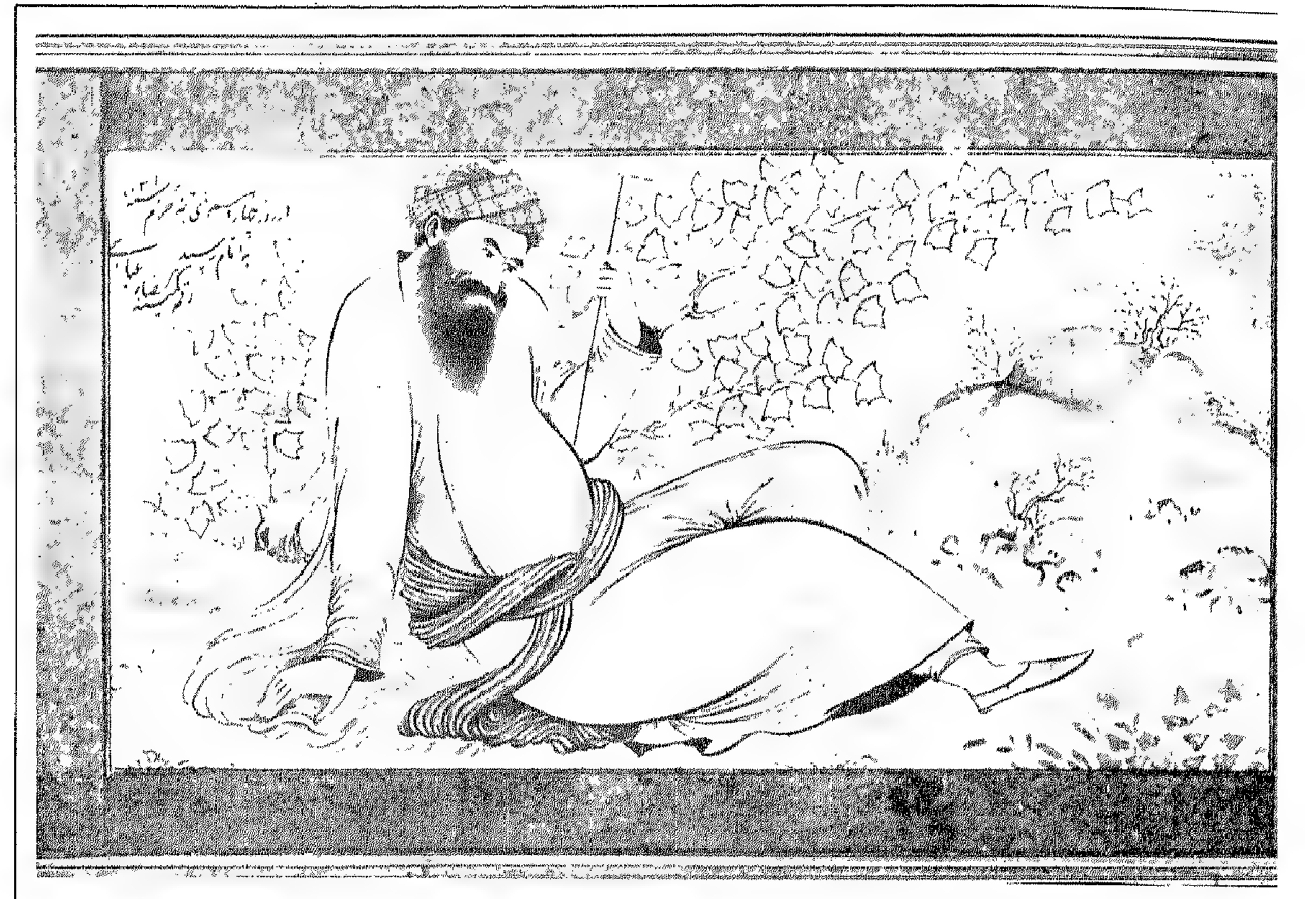
للشيخ بعض الكتب المطبوعة وعدد من المخطوطات في حوزة حفيده الاستاذ المهندس ابراهيم الاحدب الذي وضعها تحت تصرفي أخذ منها ما شاء ولقد اخترت احدى المقامات، وهي المقامة الأولى وتعرف بالدمشقية، أنشأها على لسان ابي عمرو الدمشقي، وجعل راويتها ابا المحاسن حسّان الطرابلسي، وكلاهما كأبي الفتح الاسكندري وابي زيد السروجي، مجهول الأصل، على ما يذكر الشيخ ابراهيم في مقدمة مخطوطه.

د. زينب القاروط، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية - الفرع الثالث.



لوحة منظر طبيعي لنهر وحلبة سباق، فسيفساء فوق الحائط الغربي لمدخل المسجد الاموي بدمشق.

«حدث أبو المحاسن حسّان قال: تقت إلى دمشق الشام، والتعرُّف إلى طيب وردها والبشام، فسرت إليها على عجل البريد، فوافيت بابه على قدم التجريد بشوق مزيد، فحللت بها وقد تصرم الشفق، وأنا استعيذ برب الفلق، من شر غاسق اذا وقب، وعاد على قدميه إذا وثب، وليس لي ولّي عارف آوي إليه، واعول في مبيتي عليه، فلجأت إلى خان ينزله الغريب، فالفيت في فنائه كهلاً رحب بي غاية الترحيب، وقال أظنك قدمت الآن، ولا معرفة لك بانسان فقلت اجل وقد كان قدومي على عجل، فقال انزل على الرحب والسعة، فما جئت دارا مضيعة، فلبيت اجابته وولجت حجرته، فالفيت جارية بسن البدر وسناه وغلاما تطلع الشمس من محيّاه، فابتدراني بالسلام، واقبلا على تقبيل يدي باحترام، فقال الكهل اطرح الحشمة من البيت، فلا رقيب عليك ولا عين، فهذه الجارية تسوم راغبا، وهذا الغلام لا يرى الناظر إليه حاجبا، وهما وان كان دون طلعتهما المشتري، عرضة للسوم فلا يلحقك باستخدامهما سبّة ولا لوم، فقلت نخّاس أديب، وظريف أريب، ثم قلت أسوم الجارية، وأخذها ولو بقرطي مارية وكانت تسارقني النظر بطرف يوحي سر الغرام على فترة وتبعث بفرعها وقد أرسلت منه فوق الكثيب وافر وفرة، فقال مالك رغبت عن الغلام وقد أطلع وجهه لك بدر التمام، فقلت لا حاجة لي بالحديث، وما يكون موضع الخبث فاني أقلد صريح الغواني، واحتوي ما لأبي نواس من المعاني، فقال اصبت الصواب، ولم يضع في ذكائك النصاب وان شاع في هذا الزمان تلك الفظائع، واتسع الخرق على الراقع، ثم افضنا في حديث كل فريق، وما كان في هذا العصر الجديد من الفعل الخليق، واتينا على ذكر عشّاق العرب، ممن كان لا يعرف الغلام موضع قضاء أرب، وما حدث بعدهم من عشق الاحداث،



لسان حال ابي عمرو الدمشقي «واصبحت افلس من ابني المدلق، وافقر من العريان، واحير من ضب بتوارد الهموم والاشجان. الصورتان من «التصوير الاسلامي» للدكتور ثروت عكاشة.

وبروز الغلمان بكل حلية للاناث، من فرق الشعر، وتصفيف الطرر، وغير ذلك مما يطول شرحه، ويصرح ببراعة الطلب إلى ما يدعو إليه صرحه فقال: تحاملنا عليك بالحديث، وان كنا ميزنا بين الطيب والخبيث، وقد اغفلناك من الطعام قبل ذلك، فلعل في حشاك ابا مالك، فقلت الهانا حسن الجارية عن الطعام، وان شب ابو عمرة في احشائي الضرام، فقال: في غد نتم لك سوم الجارية، والآن نطفيء لهب ناروارية، ثم التفت إلى الغلام وقال له: احضر لنا خبزاً حوارياً، ولحماً مشوياً، وعدد له ألواناً من الاطعمة الشهية، والفواكه الجنية، وأنواعاً من معمول الحلوى مما هو أحلى من المن ولا يجد الآكل عنه سلوى، فغاب وحضر باسرع من لمح البصر، وصفف أنواع ما جاء به على الاطباق وقابل بينها فراقت المقابلة بالطباق، فاعملنا الأيدي واللها والجارية بما اشتهى جارية، مشمرة عن ساق وهي ساقية حتى اطمعتني بنيلها، وان غضضت الطرف عما تحت ذيلها، فلما انهينا العمل ونلنا من الطعام الامل، اخذ يطرفنا باحاديث كانها قطع الرياض، ويتعرض إلى ذكر محاسن الشام بما لا يتوجه عليه اعتراض، وما زلنا نقطع الليل بوصل السمر حتى غاب القمر، وغلب الكرى على السهر، فأخذنا المضاجع وضرب الله على المسامع، فلم انتبه إلّا على ارتفاع الاصوات، وكثرة الضوضاء، باختلاف اللغات، ففتحت عيني فاذا الحجرة خالية، والنخاس فر مع الغلام والجارية وأخذوا ما لي من الاسباب، واتبعوه بخريطة الدراهم مما لم يكن في الحساب، واصبحت افلس من ابني المدلق وافقر من العريان، وأحير من ضب بتوارد الهموم والاشجان وعلمت اني قد خدعت وأن كان المعاني غير مخدوع، فبينما أعمل حركة الأفكار، التفت فاذا هو قد كتب على الجدار:

انـي أبـا عمـرو أمـام مـن ختـر
ثـم الـغـلام ابنـي عمـرو مـن قمـر
واختـه عمّـارة ذات الخفـر
ووجـه بـدر دونـه بـذل البـدر
مـن جـور دهـر جـاءنـا منـه ضـرر
ولا تفيـد الفلس مـن كـان شـعـر
لـذاك قمنـا في مقـام ذي خطـر
فـاعـذر فـذو الفضـل الكـريم من عـذر
فقـد تمتـعـت بتسـريـح النظـر
لمـا رأيـت طـلـعـة الـوجـه الاغـر

وشيـخ اهـل الـعلـم بـدوا وحضر
بـالطـلـعـة الـغـرّا سنـا وجـهٍ الـعمـر
تلـك التـي سبـت بـدِلٍ وَحَـوْر
ابـرزتـهـا كـارهـة لِمـا بـدر
إذ صنـعـة الآداب ليسـت تـعتبـر
وعصبـة المـعـروف مـا لـهـا اثـر
وقـد ركبنـا خطـة لا تنتظـر
ولا تكـن تـأسى عـلى مـال غبـر
وسمـت وصـل المشتـري بـلا غـرر
وسلمـت نفسـك ممـا كـان مـر

ان تسلم الجلّة فالنيب هدر

قال الراوي، فسقط في يدي بما أدركت معناه، وتحققت ان شر ايام الديك يوم تغسل رجلاه، فاردت أن انملس من الخان، فنقلت قدمي وانا مضطرب الجنان، فبدرني الخاني ومعـه جريـدة الحساب، وقال ادّ اجرة المبيت وثمن ما أكلت قبل ان تزايل الباب، فغلطته بأن قلت أني نزلت ضيفا على نخّاس كان هنا، الفيته في هذا الفنا، فقال أي نخّاس هو يا مغبون، ذاك ابو عمرو قيّم المحتالين ورئيس المغتالين، فاحمد الله انك افلت من كيده ولم تقع في حبالة صيده، قال فنقدته ديناراً أفلت من فنصة في الجيب، وخرجت احتسب عليه عالم الغيب وعجلت السفر من دمشق بخفي حنين، وأدرعت الليل جلباباً لئلا تقع على اثري عين».



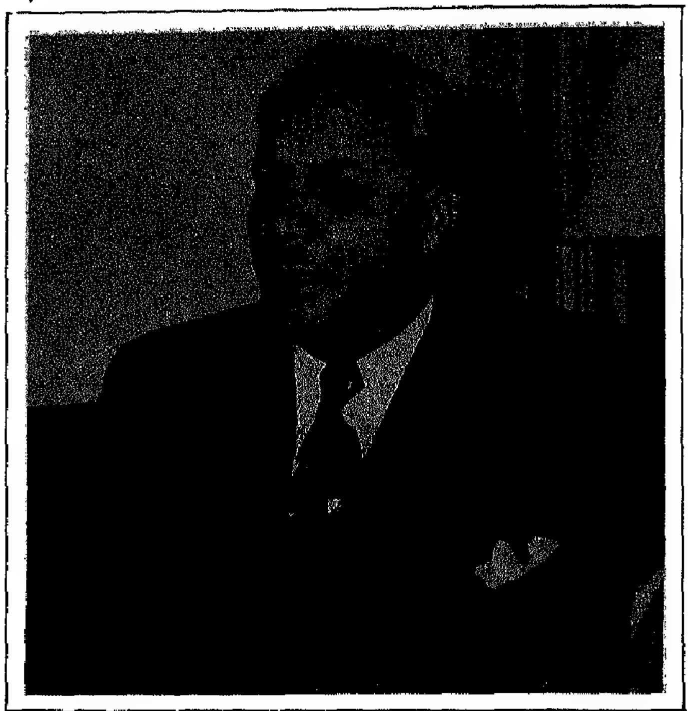
الهوامش

(١) مارون عبود، رواد النهضة، ص٧٢.
(٢) قارن الاعلام، الزركلي ج١، ص٤٨/معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ج١، ص٦١/تاريخ طرابلس، سميح وجيه الزين، ص٤٥٨/خزائن الكتب العربية، ص٢٦٠. G. A.L., C. Brockelman s II 760.
(٣) مقدمة فرائد اللآل ط الكاثوليكية/حلية البشر، ج١، ص٤٧ وما بعدها.
(٤) اسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز ق٢، ص٢٢٣.

المصادر:

١ – بشير بين السلطان والعزيز، اسد رستم، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦.
٢ – تاريخ الصحافة العربية، فيليب دى طرّازي بيروت ١٩١٣.
٣ – حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبدالرزاق البيطار، دمشق ١٨٣٠هـ ١٩٦١م.
٤ – خزائن الكتب العربية في الخافقين، فيليب دى طرّازي، بيروت دون تاريخ.
٥ – رواد النهضة الحديثة، مارون عبود، بيروت ١٩٥٢.
٦ – الاعلام. خيرالدين الزركلي، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
٧ – فرائد اللآل في مجمع الأمثال، المطبعة الكاثوليكية ١٣١٢هـ.
٨ – معجم المؤلفين، عمر رضا كحّالة، دمشق ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.
٩ – مقامات الشيخ ابراهيم الاحدب، مخطوط.
١٠ – Geschichte des Arabiscen Litteratur Von. C. Brockelmann. Ed. Leiden 1937.

من ذكرياتي عن الزعيم



جان سرور

رياض الصلح

يتردد اسم الزعيم الخالد رياض الصلح على افواه اللبنانيين في كل مناسبة وطنية مجيدة كما يستفقده اليوم المواطنون في هذه المحنة التي يعانيها لبنان متسائلين: ترى لو بقي رياض حيّاً إلى هذا اليوم أكان أصاب البلد الجميل المتقدم ما اصابه من بلاء وشقاء؟

كيف لا يتردد اسم بطل الاستقلال على الشفاه ويحتلّ مكانه في ضمائر الناس مقدّرين ما كان له من فضل على مستقبل لبنان والانتقال به من حال الانتداب البغيض إلى حال التحرر والتخلص مما كان يعانيه من استغلال وقهر طيلة خمس وعشرين سنة مضت على الحكم الذي كان في واقعه لوناً من ألوان الاستعمار؟

على أن الزعيم رياض لم يكن زعيما محليا فحسب فهو من افراد الرعيل الأول الذي وقف رجاله في وجه الاستعمار التركي فاستشهد بعضهم على حبال المشانق ونفي البعض الآخر إلى مجاهل الأناضول وكان هو في عداد من حكموا بالنفي مع والده المغفور له رضا الصلح بالنسبة لصغره بحيث لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد.

جان سرور. من مؤسسي جمعية التضامن الأدبي التي عملت على مناهضة الانتداب في الثلاثينات وكان أميناً عاماً لها. سُجن وشُرّد مرات.



(من كتاب وليد عوض: اصحاب الفخامة رؤساء لبنان، الأهلية للنشر بيروت ٧٧)

سعد الله الجابري رئيس لوزارة السورية يهنىء رئيس الجمهورية اللبنانية وحكومته بعد «راشيا» ويظهر في الصورة صبري حمادة رئيس المجلس ورياض الصلح رئيس الوزراء، والوزراء عادل عسيران، مجيد ارسلان وكميل شمعون.

ونضال رياض الصلح عهد الانتداب على سوريا ولبنان يطول شرحه وقد عانى منه النفي والتشرد مراراً عدة وتحمّل من اضطهاد السلطات له ما ينوء به البشر وتقبّله بصبر وأناة يثيران العجب.

وقد ساهم في كفاح رجال سوريا المناضلين الذين كانت تتألف منهم (الكتلة الوطنية) بعد رحيل الملك فيصل عن دمشق كشكري القوتلي وفارس الخوري وهاشم الأتاسي وفخري البارودي وجميل مردم بك وابراهيم هنانو وسعدالله الجابري وادمون حمصي وغيرهم من كبار رجال السياسة والزعماء الابرار، الذين كانوا في صراع دائم مع الانتداب وعانوا في مقاومتهم له النفي مراراً عديدة والشقاء والهوان.

وكانوا أحيانا يتولون الحكم كأصحاب حق بارادة الشعب وأحياناً يبعدون ليحلّ محلهم من يختارهم الانتداب من اشخاص يسهل عليه التعاون معهم ضاربين عرض الحائط بالمجلس النيابي صاحب الحق باعطاء الثقة للحكومات أو حجبها عنها.

نفي رياض الصلح مع الزعماء السوريين إلى القامشلي

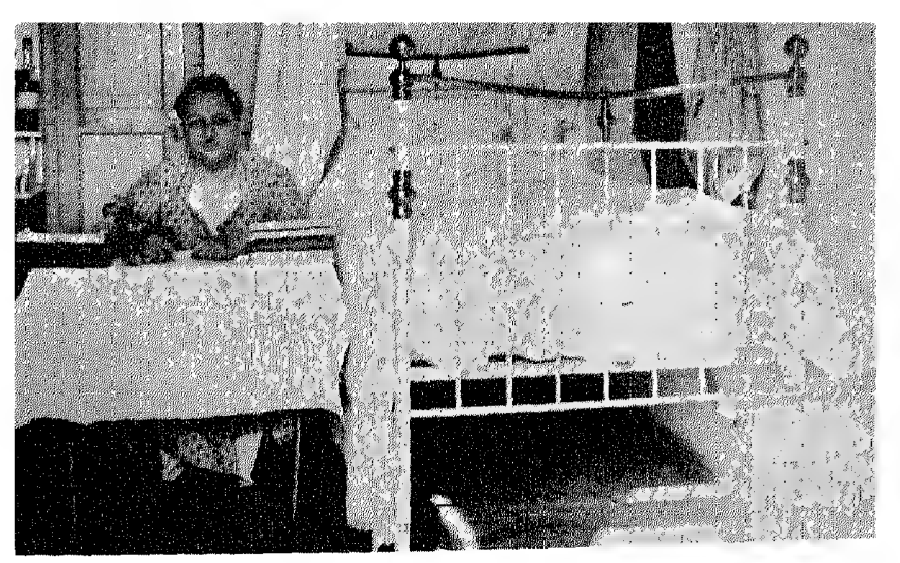
ولما كان رياض الصلح يشارك في سياسة الكتلة المناوئة للانتداب كما سبقت الاشارة، فقد كان عليه ان يتحمل معها النكبات التي تتعرّض لها كما حصل في العام ١٩٣٦ حيث صدر الأمر بنفيه مع الحكومة السورية القائمة في ذلك الحين، وكان النفي إلى القامشلي وهي منطقة نائية على الحدود الشمالية من سوريا.

وكان وقع نفي رياض مثيراً للرأي العام اللبناني غير ان الخشية من الجهر به حال دون ردّات الفعل التي كان من الطبيعي أن تظهر واقتصر الأمر على فئة من الشباب لا ترهبهم تدابير السلطة الغاشمة، كانوا يترددون على منزل الزعيم المنفي يستطلعون أخباره ويتباحثون فيما يمكن القيام به من مظاهر للتعبير عن نقمتهم.

أذكر هنا ان أحد المفوضين في الأمن العام كان يدّعي صداقتي والحرص عليّ، كان يأتي اليّ من وقت لآخر ليقول لي أنه وقف على تقارير تفيد اني اتردّد على بيت رياض الصلح الأمر الذي سوف يسبّب لي المتاعب والضرر وكان ينصح بدافع (غيرته) عليّ ان أمتنع عن ذلك.

والواقع ان الاهتمام بمعرفة الاشخاص الذين يترددون على بيت الزعيم كان الشغل الشاغل لأولي الأمر،والبيت كان دوماً مراقباً بدليل مشاهدتنا لرجال الأمن وعيونهم دائماً شاخصة إلى ممرّ البيت الواقع في محلة رأس النبع ودرجه المكشوف لكل من يريد معرفة زواره من الشباب الذين هم على لائحة المشبوهين.

وهكذا كان كل تحرك يجري في المدينة يشغل المنتدبين ويحسبون له ألف حساب.



رياض الصلح
في منفاه
في القامشلي

عودة رياض الصلح من المنفى

واخيراً عاد رياض من المنفى مع الزعماء السوريين بعد ان قضوا في القامشلي زهاء الستة أشهر.

وعند رجوعه استقبلته جموع غفيرة من اللبنانيين وغصّت داره بالمهنئين الذين كانت وفودهم لا تنقطع ايّاما طويلة كما اقيمت له حفلات تكريم كثيرة أغضبت بالطبع سلطات الانتداب دون ان تحاول منعها.

ورغبت بدوري ان أقيم له واحدة مثلها في بيتي الكائن في محلة الأشرفية بعدما شعرت أنه من غير اللائق أن يحتفي به ويكرّمه ابناء طائفته ويتخلّف عن هذا الشباب المسيحي وهو الرجل الذي تعلو وطنيته على كل مذهب ودين، وما ان شاع نبأ عزمي على احياء تلك الحفلة حتى زارني البعض من اصحاب النفوس المريضة بقصد اقناعي بالعدول عنها ولكني رفضت حيث لم تغب عني معرفة الجهات التي كانت وراء هذا المسعى وما يرمون إليه.

وكان في طليعة من راجعني بالأمر المفوض (الصديق) ايّاه وقد حذّرني من مغبّة تصرفي، إلّا ان تحذيرهم لم يلق مني أي اهتمام طبعاً.

وجرت الحفلة التي دعوت إليها جمهوراً من سكان الحي وبعض شخصيات الكتلة الوطنية وغيرهم من الشباب اللبناني المعروف بالوطنية. وقد اقيمت الزين على الشارع ومدخل البيت وأطلقت الأسهم النارية ابتهاجا بالزائر الكريم، وخطب في الحفلة النائب ميشال زكور والمحامي نصري المعلوف، والوزير السوري جميل مردم بك، وكانت قد سبقتهم مفتتحة الحفلة فتاة صغيرة وقدمت طاقة من الزهور كما ألقت كلمة ترحيب حارّة قوبلت بعاصفة مدوية من التصفيق والحماس الشديد.

السفر إلى فرنسا

عندما اطلقت المفوضية العليا سراح الزعماء المعتقلين في القامشلي كان هذا بقصد عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا كانت تهيء لها في وقت سابق للاعتقال كما بدا لمتتبعي السياسة إذ لم تلبث الكتلة الوطنية ان استجابت للأمر وألّفت وفداً سافر إلى باريس للمفاوضة والاتفاق على صيغة معاهدة تحل محل الانتداب القائم. وبالنظر لأهمية الموضوع وخطورته طلبت إلى رياض الصلح ان يصحب وفدها إلى العاصمة الفرنسية للافادة من حكمته والاستعانة بما له من صداقات بين كبار رجال السياسة الفرنسيين.

وغادر الزعيم رياض بيروت بعد ايام قليلة من اقامة الحفلة التي سبق الحديث عنها ولم تمض ايام على سفره حتى وصلتني منه رسالة يشكرني فيها على ما قمت به نحوه من تكريم ويكلفني بشكر كل من شارك في استقباله من اهل الحيّ دون ان أنسى تلك الملاك الصغير التي رحّبت به وقدّمت له الزهور.

اما المعاهدة المنشودة فقد تمّ الاتفاق على مضمونها بعد اجتماعات مطوّلة ومفاوضات مكثفة لكنها اخيراً لم تحظ بموافقة البرلمان الأفرنسي الذي لم ير فيها ما يحقق أماني فرنسا باخضاع سوريا الناشئة إلى سيطرتها◘

ستا

مَعركة غيّرت وجه الحرب العالمية الثانية

العقيد الكسندر . م . ساامسونوف

ترجمة تاريخ العرب والعالم



لينغراد

الحلقة الأولى



بعد هدوء روعها من هزيمتها القاسية أمام موسكو قامت قيادة هتلر في صيف ١٩٤٢ بشن هجوم على الجناح الجنوبي من جبهتها الشرقية واستطاعت بذلك احتلال أراض سوفياتية جديدة (حوالي ٤٠٠ الف كيلو متر مربع). وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الالمانية تصل الى ضواحي «فورتيف»، ومدينة ستالتينغراد ودعائم القوقاز، اضطر الجيش السوفياتي الى مواجهة وضع عسكري خطير.

ومرة جديدة لم يذهب الالمانيون الى الحد الاقصى من خططهم فمجموعة الجيوش «ب» من القيادة والمؤلفة من/٨٥/فرقة موجهة ضد «فورونيف» وستالينغراد، لم تستطع قهر المقاومة التي واجهتها بها القوات السوفياتية واضطرت قوات الجيش الرابع المدرع والجيش السادس الى التوقف أمام ستالينغراد. اما مجموعة الجيوش «الف» المؤلفة من الجيش الاول المدرع والجيش الـ١٧ القوي بالفرقة ٢٥ فقد أوقفتها قوات جبهة «الترانسقوقازي». وكان وضع الالمانيين في القوقاز وفي ستالينغراد حساسا الى درجة دفعتهم الى اشراك كل احتياطهم في المعركة.

فوق ذلك كان الجيش السوفياتي يزعج العدو بهجماته المتتالية على مناطق اخرى من الجبهة واضعا بذلك قيادة الأركان الالمانية في وضع لا تستطيع معه اعادة توزيع قواتها.

في ١٣ تشرين الأول ١٩٤٢، اعطى هتلر اوامره بالبقاء في موقف الدفاع على طول الجبهة ما عدا امام ستالينغراد وبعض المراكز الثانوية مثل «توابي» على البحر الأسود ونالفيشيك في القوقاز. وكانت التعليمات تقضي بالبقاء في المراكز المأخوذة والاحتفاظ بها بأي ثمن. كان الالمان يعتقدون بان الشتاء سيعطيهم الوقت لتحضير هجومهم باتجاه الشرق في ١٩٤٣. ولادراكهم الظروف الضرورية لوقف كل عمليات الجبهة طوال الشتاء، فقد أظهروا اهتماما خاصا بالمنطقة الوسطى حيث كانت مجموعة جيوش متوقفة، وحيث كانوا يتوقعون هجوما سوفياتيا.

من جهتها، كانت القيادة السوفياتية العليا قد وضعت تقريرا واقعيا ليس فقط عن الوضع في خريف ١٩٤٢ ولكن ايضاً عن التوازن العام للقوات المتواجدة لدى الفريقين. واثبت التحليل ان الوقت الذي ستتغير فيه الظروف في نهاية القتال قد حان. ومن جهة نظر استراتيجية بدا ان الفائدة الكبرى يمكن تحقيقها بالقيام بضربة حاسمة ضد قوات العدو المدرعة الاكثر نشاطا والأكثر خطرا في الجنوب. وهكذا ظهرت فكرة محاصرة وتدمير العدو في ستالينغراد بتدمير كل الجناح الايمن للجيوش الالمانية.

وكما اثبتت الاحداث في ما بعد، كانت لتحقيق هذه الخطة آثار تاريخية كبيرة.

الستافكا تحضّر اورانوس:

منذ الأيام الأولى لشهر أيلول، تأكدت القيادة السوفياتية العليا بان الخطة الستراتيجية الالمانية قد تغيرت بصورة جدية خلال صيف ١٩٤٢. ورغم توجيهها ضربات اساسية لروسيا السوفياتية، فان قوة القيادة الالمانية الهجومية

هذا «المصنع» دخل التاريخ. لقد أراده الألمان هدية لهتلر في عيد الميلاد سنة ١٩٤٢ لكن الجنود الروس دافعوا عنه بضراوة

قد ضعفت وأصبح حتياطه متهوك القوى. ولم يعد بمستطاع القيادة الالمانية العليا نقل الامدادات الكبيرة من المانيا او من باقي الجبهة الشرقية. وبما انه لم تعد لها أية قوة جاهزة، اذن فلا يوجد سبب لانتظار العودة الى هجوم موسع قبل صيف ١٩٤٣. كل هذه المعطيات اعطت الروس امكانية تركيز اهتمامهم على استعادة المبادرة من جهة ستالينغراد.

قام الجنرال جوكوف، القائد العام المساعد والجنرال فاسيليفسكي قائد الأركان العامة بدراسة هذه المواضيع مع الـ «ستافكا»، وخلال النصف الأول من ايلول، قاما بالاطلاع على أوضاع جبهة الفولغا للسبب نفسه.

عندما عاد جوكوف وفاسيليفسكي الى موسكو، حضرت الستافكا اجتماعا للأركان العامة. وخلال تبادل وجهات النظر، درس مبدأ الهجوم الستراتيجي المطروح، والوسائل اللازمة لتحقيقه، كذلك بحث في المحاور الرئيسية المعتمد عليها، والقوات والاسلحة اللازمة، والمناطق المهمة والبرنامج الاولي للتجمع. وتقرر قيام جبهتين منفصلتين (دون وستالينغراد) بدلا من الجبهات السابقة التي كانت تحت قيادة واحدة ووضعت الجبهات الجديدة تحت الأوامر المباشرة للستافكا. كما تقرر ايضا انشاء جبهة جديدة في الجنوب الغربي على يمين الدون.

وبعد ان وافقت الستافكا على الخطوط العريضة للهجوم المضاد في نهاية ايلول، تركت للاختصاصيين في الاركان العامة أمر التفاصيل. وبدأ قادة كل سلاح العمل، وكلف «جوكوف» بتحضير جبهات «الدون» والجنوبية الغربية وفاسيليفسكي بتحضير جبهة ستالينغراد.

وطوال شهر تشرين الاول، كانت قيادة الاركان العامة ومختلف المستشارين العسكريين والأركان العامة المحلية تتابع عملها لاخراج العملية التي أصبحت جاهزة في نهاية الشهر، لكن الستافكا رأت أنه من الضروري اجراء بعض التعديلات في الخطة الاساسية، وهي تعديلات لاعطاء العملية دفعا أكبر.

وفي صورتها النهائية، كانت خطة الهجوم المضاد «اورانوس» مثالاً في الدقة والجرأة.

وفي ٣ تشرين الثاني، عقد جوكوف مؤتمرا في الأركان العامة للجيش الخامس المدرع التابع للجبهة الجنوبية الغربية وذلك للتدقيق في كل شيء. وكان حاضرا كل الجنرالات قادة الجيوش والفرق التي كان عليها ان تشترك في الهجوم، حسب المحور الرئيسي للعملية، وكذلك أعضاء كل الاركان العامة. وتبعت ذلك مؤتمرات اخرى في الجيش الـ ٢١ للجبهة الجنوبية الغربية بحضور المسؤول عن جبهة «الدون». وبعد عدة أيام، في ٩ و١٠ تشرين الثاني عقد مؤتمر آخر في القيادة العامة لجبهة ستالينغراد.

خطط القيادة الالمانية:

منذ الخريف أصبح واضحا حتى بالنسبة للقيادة الالمانية العليا ان الهجوم الالماني على ستالينغراد يراوح مكانه ولم يستطع الانتصار على المقاومة السوفياتية. ولهذا السبب ارتفعت قيمة القوات الروسية وفعاليتها بنظر الالمانيين وسببت «قلقا بالغا» على مستوى الأركان العامة، كما كتب الجنرال «فون تيبلسكيرش» فيما بعد.

لكنه لم ينتج عن هذا التقدير للوضع أي قرار جديد. وكما قال الجنرالات الالمانيون فيما بعد، فان المأساة بالنسبة لهم ان هتلر لم ير على الاقل في الوقت المناسب، الخطر الذي يدق ابواب القوة الالمانية في ستالينغراد، بينما كانت قيادة الاركان العامة، كما قالوا، تنظر الى الوضع نظرة موضوعية.

واذا كانت القيادة الالمانية في ستالينغراد قد بدأت تراقب منذ خريف ١٩٤٢ بوادر الهجوم السوفييتي الذي يحضر، فانه لم يكن باستطاعتها تكوين أدنى فكرة عن القوة التي

سيظهرها وعن التوقيت الذي سيعتمد للتنفيذ. ولبعدها عن ساحات القتال، فان القيادة العليا لم تكن لتستطيع تقدير مدى الخطر الحقيقي الذي يهدد قواتها امام ستالينغراد.

وكانت عملية الانتقال من الهجوم الى الدفاع في ستالينغراد، تجعل من الضروري اتخاذ تدابير من شأنها تحسين وضع الفرق التي كان عليها الصمود على الفولغا. وبسبب التطورات في المعركة، اضطر الالمانيون الى تجميع قواتهم الاكثر اهمية والاكثر كفاءة للقتال في الضواحي المباشرة لستالينغراد. بعد ذلك، ولكون جبهة القتال على محور ستالينغراد ذات امتداد كبير، فقد اضطروا كذلك الى تجريد أجنحة مجموعة الجيوش «ب» وتحضيرها لتحمل مخاطر اقتحام ستالينغراد بكل ثمن، ووضعوا الخطط المتوالية لمحاولة الوصول اليها، وهكذا، استنفذت القيادة الالمانية العليا كل احتياطها متخلية بذلك عن كل الآمال بتثبيت وضع فرقها.

وبسبب هذه الأوضاع بدأت مجموعة الجيوش «ب» سحب بعض الألوية لوضعها في الاحتياط، بهدف جمع الجيش الرابع المدرع والجيش السادس من أجل اقامة مفصل في العمق وحماية أجنحة «قوة الصدمة» التابعة لها. لكن ذلك جاء متأخرا جدا ودون جدوى، ولم يعط فائدة الا في اثبات التعب الشديد الذي كان يتملك القوات التي هاجمت ستالينغراد والقوقاز في الصيف الماضي، كما اثبت ان الالمانيين فوجئوا بالترتيبات السوفياتية للهجوم المضاد والتي لم يكتشفوها في الوقت اللازم.

موسم الطرقات السيئة:

لم تكن عملية جمع الفرق الروسية في ستالينغراد شيئا سهلا:

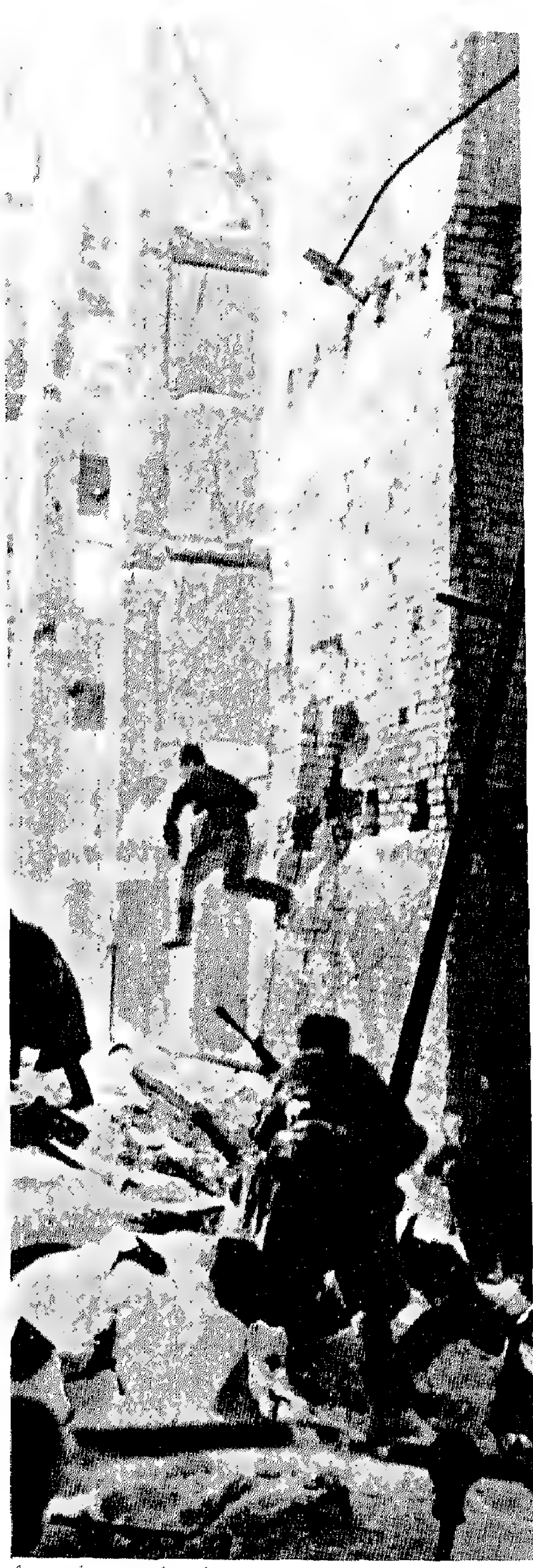
لم تكن السكك الحديدية على ضفتي الفولغا من السكك الحديثة. وفوق ذلك وبسبب القصف المدفعي والجوي للعدو ضد بحيرات الفولغا والسكك الحديدية التي تؤدي الى ستالينغراد كانت بعض الوحدات السوفياتية القادمة من اشراخان او من كاميشين تضطر الى ان تقطع سيرا على الاقدام، مسافات تبلغ ٤٠٠ كلم خلال الخريف (موسم الطرقات السيئة).

وكانت المهمة الجبارة في اعادة توزيع الفرق والاسلحة والعتاد تجري في سرية تامة. واعطيت تعليمات خاصة من قائد الأركان العامة بمنع كل المراسلات وكل المخابرات الهاتفية التي قد تكون لها علاقة بذلك. وسمح فقط باعطاء الأوامر الشفهية الى المعنيين بذلك شخصياً. ولم تنفذ عملية جمع الفرق في ستالينغراد واعادة توزيعها الا تحت ستار الظلام. وكان شهر تشرين الاول والاسابيع الأولى من تشرين الثاني كافية لاتمام كل ذلك. لكن بعض المواد استمر وصولها حتى ١٩ و٢٠ تشرين الثاني.

وقد اسند الهجوم الى قوات الجبهات الثلاث: الجنوبية الغربية (الجنرال فاتوتين) الدون (الجنرال روكوسوفسكي) وستالينغراد (الجنرال ياريمنكو). وكان الجنرال فاسيليفيسكفي قائد الأركان العامة مسؤولا عن التنسيق بين الجبهات الثلاثة. كانت القوات الروسية تضم: عشرة جيوش، جيشا مدرعا، ثلاثة جيوش جوية وعددا من وحدات فصائل الأسلحة الخاصة. كان مجموعها مليونا وخمسماية رجل/١٣٥٤١/مدفعا ومدفع هاون/٨٩٤/دبابة و/١١١٥/طائرة. مقابل ذلك كان تحت تصرف العدو/١,٠١١,٥٠٠/رجل،/١٠,٢٩٠/مدفعا ومدفع هاون،/٦٧٥/دبابة و/١٢١٦/طائرة: نتيجة لذلك كان من الجوهري الحصول على تفوق مضاعف على كل المحاور الرئيسية، وهذا ما تحقق. كان الدور الحاسم معقود اللواء للدبابات والألوية الآلية، فمنذ بداية العملية جرى تجميع أربع فرق مدرعة وفرقتين آليتين في المنطقة التي ستنطلق منها الضربة الأكثر أهمية وقد جرى الاهتمام، مقابل ذلك، بتقوية المدفعية والطيران بصورة خاصة. وقد توقعت الخطة عمليات من محاور متناسقة تهدف الى التطويق ثم الى التدمير الكلي للقسم الأكبر من القوات الالمانية في منطقة ستالينغراد.

طوفان حديدي مع الفجر:

ليل ١٨ - ١٩ تشرين الثاني اعطيت الجبهتان الجنوبية الغربية «والدون» الأمر بالهجوم، بينما تلقت جبهة ستالينغراد الامر في الليلة التالية.


الجيش الأحمر يسترجع المدينة بيتاً بيتاً، وشارعاً شارعاً، في اقسى «شتاء حربي».

صباح ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٢، كان الطقس غائما ولم يستطع الطيران الخروج. في تمام الساعة السابعة والنصف فتحت/٣٥٠٠/مدفع ومدفع هاون نيرانها على القطاعات التي يجب فتح ثغرات فيها. رغم الضياع الذي سببته هذه القوة المدفعية الكبيرة في صفوفها الدفاعية، فان المقاومة الرومانية لم تتحطم على الفور. وكان تقدم ألوية المدفعية الروسية بطيئا في البداية. وقد لعبت المدرعات التابعة للجيشين الخامس المدرع والواحد والعشرين (الجبهة الجنوبية الغربية) دوراً اساسيا بشق طريق لها بين حزام العدو الدفاعي في أقوى مركز له، شمال ستالينغراد. وتقدمت الفرقة المدرعة الرابعة من الجيش الواحد والعشرين حوالي ثلاثين كيلومترا وسيطرت على «مانويلينو». ومنذ بداية العملية، سجلت نتائج ايجابية بفضل التنسيق بين الدبابات والمدفعية والمشاة، وقامت وحدات من الدبابات ومن الفرسان التابعين الى المجموعات الهجومية للجبهة الجنوبية الغربية بالاختراق، وبدأت بالتقدم جنوباً. أثناء ذلك كانت الوية المشاة القادمة في أثرها تطهر القرى وتأسر ما تبقى من الفرق العدوة.

وفي ١٩ تشرين الثاني أيضا بدأت جبهة «الدون» بالهجوم، وقد قامت مجموعات من الجيش الخامس والستين باطلاق الضربة الرئيسية.

فجر العشرين من تشرين الثاني، وصلت الفرقة الـ٢٦ من الجيش الخامس المدرع الى «بريلازوفشكي» وهي ضاحية كبرى وعقدة طرق ومواصلات، واقتحمتها مدمرة مركز القيادة العامة للفرقة الخامسة من الجيش الروماني، عندئذ قامت الفرقة المدرعة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية بتوجيه ضربة حاسمة وجريئة الى القوات الاحتياطية الالمانية العاملة والتي تضم الفرقة المدرعة الـ٤٨ وحطمتها شر تحطيم. ووراء القوة المدرعة جاءت فصائل من الفرسان والمدفعية والمشاة من الدرجة الأولى لتثبيت الانتصارات المحققة.

في منطقة ستالينغراد تتابعت الاحداث بسرعة فخلال اليومين الأولين، تقدمت القوات



لتوفير الطاقة واختصار التحرك، كان الجنود الألمان يحملون امتعتهم وهم يحاربون في الخنادق...

المتحركة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية حوالي ٣٠ الى ٤٠ كيلو مترا دافعة الهجمات المضادة لاحتياط العدة وموقعة في صفوفه خسائر فادحة، في نفس الوقت، كانت فصائل المدفعية للجيش المدرع الخامس والجيش الحادي والعشرين تجبر أجنحة فرقتي الجيش الروماني على الانتقال من الغرب الى الشرق بهدف تطويقها في منطقة «راسبوبينشكاي».

ووحدات الجناح الأيسر للجيش الـ ٢١ (الجبهة الجنوبية الغربية) وفرق الجيش الـ ٦٥ تقدمت بهجومها باتجاه الجنوب الشرقي وانقضت على الجناح الأيسر للجيش الالماني السادس.

أما جبهة ستالينغراد فقد بدأت الهجوم في العشرين من تشرين الثاني بالجيشين الـ ٦٤ والـ ٥٧ عن اليمين والجيش الـ ٥١ عن اليسار. وبسبب الضباب الذي كان يغطي ستالينغراد منذ الصباح فقد تأجل الهجوم ساعتين.

لقد جرى تحضير المدفعية بموجب خطة درست بعناية: سجلت رشقة من منافع الهاون الثقيلة م — ٣٠ التابعة للحرس معلنة بداية القصف الشامل من المدفعية ومن مدفعية الهاون والذي دام من ٤٠ الى ٧٥ دقيقة. وقام لواءان من الجيش الـ ٥٧ بشق طريقهما بين بحيرات «ساربا» و«نساغسا» مهاجمين جنوبا وجنوبا غربا. عندئذ قام الجيش بحركة دائرية باتجاه الشمال الغربي لتطويق العدو داخل جيب ستالينغراد.

من جهته، قام معظم الجيش الـ ٥١ التي كانت قاعدة انطلاقة قائمة بين بحيرتي «تشاشا» وبارمنشاك، بالهجوم باتجاه «سوفيتسكي». بعد ظهر ٢٠ تشرين الثاني، قامت المجموعات المتحركة وهي الفرقتان الأليتان الرابعة والـ ١٣ وفرقة الفرسان الرابعة بالولوج داخل الممرات التي حققتها قوة صدم جبهة ستالينغراد، وتوغلت بعمق داخل الجهاز الدفاعي للمحور.

السوفيات يقفلون الكماشة:

أقلق الهجوم على جبهة ستالينغراد الالمان، واذا كانت القيادة العامة للجيش السادس توقعت نوعا ما، الهجوم من الشمال فنستطيع القول أن الهجوم من الجنوب كان مفاجأة تامة لها.

في ٢١ تشرين الثاني كانت الفرقة المدرعة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية تتبعها فصائل من المشاة ومن الفرسان، تواصل هجومها المتقدم الى الامام. وفور ان تلقت الفرقة المدرعة الـ ٢٦ مؤونتها من المحروقات ومن الذخيرة وبعد ان أحضرت الى المواقع قوات من المؤخرة، عادة الى الهجوم في الساعة الواحدة ظهراً. وعند حلول الليل كانت قد شقت طريقا لها حتى ضواحي «أوستروف» وضاحية «بليستوفسكي» ومنها تابعت هجومها.

على الجناح الأيسر للجيش الـ ٥١ كانت الفرقة المدرعة الرابعة تتحرك من منطقة «مانويلينو – مايوروفسكي» في مهمة للوصول الى الدون في ٢١ تشرين الثاني والسيطرة على ممرات النهر، وفي اليوم نفسه، حطمت مقاومة الفرقة الالمانية المدرعة الـ ١٤ ووصلت الى «غولونسكي». وتابع الجيش الـ ٢١ العدو، فرقة اثر فرقة، في مواقعه الدفاعية في منطقة (فيركيني قوميكنسكي – راسبوبينسكاي)، بينما كانت ألوية الشاة التي تسانده من اليمين مهتمة بتطويق وتدمير الفرقتين الرابعة والخامسة من الجيش الروماني في «راسبوبينسكاي».

قلب الهجوم السوفياتي الأوضاع تماما في جبهة ستالينغراد اذ أصبحت الدبابات الروسية الان على مقربة من مركز القيادة العامة للجيش السادس وكما أشار الجنرال «ميلينتهان» بقوله:
كانت القيادة العامة للجيش السادس على ضفة «الدون» على طريق الدبابات الروسية تماما، واجبرت على الانكفاء الى «تشير» غربي «الدون» لبعض الوقت. ولكن بعد بضعة أيام نقلت بالطائرة الى منطقة ستالينغراد وتمركزت بالغرب من «غومراك».

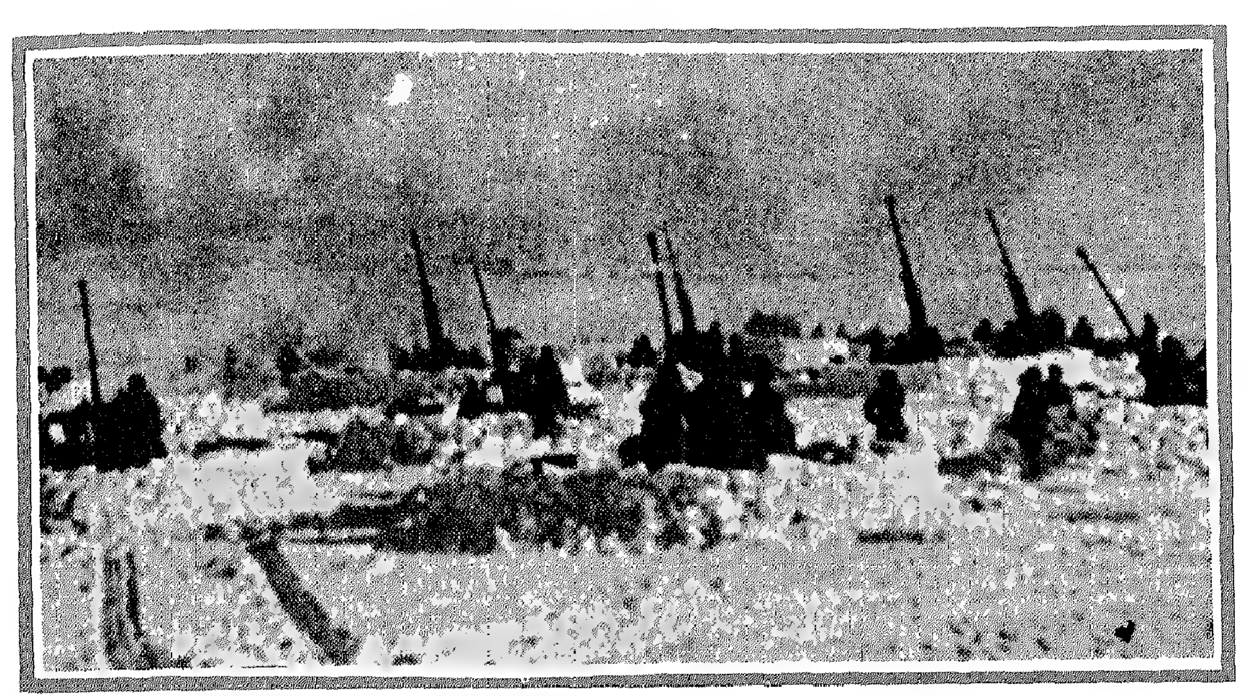
صباح ٢٢ تشرين الثاني وصلت الوحدات الأخيرة والاركان العامة للجيش السادس الى «نينجي تشيرسكاي». كان «باولوس» ورئيس أركانه الجنرال «شميدت» قد تمركزا وعندما قدم «أدم» نفسه كان «باولوس» قد تلقى برقية عاجلة من هتلر تأمره (بالطيران فورا من الفخ الذي يحضر ونقل القيادة العامة الى القرب من محطة «غومراك»).

هجوم الدبابات غير المجرى:

في هذا الوقت كان الهجوم الرئيسي الذي قامت به الجبهة الجنوبية الغربية يتابع تقدمه والقوات السوفياتية تتقدم من المكان المخصص للالتقاء برجال جبهة ستالينغراد بهدف تحقيق الحصار بصورة جيدة. في ٢٣ تشرين الثاني، قامت السرية الـ ١٩ من الفرقة المدرعة الـ ٢٦ بهجومها على الألمان في «كالانش». ومنذ الساعة العاشرة كانت الدبابات الروسية تدخل المدينة لكن المقاومة الالمانية كانت شديدة. وقد نجحت هذه، بقذائف الهاون المتتالية وبالرشاشات، في ايقاف المشاة السوفيات الذين كانوا يتقدمون الى المدينة من الناحية الشمالية الغربية. وفي الثانية بعد الظهر، وصلت الوحدات المساندة الصغيرة التابعة للفرقة المدرعة/١٥٧/بعد اجتيازها «الدون»، من ضفته اليمنى وهكذا اصبحت كالانش محررة.

كانت فرق الهجوم التابعة لجبهة ستالينغراد، قد أتمت، هي ايضا مهماتها بنجاح باهر. فبعد خرقها خطوط الجناح الايسر للجيش الروماني الرابع، كانت وحدات من المشاة تابعة للجيشين الـ ٥١ والـ ٥٧ تتابع تقدمها حسب الممرات التي تفتحها قواتها المتحركة.

مساء اليوم الأول، كانت فرق الجيش الـ ٥٧ قد تقدمت حتى خط «تيينكو نوفي – غاتشيك»، وفي محاولة لاعاقة هذا التقدم دفع الالمان الى المعركة بوحدات سحبت من الفرقة الـ ٢٩ المدرعة لكن جهودهم لاقفال الثغرات في خطوطهم والتي بدأت تتزايد، كانت دون جدوى، فجاء صباح ٢١ ليعلن سقوط «ناريمان» من جديد.



المدافع المضادة للطائرات «زرعت» في الثلوج حول ستالينغراد.

في مركز هجوم الجيش الـ ٥١ قام الجنرال فولسكي ومعه الفرقة المدرعة الرابعة بالتواجد في مقدمة فرق الهجوم واستعاد «بلودوفيتوي» وهي أول قرية تقع على الخطوط الخلفية للعدو. وفجر ٢١ تشرين الثاني، سقطت محطة «ابكانيروفو» بعد معركة مفاجئة قامت بها مجموعة صغيرة من الدبابات تابعة للقيادة العامة للجبهة بينما في الوقت نفسه تقريبا، كانت وحدات اخرى تابعة للجنرال «فولسكي» تشق طريقا لها من محطة «تينفوت».

واطلقت فرقة الفرسان الرابعة في الثغرة وراء عناصر «فولسكي» فقامت بالسير اكثر من ستين كيلو مترا لقطع خط انسحاب العدو باتجاه «ابكانيروفو» وكان رجاله يتنقلون فوق أرض لا تساعد على التقدم الطبيعي، كونها مؤلفة من منحدرات، ومنحدرات مضادة ومقطوعة بالخنادق العميقة والوديان الوعرة، وكل ذلك كان مغطى بالثلوج. ورغم ذلك كانوا يسيرون دون توقف، الا لفترات قصيرة، تسمح باعادة تجميع طوابيرهم وفي ٢١ تشرين الثاني كانت قرية «ابكانيروفو» محتلة.

أما بالنسبة لقوات جبهة ستالينغراد فكانت تتابع تقدمها ليلا ونهارا محققة اهدافها. فخلال يومي ٢٠ و٢١ من تشرين الثاني كانت فرق الجيوش الـ ٧١ والـ ٤٥ والـ ٦٠ قد أبادت ثلاثة ألوية مشاة رومانية والحقت خسائر فادحة في صفوف لواء رابع، وفي صفوف اللواء المدرّع الالماني الـ ٢٩. وبعد يومين من المعارك، كانت وحدات من الجيش الـ ٥٧ قد وصلت الى خط يؤدي من «ناريمان» الى المزرعة التعاونية. وتابع الجيش الـ ١٣ المدرّع تقدمه باتجاه شمالي غربي مع اتصاله بقوات الجنرال «فولسكي».

من جهتهم، كانت وحدات من الفيلق الآلي الرابع تتابع تقدمها لتحقيق الالتقاء بقوات الفرقة الخامسة المدرعة التابعة للجنرال رومانئينكو القادمة من الشمال الشرقي وفي ٢٢ استولت على محطة «كريفوموزكينساي» وعلى مزارع «سوفيتسكي»، بينما كانت قوات اخرى، من جبهة ستالينغراد، وهي الجيش الـ ٥١ وفيلق الفرسان الرابع دافعة بهجومها على الجناح الخارجي للحصار، تتقدم باتجاه «كوتينيكوفو».

حوالي عشرة كيلومترات اصبحت الان تفصل بين قوات جبهة ستالينغراد وقوات الجبهة الجنوبية الغربية. وقام الألمان عندئذ، وانطلاقا من ستالينغراد، باطلاق فرقتي دباباتهما الـ ١٦ والـ ٢٤ على «كالانش وسوفياتسكي» آملين الحؤول دون تحقيق

الوحدة بين الجبهتين الروسيتين.

في ٢٣ تشرين الثاني التقت وحدات من الفرقة الرابعة المدرعة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية يقودها الجنرال «كرافنشكو»، بالوحدات من الفرقة الآلية الرابعة التابعة لجبهة ستالينغراد، يقودها الجنرال فولسكي، بالقرب من مجموعة مزارع «سوفياتسكي». وفي اليوم الخامس للهجوم المضاد، كانت قوات الجبهتين المدعومة بقوة من الجناح الأيمن لجبهة «الدون»، قد نجحت في اقفال الحلقة حول الالمان في ستالينغراد. في اليوم نفسه، كانت الفصائل المتقدمة من الوية المشاة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية، قد اتمت هذا النجاح بوصولها الى «الدون» بالقرب من «كالاتش». وقامت عندئذ الفرقة الآلية الـ١٣ ومشاة الجيشين الـ٥٧ والـ٦٤ التابعون لجبهة ستالينغراد باقامة خط دفاعي صلب على «تشير فلبنيا» قاطعين بذلك طريق الانسحاب باتجاه الجنوب.

وقد نفذت الجبهات الثلاث مهماتها بصورة جيدة. وداخل الطوق، كانت توجد قوة عدوة مهمة – الجيش السادس وقسم من الجيش الرابع المدرع – أي ٢٢ لواء تمثل حوالي /٣٣٠،٠٠٠/رجل وفوق ذلك، كان السوفيات قد هزموا الجيش الروماني الثالث وأسروا منه خمسة الوية والحقوا بالجيش الروماني الرابع هزيمة ساحقة.

اتخذت القيادة السوفياتية التدابير الضرورية لتأمين الحماية التامة لعملية الحصار، ولتحقيقها بصورة جيدة، كان ضروريا محاولة جعل الجبهة الخارجية تتقدم بأقصى سرعة ممكنة، كي يصار الى عزل القوات الالمانية المحاصرة بصورة اكيدة، ومن ثم تصفيتها، وفور اقفال الطوق بدأت عمليات الابادة من قبل قوات الجبهات الثلاث معاً وفي نفس الوقت، اتخذت التدابير الضرورية لعزل القسم الأكبر من التشكيلات الالمانية المتواجدة في جيب «الدون» الصغير عن باقي الفرق. عاود الجيش الـ٢١ التابع للجبهة الجنوبية الغربية هجومه صباح ٢٤ تشرين الثاني، متجها الى الشرق. في السابع والعشرين، كان القسم الأكبر من قواته قد اجتاز «الدون» وتمركز على الضفة الشمالية. وكان الجيش الـ٦٥ التابع لجبهة «الدون»، قد عاود هو ايضا الهجوم صباح الرابع والعشرين لتطويق التشكيلات العدوة المتواجدة على الضفة الثانية من «الدون» حتى «فيرتيباتشكي» و«بسكوفاتكا».

جرت عمليات الهجوم المضاد في تشرين الثاني بنجاح، ولكن ابادة الجيش الالماني المحاصر لم تكن لتتم بسهولة ابدا. ان مجرى الصراع الذي سيدور مستقبلا ضد المانيا النازية متعلق بنجاح هذه العملية.

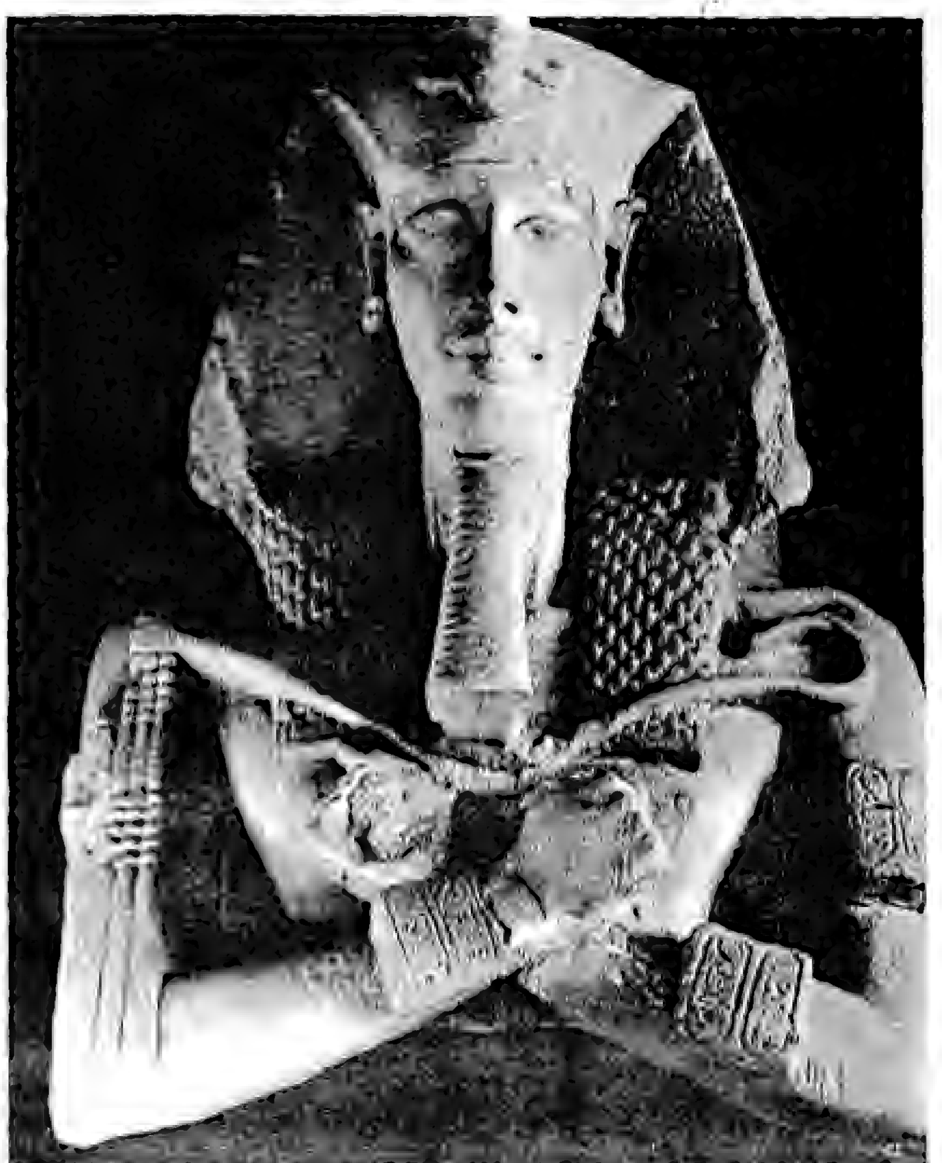
عندما علمت القيادة الالمانية العليا بان «باولوس» محاصر، قررت اصلاح الوضع في ستالينغراد باي ثمن، لأن جبهة «الفولغا» كانت الاساس في خطتها جاء هذا القرار من الادراك الستراتيجي العام لحرب روسيا، هذا الادراك الذي كان «الفوهرر» وأركانه العامّين مقيدين به بعد التخلي عن «موسكو» كهدف رئيسي. وكان الألمان ما يزالون يؤمنون بتفوقهم على الاتحاد السوفياتي وعلى جيوشه. لقد قدموا تضحيات جسيمة لينجحوا في ايقاف كل تقدم جديد للسوفيات باتجاه الجنوب الغربي وجنوبي ستالينغراد، بينما جرى ايقاف تقهقر الناجين من الجيش الروماني الثالث على نهر «تشير». لقد أقاموا خطا دفاعيا في جيب «الدون» بين مجرى «التشير» ومحطة «فارشنسكاي» بالاشتراك مع الجيش الروماني الرابع ووحدات المانية مختلفة جرى تجميعها بسرعة.

والى هذه المنطقة وصلت الفرقة الـ١٧ الجديدة بعد وقت قصير، وقامت بالتمركز على طول «التشير» و«كريفاي» في ضواحي «دوبوفسكوي» وما تبقى من الفرقة الـ٤٨ المدرعة التي كانت وراء الجيش الروماني الثالث كاحتياط، دفعت في الثغرة بين هذا الجيش والفرقة الـ١٧ وهكذا اقام الالمانيون خطا دفاعياً جديدا على طول «التشير» غير بعيد عن ستالينغراد. لقد نجحوا في الوقت نفسه بتجميد وضع فرقهم المحاصرة نوعا ما. ◘

المرجع:

Historia No. 47 — 1968





أحمد غسان سبانو

وهو عاشر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وثاني ابناء البيه امنحوتب الثالث (امنوفيس الثالث) وهو الملقب امنحوتب الرابع (امنوفيس الرابع) والذي يطلق عليه (تبخوريا) والدته الملكة تي. ولد في طيبة وتربى بقصر والده وأحيط بالعناية والرعاية الملكية وبقي ابوه مدة سبع وثلاثين سنة في الحكم أي أن اخناتون ولد وهو ابن ملك وبقي كذلك حتى استلم الحكم. أما قضية استلامه العرش فهنالك خلاف بين المؤرخين حول وقت استلامه العرش هل كان ذلك اثناء حياة والده أم بعد وفاة والده وهل شاركته بالحكم والدته في بدء الأمر. هناك رأي توفيقي مؤيد ببعض الوسائل التي تعود لتلك الفترة يقول بأن امنحوتب الثالث قد مرض في اواخر حكمه وأنه قد ساعدته زوجته في الحكم وساعده ابنه

غسان سبانو: محامي، مجاز في الحقوق والتاريخ

أيضاً والدليل على ذلك أن ملك بابل (توشراتا) قد ارسل إلى طيبة تمثال (عشتار نينوى) في سبيل شفاء امنحوتب الثالث. بينما يرى آخرون ان هذه المشاركة ان هي إلّا وهم من الأوهام.

تزوج اخناتون من اشهر واجمل امرأة في العالم تلك المرأة الميتانية الأصل التي خلد ذكرها إلى الأبد انها نفرتيتي (والبعض يعتبر أنها نفسها تادوخيا شقيقة ملك بابل (توشراتا). ويعتبر البعض ان نفرتيتي هي شقيقة اخناتون ويقول البعض الآخر انها كانت زوجة امنحوتب الثالث وهو والدها وبعد موته تزوجت شقيقها امنحوتب الرابع (اخناتون) على عادة الفراعنة في ذاك العصر.

تلك الصلات الأسرية المعقدة يرى بعض المؤرخين أنها نفس التركيب الجسماني الشاذ لاخناتون فوجهه النحيف إلى درجة الهزال وكتفاه الضيقان المنحدران وشفتاه الكبيرتان وكذلك بطنه بصورة لا تتناسب مع حجم جسمه. وقد يكون سبب هذا الشكل مرض لم يستطع العلماء تحديد نوعه. ويعزوا هؤلاء المؤرخين لهذا المرض سر احاطة اخناتون بالنساء والحريم في القصر أكثر من الرجال وفي ميادين الحرب والصيد من باقي الفراعنة.

ورغم ذلك فان مدة بقاء هذا الفرعون في الحكم هي بحسب بردية تورين تسع سنوات وثلاثة اشهر وسبعة وعشرين يوما أما في المراجع الأخرى في سبعة عشر عاماً.

وقد عاش هذا الفرعون حياة عادية وعزي قصر قامته لامه الملكة تي. وقد جعل فنانو تلك الفترة شكل اخناتون طرازاً أظهروا به جميع الناس المحيطين به وذلك كي لايشعر الفرعون بشذوذه ولكي يبدو شكله أمراً عاديا مألوفا.

انجب امنحوتب الرابع (اخناتون) من زوجته نفرتيتي ست بنات ظهر رسمهن كاطفال في المناظر المنحوتة له ولعائلته وقد تسلمت بعض المهام في البلاط ابنته الأولى وهي ذات اثني عشر عاما وكان امنحوتب طبيعياً في علاقته باسرته مبتعداً عن تعقد الملوك من هذه الناحية وهو لم يقم بعزل امرأته وبناته عن الحياة العامة. وكان يظهر العطف والحنو على زوجته وأولاده بعكس سابقيه من الفراعنة حتى اعتبر البعض ان عصره يعتبر عصر مساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة. ويظهر في رسومه وهو يسير بالشوارع مع زوجته ويقبلها في الشارع.

والمصادر التي امكتها تدوين بعض الصور والوقائع عن حياته وعهده استمدت مادتها من نقوش وجدت في جهات نائية فهناك نقش من قصة يشير إلى تسجيل ارتفاع النيل وهناك نقوش تعود إلى الأعوام الرابع والسادس والثامن والتاسع من حكمه وجدت في وادي مغارة وسراية الخادم تشير إلى استثمار المناجم، كذلك وجدت بعض القطع الأثرية التي تحمل اسمه. وخرائب تلك العمارة التي تعتبر المصور الرئيسي لاخناتون ومعبوده أتون. وهناك بعض برديات تعود إلى عصره واطلال معبد في طيبة، وله تمثال في أوقير يحتفظ به المتحف اليوناني الروماني بالاسكندرية وسبب قلة آثاره يعود للثورة التي قامت ضدّه وأزالت آثاره وذكراه من كل مكان.

تميّز عهده بهدوء سياسي خارجي فلم يذكر في عهده عن حرب كبيرة أو تطاحن سياسي ألاّ ان ما يميز عهده عن سواه حصول الثورة الداخلية الدينية التي تميزت بايجاد تغييرات سريعة في الحالة الاجتماعية والدينية اسفرت عن تغييرات في المعتقدات والعادات والمظاهر. تلك الثورة الدينية التي تعتبر الأولى من نوعها في التاريخ برأي الكثير من العلماء والمؤرخين الا وهي ثورة التوحيد إذ يعتبروه رائد التوحيد في العالم.

إذ كانت الحياة الدينية في عصره والعصور التي سبقته تعتمد على الكثرة من الالهة فلكل مدينة اله يحميها ولكل مظهر من مظاهر الطبيعة اله فهناك اله للرعد واله للأرض واله للسماء وللنجوم وللزهرة وللمريخ بل وللخير وللشر وللنيل اله وللحرب اله وهكذا.

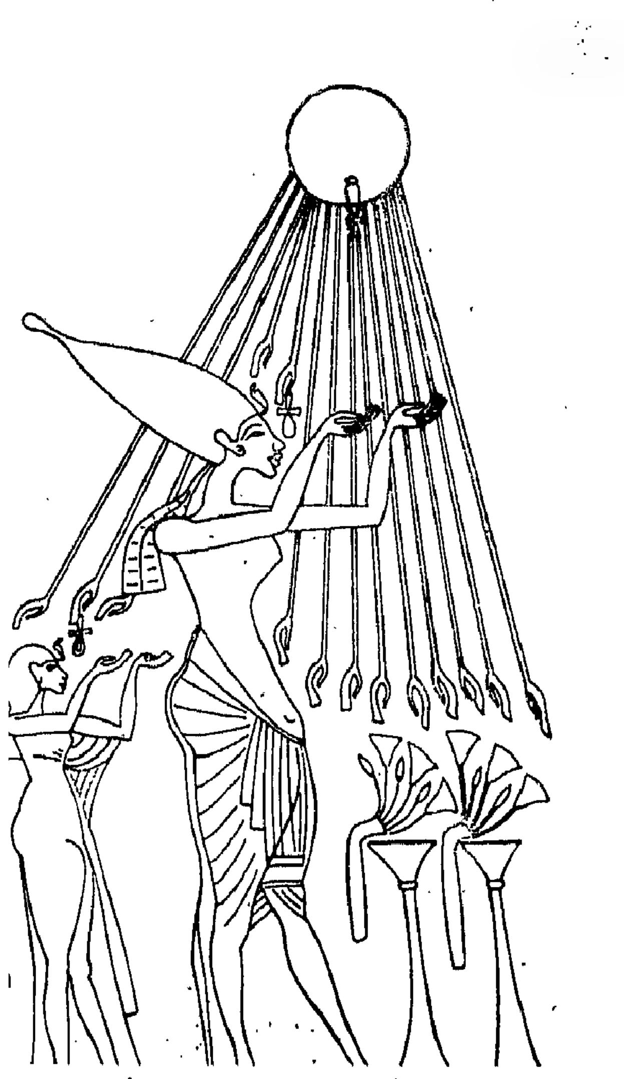
الا ان بعض الالهة تميز عن الاخرى بالحب أو الرهبة أو المكانة وفي اخناتون كان الاله المميز أمون الذي احتل المركز الأول في الأهمية وكان كهنته ومعابده على ثراء فاحش وسلطة ونفوذ وسيطرة ليس لها حدود.

وقد أظهر امنحوتب الرابع اشمئزازاً شديداً من الاله أمون ولكنه لم يستطع اظهار هذا الميل بسبب تأثير امه (على رأي بعض العلماء) وكان سنه أقل من ان يقف بوجه كهنة أمون. الا انه اتبع خطوات اوصلته إلى ثورته واستطاع بها صبغ مصر بالتوحيد الذي دعا اليه متمثلاً بعبادة الشمس التي رأى انها أعظم المظاهر الكونية.

وكانت اولها مظاهر دعوته هذه هي في زيارته إلى (جبال سيلسيلا) بعد ان سمح له بزيارتها لعبادة أمون وكان صغير السن نسبياً.

(... النبي الأول لـ (رع - حارانفست) المبتهج في الأفق باسمه من نور الشمس الذي هو آتون). وبعد عدة سنوات اخذ (الاله الأوحد) (أتون) الذي بدأت عبادته بالظهور في عهد امنحوتب الثالث (ويمثل بقرص الشمس الذي تنحدر منه الأشعة التي تصل إلى كل البشرية وكل انحاء العالم) تنتشر بسرعة وقد واجهت سيطرة هذا الاله مقاومة عنيفة من كهنة أمون الذين وجدوا في سيطرة أتون نذير خطر مدمر وبداية النهاية بالنسبة لهم فقام صراع عنيف بوجه امنحوتب الرابع الذي جعل اسمه بدلاً من «امينوخين» أي (آمون هو راض) إلى اخناتون أي (في خدمة آتون) ورغم ذلك فانه اضطر لترك طيبة المعقل لاساسي لآمون خوفاً على حياته من مؤامرات الكهنة وسافر مع زوجته نفرتيتي قاصداً انشاء عاصمة جديدة له فكون مقراً لعبادة آتون فقام ببناء مدينة جديدة سماها (اخيتاتن) أي (افق القرص) وتعرف اليوم باسم تل العمارنة والتي لم يعد هناك فيها ما يستحق المشاهدة خارج جدران القرميد المغمورة بالرمل حتى منتصفها والتي تمثل اسس القصور والمباني الفخمة لآخناتون واسس القبور المنحوتة بجوارها في الصخور العالية الفخمة والتي تخربت وتشوهت بقساوة بفعل عناصر الثورة المضادة بعد ان تم القضاء على اخناتون وفكرة التوحيد التي جاء بها.

ويمكن استخلاص بعض ملامح هذه العقيدة بدراسة ما يسمى اليوم (نشيد اخناتون) الذي وجد في حفريات تل العمارنة إذ يبدوان الحياة تنطلق مع الاشراق الذي هو تجلي لآتون الحي



اخناتون وعائلته يتعبّدون الى قرص الشمس-«أتون»

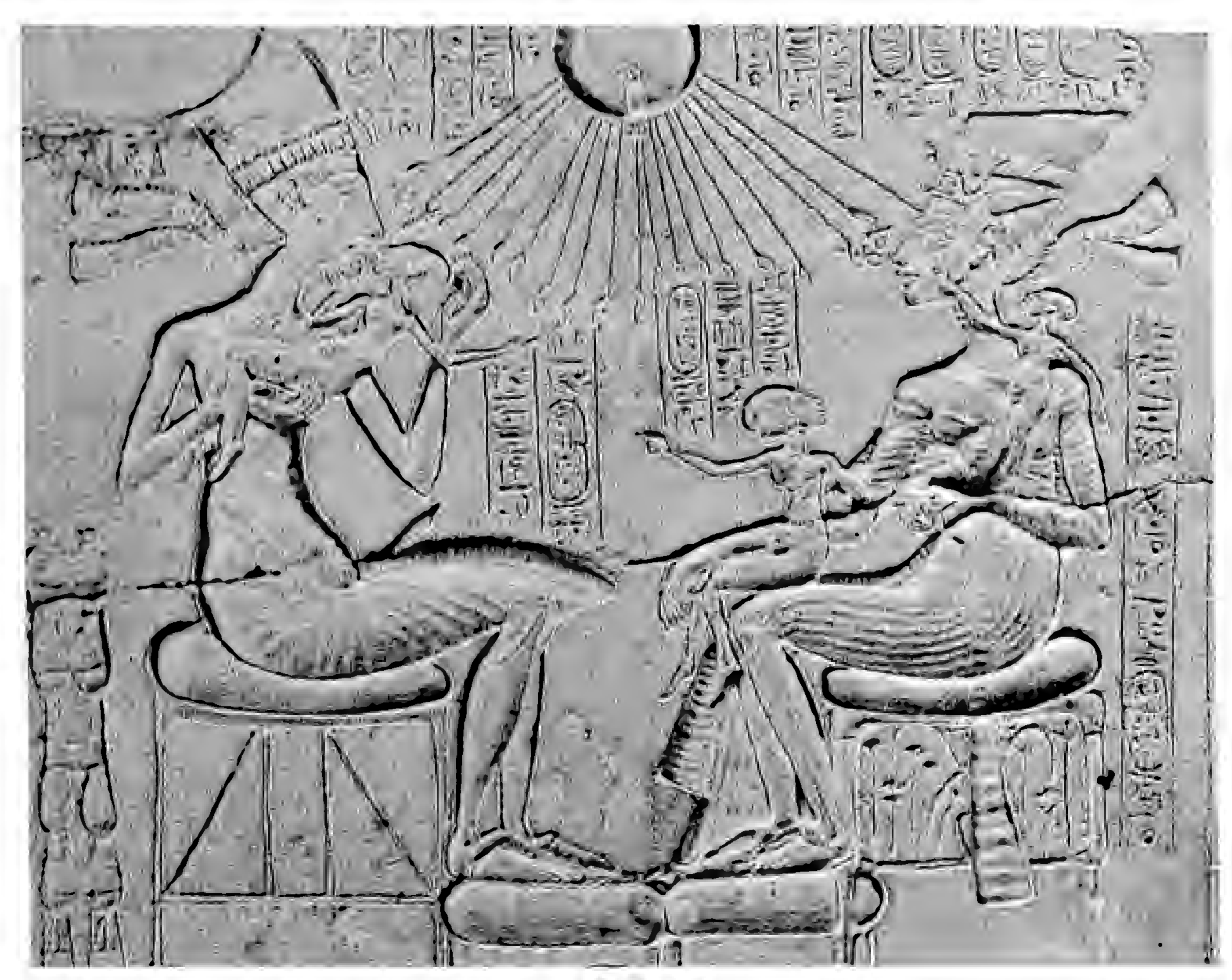
وان آتون هو سر الخليقة وسببها في كل مظاهرها الانسانية والحيوانية والنباتية.

ويعطي اخناتون لآتون مظهر التوحيد والقدرة الفائقة ومظهر العالمية فهو الذي خلق وأوجد مصر وسائر البلدان الأخرى وفرقها وجعل لكل منها لغة خاصة به وجعل آتون لكل انسان مكانا وأمن له قوته وغذاءه وحدد حياته.

من دراسة الآتونية يتبين أنها كانت تمتلك معطيات سياسية في سبيل ايجاد الهوية وديانة عالمية وهي المرة الأولى التي تظهر فيها مثل هذه الدعوات.

وقد مرت الآتونية بثلاث مراحل وهي:

الأولى - قبل ان يترك اخناتون طيبة وفيها شجع عبادة آتون بعد ان مهد لها اثناء حياة



في جلسة تعبّد.

والده ببنائه معبداً لآتون في طيبة.

الثانية - بعد انتقاله لمدينته الجديدة قام اخناتون بوضع خطة لتدمير كل آثار الآلهة السابقة دون استثناء حتى شملت آثار والده. رغم ان هذه الحملة لم تكن ناجحة تمماً ولم تدمر كل شيء كما خطط لها.

الثالثة - وهي مرحلة الردة وقد بدأت بالقضاء على اخناتون بتأثير كهنة آمون الذين نزعوا اسم الملك (الهرطقي) و(المجرم) كما يسمونه عن كل ما وقعت ابصارهم عليه.

أما لدى انتشار الأتونية فيبدو أنه كان ضعيفاً، أن اخناتون الغى الآلهة الأخرى وهدم معابدها واوقف عبادتها الا ان الناس ظلوا على ديانتهم القديمة ومعبوداتهم وقد تحولت من عبادة علنية إلى عبادة سرية حتى ان اخناتون بعد تركه طيبة لمدينته الجديدة دلت الحفريات الأثرية ان بطانته كانت من العمال والحرفيين والممالئين له وللدين الجديد وقد تبين ان هناك شخصاً واحداً فقط جاء مع اخناتون من طيبة أما الباقون فقد كان همهم التقاط عقود الذهب والمكاسب التي يلقيها الملك والملكة عند ظهورهم من شرفات قصرهم كما تمثلهم المنحوتات المكتشفة. كما وقد عثر بين بقايا قرية العمال في تل العمارنة على آثار متعددة للعبادة القديمة ومن بينها تماثيل للاله بس وللعين المقدسة لحوريس.

اما انتشار الأتونية في مصر وباقي العالم المعروف في حينها فقد كان ضئيلاً في مصر أما

خارجها فقد ساهم قلة اقدام اخناتون على الحروب في عدم انتشار الأتونية فلم يعثر على أي اثر لآتون في مصر وفلسطين ولبنان والمناطق المجاورة. في العام الثاني عشر حدث الانفصال بين اخناتون وزوجته نفرتيتي لاسباب مجهولة قال البعض انها تتعلق بالديانة الجديدة إذ ارادت نفرتيتي العودة للديانة القديمة فكان هذا سبب الفراق وآخرون يرون انها فضيحة في القصر كانت السبب.

وقد تأكد لعلماء الآثار ان اخناتون قد استبدل حبه لنفرتيتي بحبه لأخيه سمينخ كارع وسواء كان هذا الحب مشبوها ام لا. وآخر ما وصل الينا عن اخناتون يعودللعام السابع عشر من حكمه ويبدو أنه تزوج ابنته الصغرى وانجب منها غلاما.

وشارك سمينخ كارع شقيقه بالحكم وكان هو وأخوه الثاني توتفنخ آتون من اتباع الأتونية وبعد وفاة اخناتون انفض اتباع الأتونية عنها فكان أول من هجر مدينة أتون سمينخ كارع الذي عاد إلى طيبة ويبدو ان سمينخ كارع قد توفي في نفس العام الذي توفي فيه اخناتون واستلم الحكم توت غنج أتون الذي اعاد للمعابد القديمة حميتها واحيى الديانة القديمة وقد استبدل باسمه اسم توت عنج آمون وفي عهده بدأت الحملات المعاكسة على الأتونية وكانت ذروة هذه الحملات في عهد حورمحب.

إلّا ان اخناتون يبقى رمز التوحيد وقد وصف الأتونية عالم الآثار المتخصص غاردنر بقوله: «ان الأتونية لم تكن مجرد نظرية مادية وحسب بل كانت عملية توحيدية شرعية وصحيحة».

ووصفها البروفسور فيرمان بقوله: «ان مقدار ما كتب عن اخناتون باستطاعته ان يجعل منه مسيحيا قبل ظهور مسيح الكتاب المقدس ، ومن المستحسن أن نذكر بأن الأتونية لم تكن اسلوبا حياتيا معينا بل مجرد ممارسة لاهوتية.. انها مرحلة براقة ولكنها زائلة كمثل الفراشة الزاهية الألوان التي تحوم ثم تتوارى».

ويقول ليونارد كوتريل: «ان المنجزات الكثيرة التي حققها هذا الفرعون من الصعب استبعادها بهذا الشكل وما المجالات الحامية التي ما زالت بعد أكثر من ثلاثة آلاف سنة حول واقع اخناتون، الا شهادة على قوة شخصيته وشخصية الملكة نفرتيتي».

وقد اعتبر فرويد سيدنا موسى من المتأثرين بالأتونية واعتبره تلميذاً لأخناتون وقد جاء موسى عليه السلام الذي وجد قبل اخناتون ان وجد حوالى عام (١٨٥٠ق.م.) وقد أثار الهيلي تأثير نفرتيتي على اخناتون في قضية التوحيد إلّا ان نفرتيتي قد جاءت من بلاد الرافدين وقد سافر ابراهيم عليه السلام إلى مصر وأقام بها وقصته مع الفرعون معروفة واهداء الفرعون لزوجته خادمة اسمها هاجر وانجابه منها اسماعيل عليه السلام وقصة سفره معها ومع ابنه إلى مكة ارضاء لزوجته كل هذا يؤكد وجود سالفة توحيدية على اخناتون والآية الشريفة التالية وبتسلسل ما ذكر فيها يؤكد وجود هذه الصداقة «ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه أن اتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين» البقرة (٢٥٨).

إلّا ان الموضوع بحاجة لدراسة أوسع مع استقرار للنصوص المكتشفة لتبيان تلك العلاقات.

لقد بقيت الأتونية واخناتون ذات تأثير كبير في العالم ودخلت في كيان بعض الأديان السماوية وعند الفلاسفة مثل افلوطين وحلّت أيضاً في صفوف الموحدين.



الفن السلجوقي في الاناضول

إعداد قسم التوثيق والأبحاث

■ تعتبر فنون السلاجقة في آسيا الصغرى من اروع الانتاجات الفنية الاسلامية قاطبة. فالسلاجقة الذين انتصروا عام ١٠٧١ على البيزنطيين واسسوا امبراطوريتهم في النصف الشرقي من الاناضول، استقدموا معهم قوى القبائل التركية التي لم تندحر. ويعتبر فنهم أكثر ضخامة إلى حد بعيد من فن المسلمين في ايران والهند والبلاد العربية. بوابات جبارة مطعمة بنقوش خلابة تزين المساجد والمدارس والمنازل المشيدة من كتل حجرية ضخمة، وعلى بعض الجدران تزدهر جنائن كاملة للازهار الحجرية بينما توجد على جدران اخرى نماذج جبارة للحيوانات: الطيور، وبالدرجة الأولى، الاسود التي تعتبر نموذجية بالنسبة لفن بلاد الاناضول منذ عصر الحثيين. ولم تشيد البيوت الدينية العديدة من قبل الحكام في عواصم الدولة – قونية وقيصرية وسيواس فحسب (كانت لقونية وحدها حوالى عام ١٢٥٠ مدارس لا يقل عددها

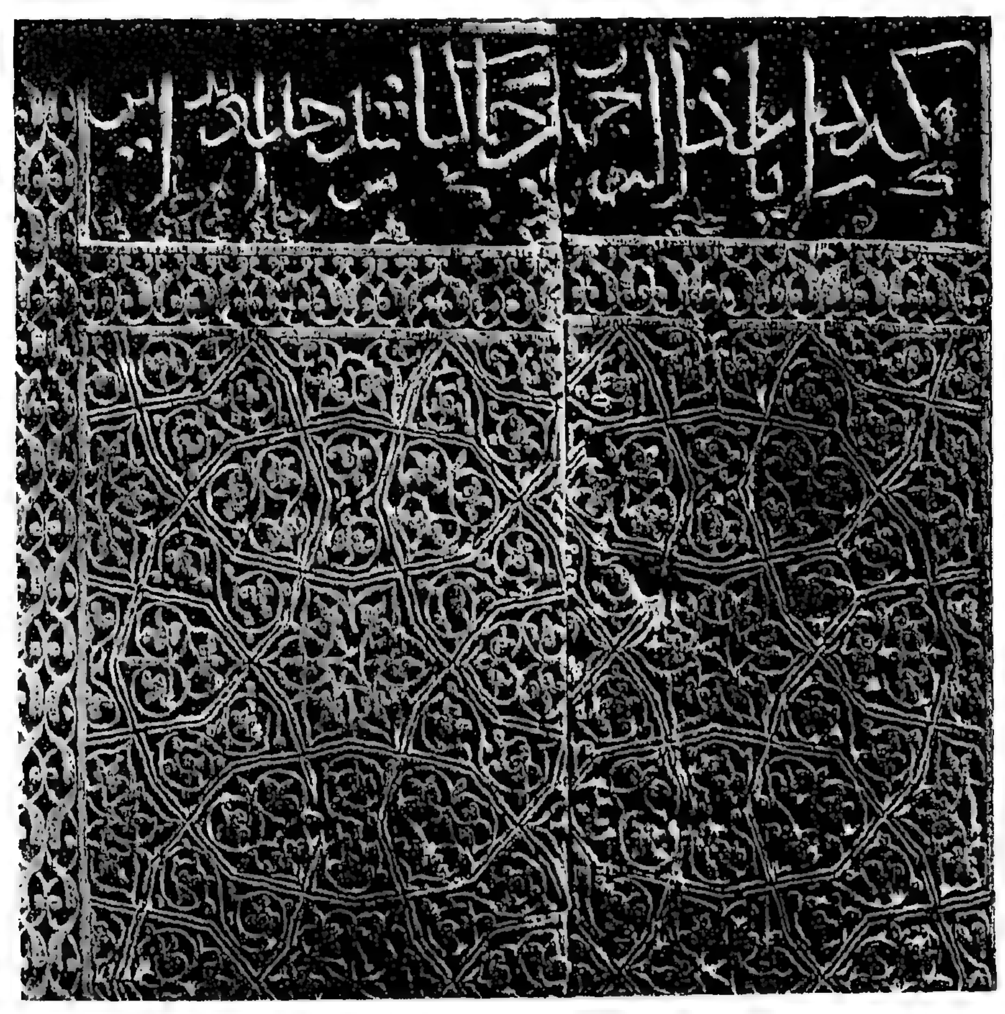


احد ابواب جامع مدينة دوريكي في الاناضول الشرقية، تم إنشاء هذا الجامع عام ١٢٢٨.

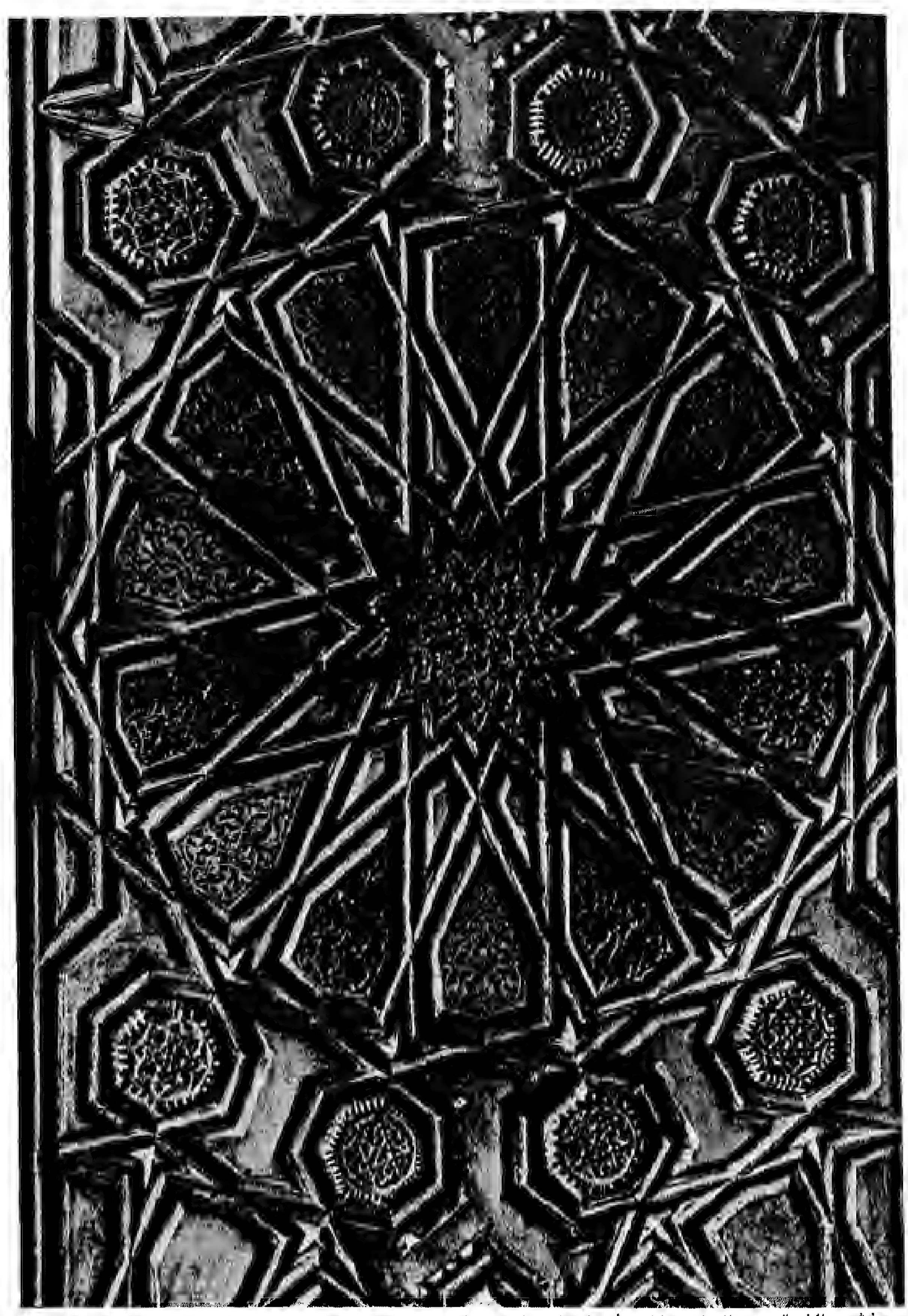
«الفن السلجوقي في الاناضول» من مجلة «فكر وفن» العدد ٢١ تاريخ شباط ١٩٧٣

عن الخمسين)، بل حتى في المدن الصغيرة المرتبطة اسميا بالسلاجقة نجد أعمالاً رائعة في فن العمارة في القرن الثالث عشر. وتجدر الاشارة أيضا بصورة خاصة إلى الطرق الممتازة والفنادق ونزل القوافل المنتشرة على الطرق التي تبعد عن بعضها حوالى ٣٠ كيلومترا. وكما كان فن البناء بالحجر متطورا إلى حد بعيد، فان أشغال الخشب كالمنابر والمحاريب والسبابيك والابواب تدل على التقدم في اعمال الزخرفة والحفر على الخشب وكانت القباب واجزاء من الجدران تزين بانواع من البلاط الممتاز النادر، فكما ازدهرت في كافة انحاء البلاد فنون الخط وخاصة الخط الكوفي المتميز بطابعه الخاص. ومن ناحية اخرى فحتى فنون الخط والنسخ تعود إلى هذه الفترة. ويجدر ان لا ننسى ان هذا الازدهار الذي بلغ القمة في الفنون التشكيلية كان يرافقه بلوغ التصوف الاسلامي ذروته. فاناضول السلاجقة هي تلك البلاد التي تواجد فيها العلماء الهاربون من حملة المغول في خراسان وأيران فكانت مأوى لهم، وأسماء لامعة مثل جلال الدين الرومي وصدرالدين القونوي ونجم الدين دايا الرازي تمثل العديدين من شيوخ الصوفية والفقه والشعر وفن الخط الذين التفوا حول دار السلاجقة. وقد استمر تأثير اندفاعات الفن السلجوقي الرفيع ظاهرا في القرون التي اعقبت هذه الفترة: وعند التمعن في اجود انتاجات الفن العثماني في القرون اللاحقة نشعر «بطاقة الاتراك الكبيرة غير المقيدة» كما عبر عنها بحق أحد علماء تاريخ الفن.

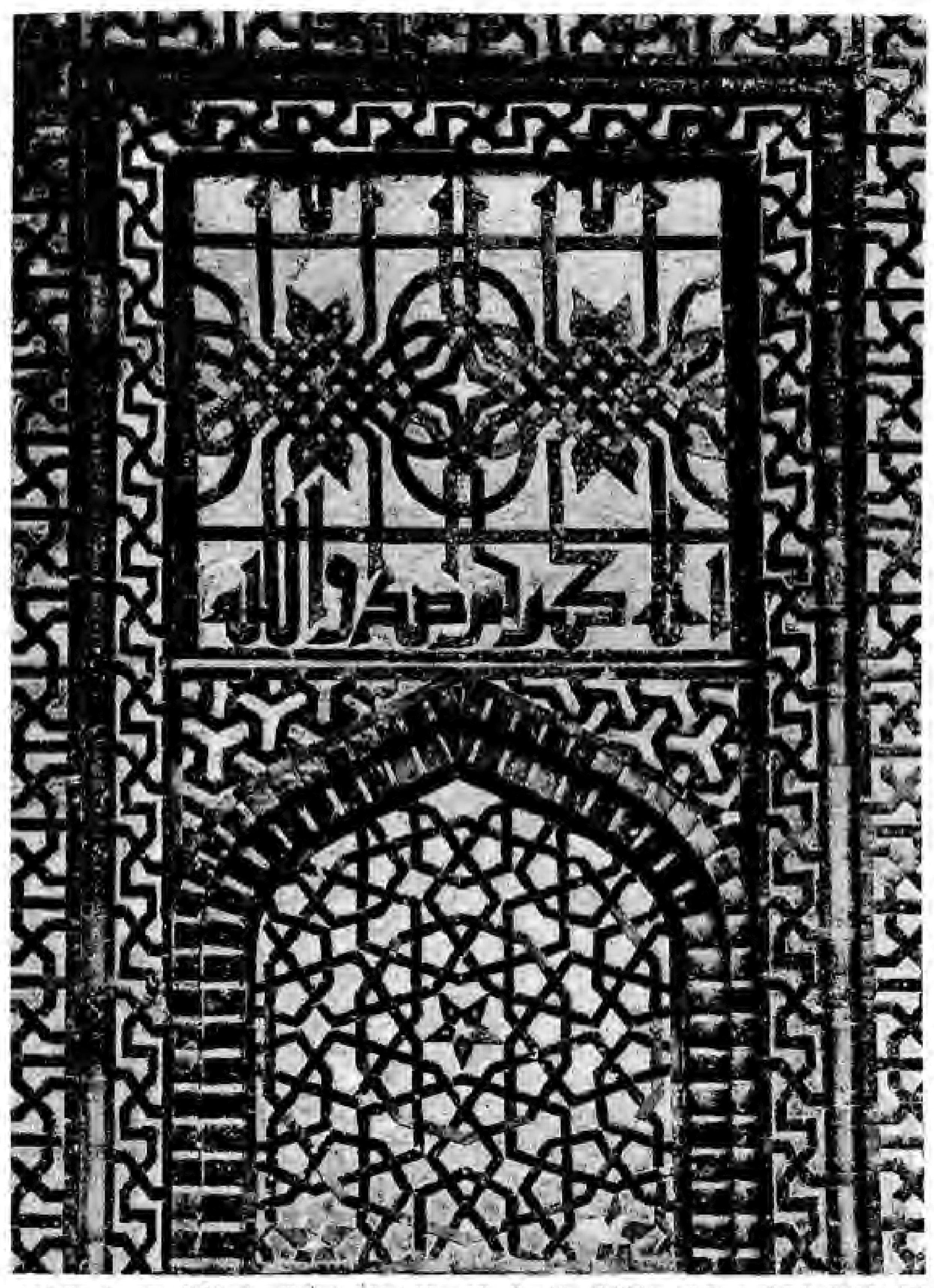
وتقدم الصفحات التالية بعض نماذج هذا الفن التقطتها عدسة احد المصورين السويسريين.



خشب الشباك من جامع (أشرف اوغل) في مدينة بيكشهر، الاناضول المركزية في أواخر القرن الثالث عشر.



خشب الشباك من الجامع الذي أنشأه السلطان العثماني بايزيد الثاني (المتوفى عام ١٥١٢) في مدينة اماسيا بالأناضول الشمالية.



كتابة كوفية «الاكرام صدق الله» بالقاشاني الفيروزي اللون تزين باباً من أبواب دار الشفاء في مدينة سيواس، الأناضول الشرقية، وتوجد على كل واحد من أبواب هذه الدار كتابة تحتوي على آيات قرآنية. تم انشاء دار الشفاء عام ١٢٧١.



كتابة كوفية «الشكر لله» على باب من أبواب المدرسة الزرقاء. (كوك مدرسة) في مدينة سيواس، الأناضول الشرقية وقد تم انشاء المدرسة عام ١٢٧١.   الصور بعدسة «ادوار فيدمر» زيوريخ (Eduard Widmer, Zürich).

مراجعة كتاب

العقيد الركن د. ياسين سويد يفتح باب المناقشة الجدية حول كتابة التاريخ اللبناني



إعداد: فاروق البربير

لم يكن التاريخ اللبناني المكتوب موضع تساؤل بقدر ما هو اليوم، ففي الظروف الأليمة التي انقسم من جرائها الشعب اللبناني حول مستقبله ومصيره، بدأ تساؤل جدي حول ما إذا كان هذا التاريخ قد كتب بروح التجرد والصدق أم إنه وُجِّه في كتابته، وجهة تركت حولها كثيرا من الشك وعلامات الاستفهام.

في خضم هذا التساؤل المقلق، جاء كتاب العقيد الركن د. ياسين سويد «التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين، الجزء الأول، الامارة المعنية» ؛ يفتح باب المناقشة الجدية حول كتابة هذا التاريخ، ويضع خطوطاً عريضة تحت أسطر كثيرة منه.

وليس لنا، في هذا البحث، أن نستعرض الكتاب برمته، فاستعراضه يتطلب العديد من الصفحات لا مجال لها هنا، وإنما سوف نحاول أن نحدد لمحات منه لابد وأن يتوقف قارىء الكتاب عندها.

يبدأ المؤلف كتابه باهداء شجاع، فهو يهديه إلى «المؤمنين بصدق، ان وطناً يبنى على التمايز الطائفي هو جرح قابل للنزف في كل حين، وان الوطن القادر القوي، هو الوطن الديمقراطي العلماني، الذي به نحلم وإليه نتطلع»، ثم يقرر، في مطلع المقدمة: «ان كتابة التاريخ إقرار وصناعته قرار، بمعنى أن كتابته تلزم المؤرخ بالاقرار الصادق والصريح بوقائع الماضي وحقائقه الثابتة... أما صناعة التاريخ فهي فعل اتخاذ القرار الذي يحدد السلوك المصيري لمجتمع أو لأمة، ويستطرد في المطلع نفسه فيقول «وكما تتطلب صناعة القرار التاريخي جرأة واقتحاما، يتطلب كذلك، الاقرار بالحقائق التاريخية، تجرداً ، وجرأة، وفي بعض الأحيان اقتحاما».

ترى، ما الذي دعا المؤلف لأن يبدأ كتابه بهذا الشكل؟ فهو، بعد أن يعلن أنه ضد أي تمايز طائفي في وطنه الذي يريده «وطناً ديمقراطياً علمانياً» إذا به يدعو إلى الاقرار بالحقائق التاريخية الثابتة، معترفاً أن الاقرار بها يتطلب تجرداً وجرأة، «وفي بعض الأحيان اقتحاما»، كأنما أحس أنه في كتابته لتاريخ المقاطعات اللبنانية بالشكل الذي كتبه، مقدم على عمل يتطلب منه الاقتحام والجرأة، بالاضافة إلى التجرد، وقد كان كذلك، في كتابه، فعلا. وبدأ المؤلف كتابه بالشك، وبجملة من اللاءات، أحجم الكثير من المؤرخين اللبنانيين

المعاصرين عن طرحها تهيبا، لأنها تناقض، في نظرهم، الاتجاه العام الذي وضع تاريخ لبنان في مساره، عمداً، لذا، فإن معاكسة هذا الاتجاه ومناقشته يتطلبان، في المواقع، تجردا وجرأة، بل واقتحاما، وقد سلك العقيد الركن سويد هذا الاتجاه، فناقش وناقض، غير متهيب ولا وجل، ومن هنا، يستحق كتابه الدرس والتحليل والمناقشة، فهو لا يقر مثلا «الطرح الذي يجعل من فخرالدين الثاني أول مؤسس للبنان الموحد» (ص٩) وذلك انطلاقا من معطيات يتعرض لها في سياق البحث فيقول: «فخرالدين، ما هي حقيقة طموحه السياسي؟... أمر أثار كثيراً من الاجتهاد بل والابتزاز، عند العديد من المؤرخين اللبنانيين والأجانب، فقد قيل في طموح فخرالدين السياسي الكثير، وألبس فخرالدين أثواباً من المؤكد أنه لم يفكر بلبسها، وقوّل أقوالا من المؤكد أنه لم يقلها، فقيل عنه أنه أمير لبنان، وانه كان يرمي من وراء سياسته الداخلية والخارجية التوصل إلى بناء الوحدة اللبنانية... والحقيقة... ان أحداً لم يسمه، كما لم يسم هو نفسه، أمير لبنان، وذلك أمر طبيعي ومنطقي للغاية، فقد وجد فخرالدين قبل وجود فكرة الكيان اللبناني والدولة اللبنانية بقرنين ونصف القرن... وقبل تحقيق هذا الكيان وهذه الدولة بثلاثة قرون... ولم يكن للبنان قبل فخرالدين كيان أو دولة... فلا يعقل، والحالة هذه، أن يتنبأ فخرالدين، أو يرد في خاطره شيء من هذا القبيل (ص١٧٢)، وانطلاقاً من هذه البديهيات فالمؤلف لا يرتضي، ما ارتضاه معظم المؤرخين اللبنانيين، أن يرى «في العهد المعني، ومذ فخرالدين الثاني بالذات، أول عهد ظهرت فيه مسودة الكيان اللبناني الذي عرف النور في النصف الأول من القرن العشرين» (ص٩) رغم أنه لا ينكر «الموقع التاريخي المميز الذي استطاع الأمير المعني أن يتخذه في تلك الحقبة من الزمن، بفضل طموحه السياسي من جهة، وبفضل تسامحه الديني من جهة أخرى» (ص٩) حيث تمكن من أن يخلق، دون قصد منه ولا شك في امارته... أرضية مشتركة لحياة اجتماعية متسامحة بين الطوائف وهو ما عدّه المؤرخون نواة للوطن اللبناني فيما بعد» (ص١٠) ولكنه يعود فيستطرد:

«رغم أن الواقع المعاش حاليا في لبنان، والذي تكرر في سياق التاريخ منذ أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن، شهد اهتزازات حادة، وذلك بفعل التغليب المستمر للشعور الطائفي على الشعور القومي عند أبناء هذه الطوائف، مما جعل الامر المعني مثار جدل تاريخي وسياسي تغذيه التناقضات الطائفية والمصالح المحلية المتوافقة حينا والمتضاربة حينا آخر» (ص١٠).

ولكل هذه الاسباب، اختار المؤلف عنوان كتابه «المقاطعة اللبنانية» أي «تلك المناطق التي كانت في ذلك الحين مقاطعات (أو امارات) من بلاد الشام، ثم كونت الوطن اللبناني فيما بعد، وهذه المناطق هي امارات الشوف والبقاع ووادي التيم ومقاطعة جبل عامل وسنجقية طرابلس بما فيها جبل لبنان (أي جبة بشري وكسروان)»، معتبرا أن في ذلك «من الدقة العلمية ما يغني عن التساؤل عن ماهية لبنان في العهد المعني جغرافياً ودستورياً» (ص١٠)، وتطبيقا لنظرته الجديدة هذه في التأريخ للبنان، درس المؤلف كل مقاطعة من هذه المقاطعات على حدة، مبتدئاً بالاطار التاريخي ثم الاجتماعي والعسكري لكل منها (الباب الاول)، كمدخل الى الموضوع الاساسي في الكتاب، وهو: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد فخرالدين المعني الثاني وحتى آخر العهد المعني (الباب الثاني)، وكانت دراسته في هذين البابين مستفيضة ومفصلة وزاخرة بتحليل الاحداث تحليلا مسندا بالوثائق، اضافة إلى ما تضمنه التحليل العسكري للمعارك من فكر عسكري رفيع المستوى.

وخلاصة القول في هذا المجال أن العقيد الركن سويد قد قدّم التاريخ اللبناني في العهد المعني بمنهجية جديدة لم يقدمه فيها مؤرخ قبله، فكان في تقديمه لهذا التاريخ منطقيا وواقعيا، يحلل الوقائع التاريخية باسلوب المؤرخ العلمي الرصين، فقد كان من البديهي، في نظره، أن تاريخ لبنان، في تلك الفترة، لم يكن تاريخ الاسرة المعنية فقط، ولم يكن تاريخ مقاطعة أو امارة من تلك المقاطعات والامارات التي كونت لبنان بعد ثلاثة قرون من العهد المعني، وإنما

كان تاريخ تلك المقاطعات كلها، وتاريخ الاسر التي حكمت تلك المقاطعات، فالسيفيون الذي حكموا باشوية طرابلس لم يكونوا أقل منزلة واهمية من الحرفوشيين الذين حكموا امارة البقاع أو من مشايخ جبل عامل أو من المعنيين الذين حكموا امارة الشوف، ناهيك عن امراء وادي التيم من الشهابيين، من هنا لم يجد المؤلف بدا من أن يعتبر، وهو على حق في ذلك، أن تاريخ لبنان هو تاريخ الشوف والبقاع ووادي التيم وجبل عامل وسنجقية طرابلس، ومن هنا جاءت دراسته تامة وشاملة لتاريخ هذه المقاطعات كلها. رغم ما شكا منه من افتقار المكتبة التاريخية اللبنانية «إلى المعلومات الواضحة والمفصلة عن أحوال المقاطعات التي تكونت منها الدولة اللبنانية في القرن العشرين» (ص ٣٥٣) مما زاد في صعوبة البحث والتقميش، وصعوبة التحليل والاستنتاج.

وهناك حقيقة تاريخية ابرزها المؤلف بجلاء ووضوح لم يوفق اليها الكثير من المؤرخين اللبنانيين - مع عدم انكار فضل السبق للدكتور كمال الصليبي في هذا المجال - وهي أن حدود جبل لبنان، في العهد المعني، لم تكن لتتعدى حدود جبة بشري وبلاد البترون وجبيل وأحيانا كسروان (ص ٤٥) وليكون واضحا أكثر، فقد قرر أن جبل الشوف، أوجبل الدروز «لم يكتسب اسم جبل لبنان إلا في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وفي اواخر عهد الامارة الشهابية» (ص ٤٥)، ومعنى ذلك أن المعنيين لم يعرفوا اطلاقا باسم امراء لبنان أو جبل لبنان وانما عرفوا بامراء الشوف أو امراء الدروز.

لقد أقدم المؤرخ العقيد سويد، في كتابته تاريخ لبنان بهذا الشكل، على خطوة بالغة الاهمية والخطورة، فهو نسف، إلى حد كبير، الاسس التقليدية التي قام عليها هذا التاريخ منذ مطلع عهد الانتداب الفرنسي حتى اليوم، وكان لديه من الجرأة ما بلغ حد «الاقتحام» حقا عندما أعلن رفضه لكل ما تعارف عليه المؤرخون المحدثون في هذا المجال، معززا رفضه هذا بالوثائق والبراهين الدامغة.

نكتفي بهذا القدر من العرض والمناقشة لكتاب العقيد الركن سويد، مع اعتقادنا أن في هذا الكتاب، من الحقائق الجديدة والمقنعة، ما يحتاج إلى أكثر من بحث أومقالة، فضلا عما تضمنه من وثائق لم يسبق أن نشرت من قبل، ومن تفاصيل دقيقة ومسهبة في التحليل العسكري لمختلف المعارك والتنظيمات العسكرية لم يسبق أن تناولها أي مؤرخ من مؤرخي العهد المعني ، ومن كثافة في المصادر والمراجع الموثوقة، ومما لاشك فيه أن كل ذلك سيجعل من كتاب العقيد الركن سويد واحدا من أهم المراجع التي لابد وان تغني مكتبتنا التاريخية، كما أنه سيجلو، بما اورده من حقائق ووثائق واسانيد، كثيرا من الشكوك التي أحاطت ولا تزال، بهذه الفترة الهامة من تاريخنا الحديث.

□



■ ان الثقافة التي يغلب فيها الكم على الكيف هي ثقافة لا تدافع عن أية قيمة انسانية، وانما هي ثقافة تخدر حواس الانسان وتشل تفكيره.

ل. ن.

■ ليست الحياة كمالاً ولكنها سبر غور الكمال، والتعلق بدنيا الكمال عند المثاليين مراهقة واحترام الواقع عند الواقعيين قناعة.

حكمة فرنسية

ألف ليلة وليلة

أصلها وانتماؤها

فاروق خورشيد



■ **كتب الناشر ليونارد. س سمترز في مقدمته للطبعة التي قام بنشرها بالانجليزية لألف ليلةوليلة عام ١٨٨٥، كتب يقول: «في معالجتي لفصول كاملة من النص مع مراعاة العديد من ملاحظات المترجم الانترويولوجية، رسخ في ذهني أن هذا الكتاب ليس فقط كتاباً كلاسيكياً، بل هو كتاب علمي وانتروبولوجي أيضاً، وأنه لا بد أن يحظى باهتمام أكبر من الاهتمام الذي تحظى به مجرد قصة تقرأ للمتعة».**

والترجمة التي تحدث عنها الناشر هي ترجمة الكابتن سير بورتون التي تعد أضخم ترجمة ظهرت في الغرب رغم العديد من التراجم التي ظهرت لألف ليلة وليلة. فالترجمة في عشرة أجزاء يليها ملحق في سبعة أجزاء أخرى.

والحقيقة أن الملاحظات التي يتحدث عنها الناشر والتي ملأت الكتاب هي تعليقات مطولة تتناول بعض الظواهر الاجتماعية التي دلت عليها قصص الكتاب والتي تعكس واقعا اجتماعيا عاشته البلاد الاسلامية في فترات زمنية بذاتها. وهو ينهي الترجمة بفصل طويل عن الأدب العربي وعن المعلومات التي ظهرت عن الليالي من خلال دراسات المستشرقين الذين اهتموا بالكتاب قبله والمترجمين الذين تصدوا لتقديم الكتاب إلى اللغات الأوروبية المتعددة. فالواقع أن هذه الدراسات عرفت طريقها إلى الدراسات الفولكلورية والأدبية منذ عام ١٧٠٤م حين بدأ انطوان جالان في نشر ترجمته الفرنسية لألف ليلة وليلة على أجزاء تتخاطفها الأيدي في باريس فور طبعها حتى انتهى منها عام ١٧١٧م. فمنذ ظهرت هذه الترجمة الفرنسية في أوروبا والترجمات تتوالى الى كل اللغات الأوربية والناشرون يقبلون على نشر هذه الترجمات التي أعيد طبعها أكثر من مرة لما تلاقي من نجاح شعبي كبير في كل لغة نقلت إليها.

ومع هذا النجاح الذي لاقته ألف ليلة وليلة كعمل قصصي شعبي عالمي يجد صداه المدوي في الشرق والغرب على السواء، بدأت الدراسات والتحقيقات العلمية، وبدأت محاولات الوصول إلى أقدم المخطوطات للتعرف على الأصول الأولى للكتاب، كما بدأ البحث عن المصادر الحقيقية للقصص العديدة المختلفة المنهج والاتجاه في داخل الكتاب. وبرزت الى جوار اسم جالان أسماء غوتييه وبرسفال ودولاكروا مترجمين ومعقبين على ألف ليلة وليلة في نصها الفرنسي، كما برزت أسماء فون هامر ولويل وهانتخ وغريفه وليتمان في الألمانية. وليتمان هو صاحب الترجمة الألمانية الأمينة التي لم تعتمد على نسخة جالان الفرنسية، وانما اعتمدت على أصل عربي مطبوع في كلكتا.

أما في الانجليزية فتبرز أسماء سكوت وكورنر ولين وجون بين ثم أخيرا بورتون الذي وقفنا عند ترجمته في أول هذا المقال. والواقع أن وقوفنا على هذه الترجمة بالذات كان لما ساقه المترجم من تبرير لتعليقاته الانثروبولوجية الكثيرة التي ملأ بها ترجمته، إذ برّرها بأن الانجليز في أمس الحاجة الى معرفة الشرق في حياته الاجتماعية لتسهل عليهم مهمتهم فيه، ومهمة الانجليز في عام ١٨٨٥ في الشرق كما هو معروف مهمة استعمارية محضة.

فالمعرفة إذن ليست لذات المعرفة، والتعليقات العلمية والانثروبولوجية والأدبية التي شغلت حيزا كبيرا في هذه الطبعة الفخمة لم تكن لوجه العلم والمعرفة، وانما كانت خدمة لأهداف استعمارية لم يبخل عليها المترجم بكل الجهد والوقت والداب الذي تتطلبه أمثال هذه الدراسة.

ويقول الدكتور فؤاد حسنين علي ص١٥٥ من كتابه القيم (قصصنا الشعبي): «هناك نفر من العلماء الأجانب ما كاد يطلع على الترجمة التي نشرها انطوان جلند – يقصد ترجمة جالان – عام ١٧٠٤م حتى ذهب يفترض مختلف الفروض حول هذه القصص، وأخذ يشكك القراء في عبقرية العربي وخياله الخصب، وهذا ليس بمستبعد على الغربيين، فقد

كانوا في ذلك العصر خاصة يحملون كل ضغينة وحقد للعنصر السامي، وكانوا يهاجمونه بمختلف الوسائل، وشق عليهم أن تكون هذه الثروة القصصية في اللغة العربية وثمرة من ثمار الحضارة الاسلامية».

- **أصل ألف ليلة وليلة:**

والدراسات العديدة التي قام بها المستشرقون والتي عرضتها الدكتورة سهير القلماوي في كتابها القيم «ألف ليلة وليلة» والذي نالت عليه اجازة الدكتوراه، تؤيد هذا الاتجاه وتثبته بما لا يدع مجالا للشك. ويقول الدكتور فؤاد حسنين: «اتجه بعض علماء السنسكريتية من الأوروبيين في ذلك الوقت الى القول بأن ألف ليلة وليلة ترجمة لقصص هندية، والهنود آريون فهذه الثروة إذن آرية. وكان على رأس هذه الجماعة من العلماء شليتل ونجولد ميستر. ثم ظهرت جماعة أخرى من الأوروبيين أيضا ومن المهتمين بالدراسة الهندية أمثال فيبر وغراي وشربنتييه وانضم اليهم بعض علماء اللغات السامية أمثال مللر وادستربِ وليتمان وقرروا رأيا وسطا وهو أن هذه القصص عربية فارسية أو بتعبير آخر سامية آرية».

والواقع أن أمانة المؤرخين العرب هي السبب الأصلي الذي استند اليه المستشرقون في محاولة اخراج ألف ليلة وليلة من الموروث الاسلامي الى موروثات الشعوب الأخرى التي ترتبط بسبب أو بآخر بالشعوب الأوروبية كالهند وفارس وهما من الأسرة الهند - أوروبية، أو بمعنى آخر من الشعوب الآرية التي تلتقي مع الشعوب الأوروبية في النسب في زعم من قسموا الشعوب طبقاً لأسطورة نوح وأولاده الثلاثة الذين انحدرت منهم أصول شعوب الأرض. فقد أورد المسعودي في مروج الذهب في الجزء الرابع أن كتاباً اسمه ألف ليلة وليلة ترجم منذ أيام المأمون أو المنصور عن الفارسية. وقد عثر المستشرق هامر النمسوي على هذا النص فأقام الدنيا وأقعدها عن الأصل الفارسي لألف ليلة وليلة، وتبعه غيره من المؤرخين والدارسين بحيث أصبح هذا الأصل مسلمة معترفا بها لا تناقش علميا، وانما الذي يناقش هو مدى تأثير هذا الأصل في الصورة الحالية للكتاب، ومدى ارتباط هذا الأصل الفارسي بغيره من القصص الهندية والفارسية.

هذا كله والأصل الفارسي المشار اليه لم يعثر عليه أحد، ولم يظهر لا عند الفرس ولا عند غير الفرس من الشعوب الأخرى. وانما الذي ظهر قصص متفرقة تتفق في روحها العام أو في بعض جزئياتها الأساسية أو الفرعية مع واحدة أو أكثر من قصص الليالي، أما ألف ليلة وليلة كاملة وكما هي، أو هزار افسانه كما قال عنها المسعودي فلم تظهر مخطوطة فارسية حتى الآن. بل أن المستشرق لين يذهب الى أن ألف ليلة وليلة التي بين أيدينا غير ألف ليلة وليلة أو هزار افسانه التي ذكرها المسعودي.

والواقع أن نص المسعودي لا يمكن فهمه إلا إذا رجعنا إلى نص آخر في كتاب عربي هام آخر هو الفهرست لابن النديم، فقد ذكر ابن اسحاق النديم ألف ليلة وليلة وذكر أيضا كتاب هزار افسانه. وقد انتبه المستشرقون الى نص ابن النديم ولكنهم لم يستفيدوا منه إلا من حيث كونه تعضيداً لنص المسعودي حول الأصل الفارسي لألف ليلة وليلة، رغم أن نص ابن النديم يوضح حقيقة الموقف بالنسبة للكتاب وصورته الفارسية. ثم بالنسبة لما تم حيال الكتاب في المراحل الأولى لدخوله الى العربية.

يقول محمد بن اسحاق النديم في صفحة ٤٢٢ من طبعة المطبعة التجارية وفي مستهل المقالة الثامنة من الجزء الثامن من كتابه: «أول من صنف الخرافات، وجعل لها كتبا، وأودعها الخزائن، وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان، الفرس الأول، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشغانية، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية، ونقلته العرب الى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه. وصنفوا في معناه ما يشبهه، فأول كتاب عمل في هذا المعنى: كتاب هزار افسانه، ومعناه ألف خرافة».

ونص ابن النديم واضح في مصدر أدب الخرافات كأدب متكامل، ألفت فيه المؤلفات، ووضعت في الخزائن، واهتم بها الملوك، فعنده أن هذا المصدر هو الفرس، وأن هذا اللون من

الأدب انما عرفته الحضارة الاسلامية بشكله الواسع المنظم الذي يجعله أدبا قائما بذاته عن طريق دخول الفرس الى الاسلام، داخلين فيه بكل موروثاتهم الحضارية القديمة، وبكل مكونات هذه الحضارة العريقة من علم وفن وأدب. فحين دخل الفرس الاسلام أصبحوا جزءا منه يتفاعل مع العرب ليكونوا ما يسمى بالحضارة الاسلامية. وليس عجبا أن يتصارع العنصران على سيادة الدولة سياسيا وفكريا وفنيا منذ اللحظات الأولى، فتصبح قضية الشعوبية من أخطر القضايا التي واجهت الأمة الاسلامية وهي في مرحلة هضم مكوناتها لخلق البنيان الواحد، وليس عجبا أن تصبح قضية عرب وعجم، من القضايا التي واجهت الانسان المسلم منذ مطالع التكون الاسلامي الأول. فالعرب عرفوا الحضارة الفارسية قبل الاسلام، وأخذوا عنها واستفادوا منها وقلدوها وحاكوا العديد من نتائجها وخاصة في الميدان الاجتماعي والفني، فاذا ما جاء الاسلام اندمج الشعبان اندماجا كليا ليسهم كل منهما بنصيب في بناء الصرح الجديد المشترك. وليقدموا للعالم شيئا جديدا هو مزيج من جهدهما مع جهود الشعوب الأخرى التي دخلت الاسلام وكونت ما عرفه العالم باسم الحضارة الاسلامية.

منابع ثقافية متعددة:

إلا أن نص ابن النديم لا يعني أن العرب لم يعرفوا ألف ليلة وليلة أو هزار افسانه قبل الاسلام، فليس هناك ما يبرر هذه المسلمة التي أخذ بها المستشرقون دون الوقوف عندها وقفة المناقش المتفحص، كما أخذ بها الدارسون العرب دون تمهل أو امعان نظر. فالعرب أخذوا عن الفرس الكثير من ألفاظ الحضارة. ودخلت الألفاظ الفارسية ذات الاستعمال الاجتماعي والحضاري الى القاموس العربي، وتعربت واصبحت الفاظا عربية مستعملة وان عرف أصلها الفارسي ولم ينكر. والعرب عرفوا أيضا قبل الاسلام عن طريق الاحتكاك والتجارة بل والحروب الكثير من العادات الفارسية والأساطير الفارسية.

وهناك نص ذكره ابن هشام في الجزء الأول من السيرة النبوية (ص٣٠٠) من طبعة الحلبي يقول «وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله أو حذر قومه مما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام. ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار. ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟»

وهذا النص الذي أوردناه من ابن هشام يؤيده نص آخر ذكره الهمداني في كتابه الوشي المرقوم يقول: «لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب، العاربة وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس. وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرها في البلاد. وكذلك من سكن الشام خبر باخبار الروم وبني اسرائيل واليونان. ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس. ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في ظل الملوك السيارة».

بهذا النص يحدد الهمداني مصادر الثقافة العربية المتعددة، فالعرب لم يكونوا بمعزل عن الحياة الفكرية للشعوب التي جاورتهم، وبالتالي فان حكايات هذه الشعوب وأخبار ملوكها وأبطالها وقصص سمارها لم تكن بعيدة المنال عنهم. وجزء هام من مصادر الحكايات عن العرب كانت الحكايات الفارسية، وما دام العرب قد عرفوا قصص رستم واسفنديار، فهم قد عرفوا الأساطير الفارسية القديمة وكذلك موروثهم من حكايات وقصص. وليس من سبب يدعو إلى أن تتأخر معرفتهم بألف ليلة أو هزار افسانه إذا كان الاسمان يطلقان على كتاب واحد الى ما بعد الاسلام. النص الهمداني

وكذلك نص ابن هشام يرجحان معرفة العرب بقصص الفرس قبل الاسلام، أما نص ابن النديم فهو يورد عبارة «ونقلته العرب الى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه، وصنفوا في معناه ما يشبهه» وهي عبارة صريحة في معرفة العرب القديمة بخرافات الفرس وفي محاكاتهم هذا النوع من الأدب ومن تدخلهم في صياغته تهذيبا وتنميقا، ثم في قدرتهم على هذا النوع من التأليف. ثم تأتي عبارته التي يقول فيها: «فأول كتاب عمل في هذا المعنى: «كتاب هزار افسانه» لتدل على سبق المعرفة القديمة بالكتاب وبالتالي سبق تناوله تهذيبا وتنميقا، وسبق التأليف في معناه وفيما يشبهه.

ونحن نريد أن ندلل بهذا على أن ترجمة الكتاب لم تتأخر حتى عصر المنصور أي في القرن الثامن الميلادي كما قال برتن وكما لاحظت الدكتورة سهير القلماوي في تعقيبها على ما قاله بقولها (ولعله يقصد عصر دخولها الى العربية) فنحن لا نوافق الأستاذ برتن كما لا نوافق الدكتورة سهير القلماوي في تأخر معرفة العرب بألف ليلة حتى عصر المنصور، وانما نحن نذهب الى أنه دخل المحفوظ العربي مما نقلوه عن الآخرين قبل هذا بزمن طويل جدا، وأنه عندما وصل عهد المنصور كان قد تم هضمه عربيا واسلاميا، بحيث أصبح جزءا من التراث العربي الفكري والوجداني، وبذلك جزءا من التراث الاسلامي الحضاري. فابن النديم ينص على أنه أول كتاب عرفه العرب من كتب الأسمار والخرافات ونقلوه عن الفرس، ثم هو حين نص على أن العرب نقلته الى اللغة العربية، لم يحدد زمنا معينا لهذا النقل، ثم أن الكتب القديمة نصت على أسماء مترجمي من عاصروهم وأسماء الكتب التي قاموا بترجمتها من غير العربية من اللغات، فقد نص أصحاب هذه الكتب على أن ابن المقفع ترجم كليلة ودمنة، بل أن ابن النديم يقول في أسماء الكتب التي ألفها الفرس ما نصه: «كتاب رستم واسفنديار ترجمه جبلة بن سالم، كتاب بهرام لويس، ترجمة جبلة بن سالم».. أما ألف ليلة، أو هزار افسانه الذي ذكره ابن النديم أو المسعودي فلم ينصّ أحد منهما على اسم مترجمه، وهنا يرجح أن الكتاب كان قد ترجم قبل عصريهما بزمن طويل. ويؤيد هذا قول ابن النديم ص٤٢٣ من الفهرست: «ويحتوي ألف ليلة على دون المائتي سمر، لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال، وقد رأيته بتمامه دفعات. وهو في الحقيقة كتاب غث بارد الحديث»، فما دام ابن اسحاق النديم رآه كاملا وقرأه بل وحكم عليه من الحكم القاسي، فلا بد أن الكتاب كان قد اكتمل في صورة من صوره، وتم فيه ما تم في غيره من كتب الاسمار أي «نقلته العرب الى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه». وأصبح الكتاب كاملا تتداوله الأيدي ومع هذا فليس أحد يعرف من صنعه ولا من ترجمه ولا من أضاف اليه أو نمقه. اذن فقد غدا كتابا شعبيا متداولا يدخل في عداد التراث الشعبي ويعبر عن الروح الشعبية وتنطبق عليه قواعد كتب الفولكلور المدونة من أنها مجهولة المؤلف ضائعة النسب ويحق عليها من حيث مستوى حكم رجال البلاغة والأدب وقواعد الكتابة قول ابن النديم «وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث».

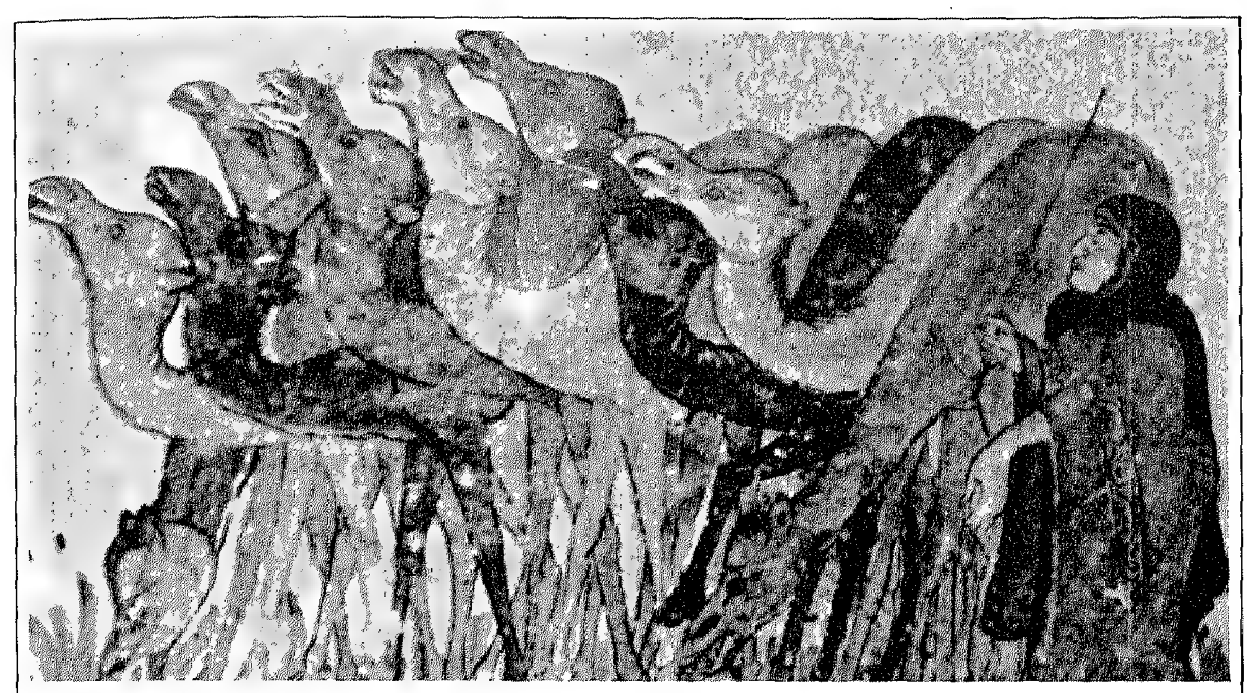
فألف ليلة وليلة اذن يكاد يكون الكتاب الشعبي الأول الذي جمع محفوظات الشعب العربي من الاسمار والخرافات أو من القصص، وهذه المحفوظات جاءت أما مَن موروثهم القديم في العصر الجاهلي وما سبقه وأما من كل ما نقل اليهم من مأثورات الشعوب التي عرفوها واحتكوا بها كشعوب الهند وفارس واليونان ومصر وغيرها.

وهذا المنحى في الاستفادة من كل المأثور القصصي في بناء الأعمال القصصية الجديدة منحى مألوف ومفهوم فالقصة موروث انساني، يجد فيه الانسان نفسه وتجاربه وأشواقه أيا كان مؤلفها الأصلي أو أيا كان موطن تأليفها الأصلي، ولعلها بهذا اسرع الأعمال الفنيّة ذوبانا في ضمائر المتلقين، وأكثرها قدرة على أن تتلاءم في كل بيئة جديدة تغزوها مع طبيعة هذه البيئة وروحها، لتغدو معبرة عنها هي قدر ما عبرت عن بيئتها الأولى التي نشأت فيها.

وهذه الحقيقة أساس لعمل عالم الفولكلور،



أبو زيد يتناول طعاماً في بيت الحارث (المقامة الخامسة).



من المقامة الثانية والثلاثين «جارية وجمال».

فهو يحاول من خلال النص الموجود أمامه أن يستخرج آثار البيئات الاجتماعية والجغرافية والتاريخية التي تظهر في النص أو التي تركت بصماتها على النص.

استيعاب الموروث الحضاري:

وألف ليلة وليلة تحمل بصمات هندية وفارسية ويونانية وفرعونية وعربية قديمة، كما تحمل أيضا بصمات بيئات جديدة تكونت بعد الاسلام في مصر والعراق والشام، وذلك في الأجزاء التي يسميها المستشرقون بالأجزاء المصرية أو البغدادية.

فتأليف القصص اعتمادا على كل ما وصل القاص من مأثورات عمل طبيعي ومعروف، واعتماد الكاتب على كل ما سبقه من تراث شيء شائع لا يحتاج إلى كل هذا العناء في محاولة نسبة الكتاب مرة الى الهند ومرة الى فارس، ثم مرات عديدة الى غيرهما من الشعوب ليمكن لمستشرق أو لآخر أن ينزع الكتاب من مكانه في الموروث الحضاري العربي ليدخله في موروث شعب آخر.

والاستدلال على بعد الزمن بمعرفة العرب لألف ليلة وليلة والذي أقمناه على نص ابن النديم ينفي ما تواضع عليه المستشرقون من اعتبار الكتاب من نتاج العصر العباسي، وينفي أيضا القضية التي أقام عليها فون غروثيباوم أحكامه على ألف لية في كتابه حضارة الاسلام من ترجمة الأستاذ عبدالعزيز جازيد، حيث يقول في ص٣٧٢ «تطورت المجموعة الضخمة من الحكايات والخرافات المعروفة بألف ليلة وليلة في أصقاع مختلفة من العالم الناطق بالعربية بين قرابة ٩٠٠م و١٥٠٠م. وتطمس اللغة واللون المحلي معالم العنصر الأجنبي للشطر الأكبر من مادة الكتاب طمسا فعليا».

فالكتاب قد بدأت معرفة العرب له قبل هذا كما قلنا. كما أن العنصر الأجنبي امتص وتمثل وتم هضمه ولم يعد إلا مجرد اشارات لمصادره الأصلية وما في الكتاب خلق عربي جديد، امتلأ بالروح العربي وأصبح تعبيرا عن الوجود الحضاري العربي الذي امتدت له يد الاسلام بعد هذا فلونته بلونها ومنحته فلسفتها ورؤيتها. ولكن هذا التطور الفني والاجتماعي والتاريخي الطبيعي لا يرضي الأستاذ غرو ثيباوم فهو يستمر في حديثه عن الكتاب قائلا: «أن روح الاسلام راحت تشيع في حكايات يهودية الأصل أو بوذية أو هلينستية، وحلت النظم الاسلامية

والآداب الاسلامية والعلوم الاسلامية في هدوء محل الأوضاع الثقافية للمادة الأصلية، وأضافت على الكتاب تلك الوحدة في الجو التي هي من أبرز ما تتسم به الحضارة الاسلامية من خصائص، والتي تمنح المشاهد لا محالة من أن يلحظ لأول وهلة ذلك التجميع المبرقش للعناصر غير المتجانسة التي تتركب منها تلك الحضارة».

وعلى الرغم مما في عبارة غروثيبادم من سم تقطر به الكلمات والحروف إلا أن الحقائق لا يمكن تغييرها أو انكارها. فماذا كانت تكون ألف ليلة وليلة أن لم يعمل فيها العقل العربي المبدع، والوجدان الاسلامي الخلاق؟ لا نحسب إلا أنها كانت ستصبح شيئا آخر غير ألف ليلة. شيئا نعرفه موجودا في البقايا الفولكلورية لبعض الشعوب التي لم تجد من يحفظ المعنى الانساني الشامل فيها ليجعل منها نقلة حضارية واضحة.

ان المستشرق غروثيباوم يجهد نفسه في فصل بعنوان «اليونان في ألف ليلة» ليثبت أن هناك الكثير من المؤثرات الهلينستية فيها. والمجهود منصف ومضن. والحكايات الهلينستية يشارك فيها غيره من الموروثات العلمية القديمة الأخرى، بل بلغ به الأمر حد اعتبار مجرد تشابه الفكرة دليلا على الأصل الهليني للحكاية العربية المشابهة لها، فيقول عن رحلات السندباد في ص٣٧٨: «ان الفكرة مهما تكن كان أول ظهور أدبي لها في اللغة الأغريقية، ثم تناولها القاص الشرقي فتوسع فيها وأعطاها شكلا غير الشكل الذي أعطاها إياه المؤلف الكلاسيكي».

والفكرة في السندباد هي الرحلة الى المجهول دائما، والغربة من رحلة الى رحلة، وهذه الفكرة ليست وقفا على الاغريق فقد سبقهم اليها المصريون القدماء وامتلأت بها قصصهم. والواقع أن التفات الدارسين الى الأصول الفرعونية لألف ليلة وليلة التفات غير جاد، فلا نكاد نجد ألا نولدكه الذي يلتفت الى أن قصص الشطار والسحر فيها أصول فرعونية، رغم أن نظرة سريعة الى ما قدمه الأستاذ سليم حسن في كتابه الأدب المصري القديم من نماذج قصصية يؤكد وجود تأثيرات واضحة في ألف ليلة وليلة بالكثير من الأفكار بل والحوادث التي وردت في هذه القصص. ولكن اصرار غروثيباوم وغيره من المستشرقين على البحث عن أصول أغريقية على ألف ليلة وليلة مرجعه في الحقيقة الى موقف يتخذونه من الحضارة الاسلامية كلها بوجه عام. وهذا الموقف يتلخص في عدة نقاط:

الأولى: ان الحضارة الاسلامية لم تقدم جديدا للانسانية بل هي اقتصرت على القيام بدور الناقل للحضارات القديمة دون اضافة جوهرية، هناك تغيير في الشكل حقا ولكن هذا التغيير لا يعتبر اضافة حضارية، بل قد يعتبر معوقا حضاريا ويقول غروثيباوم في تحديد واضح (ص٤٠٥) «اجتمعت عناصر هندية وفارسية ويهودية ويونانية وبابلية ومصرية فضلا عن عناصر عربية أصيلة، فأصبحت كلا واحدا على أيدي أساتذة مجهولين يرجع اليهم الفضل في تلك الجزالة الهائلة التي ينطوي عليها مجموع ألف ليلة وليلة. وراحت اللغة العربية من حيث الظاهر، والروح الاسلامي من حيث الداخل توجد هذه الخطوط المتعددة وتتولى حبكها في بساط فاتن يخطف الأبصار. وأن ألف ليلة في تأليفها بين كل ما هو مختلف وكل ما هو متفاوت لأشبه الأشياء بمثال مصغر للحضارة الاسلامية بوجه الاجمال».

المسألة اذن أن الجهود التي اتسمت بأنها جهود علمية مخلصة، انما هي تحاول عن طريق المنهج العلمي انكار كل الاضافات التي قدمتها الحضارة العربية والاسلامية الشامخة للبشرية عن طريق العطاء الفني والوجداني الذي يعبر عن الانسان بواسطة الكلمة. فاذا أضفنا الى هذه القضية مجموع القضايا التي أطلقها المستشرقون على الأدب العربي الرسمي والذي تجعل منه أدبا شكليا، يهتم بالتفاصيل ولا يستطيع النظرة الشمولية التي هي الوسيلة الأولى للابداع الحق اكتملت لنا صورة تآمر علمي استمد أسبابه من المواقف التعصبية العرقية والدينية على السواء.

والحقيقة أن كل الحضارات تقوم على هذه العناصر المتباينة التي ترثها عن الحضارات المنهارة التي سبقتها والتي تأتي هي لتحل محلها في قيادة التقدم البشري، ولكن

الحضارات الجديرة بهذا الاسم لا تقوم بالتوفيق بين هذه العناصر، انما هي تقوم بهضم هذه العناصر وتمثلها وافرازها عطاء جديدا متميزا، يضيف اليها عنصر الزمن الجديد الذي هو امتداد لعمر الحضارات القديمة، كما تضيف اليها روح الانسان الجديد الذي تمكن من قهر الحضارات القديمة التي لم تعد البشرية تحتاجها والتي فضلت عليها بحكم عناصر الاختيار الطبيعي هذه الحضارة الجديدة الوافدة. إلا أن الموقف كما نقول موقف تعصبي لبس الثوب العلمي وهو يذكرنا بقول أرنولدتوينبي في كتابه الحضارة في الميزان (ص٢٩ من الترجمة العربية): «منذ قرون طويلة كان أسلافنا يرون في الاسلام خطرا مخيفا يتهددهم قبل أن يسمع الناس بالشيوعية. ففي القرن السادس عشر وهو الزمن القريب منا نسبيا، كان الاسلام يبعث في قلوب الغرب من الهوس ما تبعثه الشيوعية في القرن العشرين، وهذا يرجع في جوهره الى أسباب واحدة. ذلك أن الاسلام كان يعتبر كالشيوعية – حركة مناهضة للغرب وبدعة دينية مخالفة لديانة الغرب في الوقت نفسه. وكان الاسلام يستخدم – كالشيوعية – سلاحا روحيا لا يمكن مقاومته بالأسلحة المادية».

والثانية في هذه النقاط أن الانسان العربي – في زعم غروثيباوم غير قادر على الابداع وعلى هذا فكل ما هو ابداع من تراثه لا بد من إرجاعه الى عناصر أخرى تنتسب الى حضارات اقامتها أجناس أكثر امتيازاً. والواقع أن هذا الاتجاه قد رسب في أذهان المستشرقين وأقاموا دراساتهم وبحوثهم في الشعر والأدب على أساسه. وقد ساعدهم على هذا موقف رجال الدين المنغلق على ذاته والمسطح في نظرته الى الأمور، هذا الموقف الذي طبق المعايير الأخلاقية الصارمة على الفن فاستنكر وأنكر كل ما هو خروج على القواعد المناسبة للمعنى الخلقي الجامد الذي تصوروا أن الدين يفرضه، وهذا الموقف في الحقيقة تسبب في انهيار الحضارة الرومانية بعد دخولها المسيحية وبعد تمكن رجال الدين من فرض سيطرتهم الكهنوتية والكنسية على الفكر والفن، ولعله أيضا تسبب – حين بعدت الشقة الزمنية بظهور الاسلام وفهم روحه الأولى – في تحكم أصحاب العقليات الغبية غير الفاهمة أو القادرة على الخلق في عصور تخلّف الحضارة الاسلامية على السيطرة على الفكر والفن باسم الدين. وهذه العقلية هي التي أجازت كل ما هو مسطح من انتاج فني، وهي نفسها التي رفضت كل ما هو خلاق وابداعي في انتاج الفكر والعقل الاسلامي، فأدت لا إلى تغيير صورة الحضارة الاسلامية وحسب، بل أدت إلى أن أصبح الدين الاسلامي معوقا حضاريا بعد أن كان هو الدافع الحضاري الجديد والخطير الذي خرج به العرب من الجزيرة العربية ليقيموا أعظم حضارة شهدتها القرون الوسطى واستمرت الى مطالع ظهور الحضارة الغربية.

خلق وإعادة خلق:

هذه العقلية هي التي حكم بها المستشرقون على العقل العربي، رغم أن أصحابها ليسوا بالضرورة من العرب، بل ليسوا في الحقيقة ممثلين حقيقيين للعقلية الاسلامية التي امتصت ما سبقها من حضارات بصدر رحب واسع وأضافت اليها البعد الاسلامي الروحي الذي يتحدث عنه توينبي في الفقرة التي نقلناها عنه. وهذه العقلية وسيادتها فترة، وسيادة أحكامها على الفن، سهلت على المستشرقين أن يرجعوا كل اشراق الى غير العرب حتى ليقول نيتمان عن ألف ليلة فيما نقلته عنه الدكتورة سهير القلماوي (ص٧٣): «أن القصص التي يقل فيها السجع والشعر أصلها غير عربي على الأرجح، وإن يكن كثير من القصص الواضح أصله الهندي أو الفارسي قد حشد فيه شعر وسجع». وهكذا يصل الأمر الى حد الاعتماد على الصياغة في تقرير الأحكام عن هذا الكتاب العظيم، رغم أن ليتمان وغيره يعرفون تماما أن الصورة التي وصلتنا من ألف ليلة وليلة مرت بأكثر من صياغة في أكثر من مرحلة زمنية وأنها تمت بشكلها الحالي على الأرجح في القرن الحادي عشر. كما أن الباحثين يذهبون في استنتاجاتهم الى أن هذه الصياغة مصرية.



مقبرة سادة (المقامة الحادية عشرة).



أبو زيد خفير القافلة.

وقد رسبت هذه الأحكام في أذهان الدارسين العرب أنفسهم وأخذوها أخذ المسلمات حتى يخرجها الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه «الأدب المقارن» من عداد القصص العربي تماما فيقول (في ص٢٢٣ من الطبعة الثالثة لهذا الكتاب): «وقصص ألف ليلة وليلة مدينة قطعا في نشأتها الى أصول هندية وفارسية كما قلنا، فهي تدخل في عداد القصص المترجمة في الأصل».

والحقيقة أن ألف ليلة وليلة تعكس عكس كل الأحكام التي قيلت عن العقلية العربية فهي تثبت قدرة هذه العقلية على الابداع الفني

الكامل والرائع، كما تثبت قدرة هذه العقلية على الخلق وعلى اعادة الخلق من جديد. وما قيل من آثار للحضارات الأخرى انما هو دليل على أن الحضارة الاسلامية انما جاءت لتنقل البشرية نقلة جديدة الى أمام، فهي لم تبن من فراغ وانما هي احترمت عقل الانسانية وفكرها وابداعها، فاستغلت كل ما هو صالح من نتاجه لتضيف اليه روحها وفكرها ورسالتها الجديدة الى البشرية. واذا كان العالم ظل منذ ترجمة جالان لألف ليلة وحتى الآن يعيش في أحلام الانسان وأشواقه ومخاوفه من خلال قصصها وخيالها وحبكتها الفنية فهذا دين كبير على هذا العالم الجديد ولهذه الحضارة العربية الحديثة يجب أن يؤديه حبا واحتراما لأصحاب الفضل فيه.

إن وجود الآثار البابلية والفارسية والهندية والأغريقية والمصرية في هذه الموسوعة الفنية الضخمة لا يشكل باعتراف كل الدارسين إلا جزءا واحداً من أجزائها أما الجزء الآخر منها فأدب قصصي جديد كل الجدة يعبر عن مجتمعات اسلامية متأخرة أما عاشت في بغداد وأما عاشت في القاهرة، وقد التفت المستشرقون الى هذا الجزء الأخير ولكنه لم يحظ باهتمامهم أو دراساتهم واكتفوا بأن جنبونا بحوثهم المضنية عن الأصول التي أخذت منهاالحكايات. وتقول الدكتورة سهير القلماوي عن عمل المستشرقين في هذا الجزء (ص٢٧): «يذكر أولسيترب في صدد هذا الجزء الذي لا يجدي في درسه البحث عن مشابهاته في الآداب القديمة أن لين قد ذكر أنه كله مصري، ولكنه يرى، كما قد رأى نولدكه من قبل، أن هذه القصص تحمل ولا شك آثار الاخراج المصري أو التحسينات المصرية، ولكن بغداد موطن الرشيد نواة اجتمعت حولها الأصول لكثير من هذه القصص التي ما زال أثر هذا الأصل واضحا فيها. لذلك يقسم أوليسترب الجزء الباقي الى مجموعتين الأولى بغدادية والثانية مصرية كما فعل نولدكه من قبل وليتمان وغيره من بعده».

هذا موقف غريب ممن أجهدوا أنفسهم في البحث وراء كل شخصية وكل اسم وكل حرف في الجزء التاريخي من الليالي. فشيء من اثنين، أما أن هذا الجزء الواقعي من الليالي يرتبط بتراث الشعب أما المصري أو البغدادي أو الشعب العربي كله، فكان لا بد من البحث الماثل فيه عن مدى ارتباط بموروث هذا الشعب أو هذه الشعوب، وأما أنه خلق قصصي مبدع فكان لا بد من الوقوف عنده وتحليله ودراسة خصائصه والخروج منها بأحكام عن أصول القصة العربية الواقعية وعن ملامحها الفنية، إذ هي بهذا أقدر من القصص الغربية بكثير وأزهى بهذا وبما أحدثته من استهواء عند المتلقين الغربيين عن ظهورها أحد التيارات التي أثرت ولا شك في ابداعهم القصص الواقعي حين بدأوا يحاولون الابداع فيه.

ولكن هذا الاهمال المتعمد لهذا الجزء انما يوضح أن المستهدف من هذه الدراسات لا العلم الخالص وانما الطعم المغرض الذي كان بورتون أوضح منْ عبّر عن أهدافه فيما نقلنا عنه في صدر المقال. وقد لفتت هذه الظاهرة المتجنية عند كل المستشرقين الدكتورة سهير القلماوي لفتا قويا حتى تقول في شبه لوم (في صفحة ٢٦): «وأرى بهذه المناسبة أن ألاحظ شيئا على بحث كثير من المستشرقين في هذا الميدان وهو قولهم أن هذه ظاهرة لا تلائم الطبيعة العربية أو الأمة الاسلامية، فاتهم، ولنأخذ المستشرق لين مثلا، قد أسرفوا في الحكم على الطبيعة العربية والأمة الاسلامية. لأنهم جعلوا أساس حكمهم الفكرة العامة التي أخذوها من كتب الأدب العرب وكتب الدين. وهذا الأساس للحكم غير كافٍ. فالذي لا شك فيه أن نواحي من ألصق ما تكون بهذا الموضوع، موضوع الأدب الشعبي، لم تصدر في كتب الأدب ولا في كتب الدين».

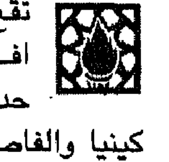
ولسنا نريد في الحقيقة إلا أن نضع هذا الكتاب في مكانه الحقيقي على قمة موروثنا في المكتبة القصصية العربية والعالمية معا، وإلا أن نلفت أنه رغم هذه المكانة الخطيرة فان الدراسات الفنية والنقدية والفولكلورية العربية ما زالت مقصرة في حقه تقصيراً مخجلاً ومخيفاً.

□

ميشال اسطفان

طوابع الصومال

لمختلف أقسامها وأزمانها



تقع الصومال في الجهة الشرقية من افريقيا على البحر الأحمر، تبدأ حدودها بالسودان، ونزولاً إلى حدود كينيا والفاصل بينهما نهر جوبا، وقد كانت هذه البلاد هدفا لمطامع عدة دول اوروبية، فكان لكل من فرنسا وانكلترا وايطاليا نصيب منها قبل ان تحصل على استقلالها.

منطقة اوبوك:

في سنة ١٨٥٧ اشترت فرنسا عن طريق قنصل عدن، ميناء اوبوك مع المنطقة المحيطة بها في الصومال الشمالي.

ثم صدّقت الصفقة بمعاهدة مع زعماء الدناقيل المحليين سنة ١٨٦٢، وثبتت امتلاك المنطقة رسميا، بعدئذ في سنة ١٨٨٣.

وفي أول شباط/فبراير سنة ١٨٩٢ أصدرت السلطات الفرنسية أول مجموعة لمنطقة اوبك، بتوشيع مجموعة من الطوابع الفرنسية العمومية الخاصة بالمستعمرات اصدار سنة ١٨٨١، بكلمة اوبوك «OBOCK»، توشيح يدوي، مؤلفة من ١١ طابعاً من فئة سنتيم واحد إلى فرنك واحد قيمتها اليوم أكثر من ٤٠٠ جنيه استرليني. ثم صدرت خلال ثلاث سنوات ولغاية ١٨٩٤، سبع مجموعات منها خمس للبريد العادي ومجموعتان للاجور المستحقة، منها مجموعة موشحة بفئات مختلفة عن الفئات الاصلية مؤلفة من ١١ طابعا قيمتها اليوم نحو ٤٠٠ جنيه استرليني. وظهر توشيح الفئة مقلوبا على جميع الفئات واصبحت قيمتها نحو ٣٠٠٠ جنيه استرليني، وحدثت أيضاً خمسة أخطاء مختلفة. أخرى قيمتها اليوم نحو ٦٠٠٠ جنيه استرليني. وأما المجموعات الأخرى العادية والمستحقة فقد أصبحت قيمتها ما بين ٥٠ و ٥٠٠ جنيه استرليني..

وفي سنة ١٨٩٤ ألحقت اوبوك بالمنطقة الساحلية التي أطلق عليها اسم ساحل الصومال الفرنسي وقد أصبح محمية فرنسية، مع العلم ان طوابع اوبوك كانت مستعملة هناك منذ سنة ١٨٩٢.

وفي سنة ١٨٩٩ تحول مكتب بريد اوبوك إلى ميناء جيبوتي البلد الرئيسي للساحل الصومالي.

ساحل الصومال الفرنسي:

في سنة ١٨٩٤ أصدرت السلطات الفرنسية أول مجموعة لساحل الصومال الفرنسي، مؤلفة من ثلاثة طوابع موشحة على طوابع اوبوك. وقد ظهر في كل من الطوابع الثلاث أخطاء كثيرة في التوشيح أصبح قيمة كل منها نحو ٣٠ جنيها استرلينيا. ثم تبعتها في السنة ذاتها مجموعة أخرى موشحة على طابعين من طوابع اوبوك قيمتها اليوم نحو ١٠٠٠ جنيه استرليني، وحدث أخطاء في التوشيح أيضاً قيمتها اليوم نحو ٢٠٠٠ جنيه استرليني أو أكثر. ثم تبعتها المجموعات المصورة باحجام مختلفة. ومنها المثلث



انتداب إيطالي
إصدار ١٩٥٨



محمية بريطانية
إصدار ١٩٣٨



[illegible]

△ والمعين ◊ ومجموعة أخرى موشحة بفئات مختلفة صدرت حسب الحاجة وكان مجموع ما صدر٣٦ طابعاً ما عدا الاخطاء المتعددة الغالية الثمن وكان معظمها يحمل اسم جيبوتي.

وفي سنة ١٩٠٢ أصبحت المنطقة مستعمرة فرنسية واصدرت مجموعات شتى جمعت (٢٩٢) طابعاً للبريد العادي و٥٥ للجوي و٥٣ للاجور المستحقة وبطاقة واحدة، أما الاخطاء فكانت محدودة جداً لعدم وجود توشيح يذكر في تلك الاصدارات وكان آخرها سنة ١٩٦٧.

وفي هذه السنة أخذت المنطقة اسما جديداً وهو المنطقة الفرنسية لعفار وعيسى، وهذه اسماء القبائل الأكثر عدداً هناك. ثم باشرت باصدار المجموعات على نمط الطوابع الفرنسية وللمناسبات الفرنسية أيضا، لغاية سنة ١٩٧٧ وكان عددها ١١٦ طابعاً للبريد العادي و٥٦ للجوي و٤ طوابع للاجور المستحقة. ثم استقلت هذه المنطقة وصار اسمها جمهورية جيبوتي وكان ذلك بموجب استفتاء عام.

وفي سنة ١٩٧٧ باشرت اصدار طوابعها بتوشيح طوابع عفار وعيسى الموجودة في البريد وقد جمعت ٧٤ طابعاً للبريد العادي و٣١ للجوي.

بنادير الساحل الجنوبي الذي يسمونه اليوم الصومال، كان معروفاً قديماً باسم «بنادير» الذي يعني الاماكن الصالحة للنزول: ما بين سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٨٩، وقعت ايطاليا معاهدات مع السلاطين المحليين للساحل الشمالي قبلت البلاد بموجبها الحماية الايطالية. وفي سنة ١٨٩٢، أجَّرَ سلطان زنجبار الحاكم الاسمي لبنادير، ايطاليا موانيء برافا ومركا وموغاديشو ويوارشيك لمدة خمسين عاماً.

وكانت ادارة المنظمة في بادىء الأمر لشركة فيلوناردي ومن ثم في سنة ١٨٩٨ لشركة بنادير.

وفي ١٢ تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٠٣ صدرت أول مجموعة لتلك المنطقة مؤلفة من فئة بيزة واحدة و٢ بيزة صورة الفيل الأفريقي، وفئة ١، ٢، ٢ ½، ٥ و١٠ آنات، صورة الأسد الصومالي، قيمتها اليوم نحو ٥٠ جنيها استرلينيا.

وفي ١٣ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٠٥ تخلى سلطان زنجبار عن حقوق ملكية موانيء بنادير إلى ايطاليا بموجب اتفاقية مقابل مبلغ (١٤٤٠٠٠) جنيه استرليني. ثم أخذت ايطاليا على عاتقها حكم المنطقة المباشر في ١٩ آذار/مارس سنة١٩٠٥ وفي ١٦ ايار/مايو سنة ١٩٠٨ وقعت معاهدة مع الحبشة على حدود واسعة داخل المنطقة لتلك المستعمرة الايطالية مقابل مبلغ (١٢٠) جنيه استرليني.

وفي ٢٩ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٠٥ كانت المنطقة تسمى بالصومال الايطالي وصدر

طابعان موشحان ١٥سنتيما والآخر ٤٠ سنتيما على طابع الأسد الصومالي، قيمتها اليوم نحو ١٥٠٠ جنيه استرليني.

ثم لحقت اصدارات كثيرة منها موشحة بفئات تختلف عن الأصلية منها موشحة بالأفرنجي «الصومال الايطالي» ومنها مصورة، عادية وتذكارية واكسبرس وللاجور المستحقة ابتداءً من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٣٦ وقد جمعت ٥٢ مجموعة منها ما ارتفع قيمته إلى نحو ٥٠٠ جنيه استرليني للمجموعة الواحدة، مع العلم ان فيها بعض الأخطاء، يراوح ثمن الطابع المغلوط فيه بين ٥٠ و٧٠٠ جنيه استرليني.

أراضي جوبا:

في ١٥ تموز/يوليو سنة ١٩٢٤ وبموجب اتفاقية انكليزية ايطالية، تخلّت بريطانيا لايطاليا عن قطعة طويلة ضيقة، عرضها ما بين ٥٠ و١٠٠ ميل من أراضي كينيا الموازية لنهر جوبا، إنجازا لمعاهدة لندن السرية لسنة ١٩١٥.

في ٢٩ حزيران/يونيو سنة ١٩٢٥ وشحت ايطاليا مجموعة من الطوابع الايطالية بكلمتي «OLTRE JIUBA» مؤلفة من ١٥ طابعاً، تبعتها مجموعة عادية واحدة، وأخرى للطرود وأخرى للأجور المستحقة وللبريد المستعجل، أربع مجموعات تذكارية جميعها موشحة مثل المجموعة الأولى الآنفة الذكر ولكن باحرف تختلف الواحدة عن الأخرى، ما عدا مجموعة واحدة تذكارية لمناسبة السنة الأولى لاكتساب أراضي جوبا، (صورة خريطة المنطقة المسلوخة من كينيا)، وكان مجموع ما صدر ٦٨ طابعا وطابعين بتوشيح مغلوط، أصبح قيمة الطابع التذكاري المخرم ١٣ ، من فئة ٦٠ سنتيم لمناسبة اليوبيل الملكي، نحواً من ١٧٠٠ جنيه استرليني.

وفي ٣٠ حزيران/يونيو سنة ١٩٢٦ ألحقت أراضي جوبا بالصومال الايطالي.

وفي أول حزيران/يونيو سنة ١٩٣٦، انضم الصومال الايطالي إلى الأرتريا والحبشة ليشكلوا مستعمرة أفريقيا الشرقية الايطالية بموجب مرسوم صدر في ذلك التاريخ. وبعدها اصبحت تعرف رسميا باسم حكومة الصومال.

وما بين سنة ١٩٣٢ و١٩٣٤ كانت ايطاليا قد اصدرت ١٣ مجموعة تذكارية للبريد العادي والجوي والاكسبرس، مجموعها ٨٧ طابعاً خصصت كمجموعات عمومية للمستعمرات الايطالية وإستعملت طبعاً في الصومال الايطالي.

وما بين ١٩٣٨ و١٩٤٢ وبموجب مرسوم ضم الصومال الايطالي إلى الارتريا والحبشة كما ذكرنا لتشكل مستعمرة أفريقية الشرقية الايطالية، أصدرت ايطاليا ١١ مجموعة تذكارية للبريد العادي والجوي والاكسبرس وللاجور المستحقة، مجموعها ٧٦ طابعا. وفي ٢٠ ايار سنة ١٩٤١ استسلمت القوات الايطالية للجيش الانكليزي الأفريقي، لكنها أصدرت بعد ذلك وفي السنة نفسها مجموعة من ٩ طوابع بريدية وجوية لمناسبة حلف المحور تحمل صورة هتلر وموسوليني، ومجموعة أخرى للأجور المستحقة بتاريخ ١٣ آب/اغسطس سنة ١٩٤١ مؤلفة من ١٣ طابعاً ايطاليا للأجور المستحقة موشحة: «A.O.I.» ، لكن هاتين المجموعتين بيعتا في مكتب هواة الطوابع في روما ولم تستعمل في الصومال (أفريقية الشرقية الايطالية)، وقد سبق أن فعلت ايطاليا ذلك من قبل، ففي سنة ١٩٣٩ وشحت طابعا إيطاليا من فئة ١٠ سنتيم بالأفرنجي «الصومال الايطالي» وكذلك سنة ١٩٤٢ ظهرت في الأسواق مجموعة الأجور المستحقة صورة خيال على ظهر الحصان تحمل الأحرف «A.O.I.»، مؤلفة من ١٢ طابعا من فئة ٥ سنتيم إلى ١٠ لير ايطالي، ولكنهما لم يصدرا رسميا ولم يُستعملا في مكان ما.

ذكرنا آنفا ان الجيوش الانكليزية والانكليزية الأفريقية والانكليزية لجنوب أفريقيا، احتلت الصومال الايطالي في سنة ١٩٤١ فوشحت طوابع انكليزية بالاحرف «MEF» وهي الأحرف الأولى من «قوات الشرق الأوسط» ووضعتها في الاستعمال هناك، من سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٥٠، وكانت ٣ مجموعات للبريد العادي ومجموعة للأجور المستحقة، ثم مجموعة خاصة من الطوابع الانكليزية موشحة «E.A.F.» وهي الأحرف الأولى من «قوات أفريقيا الشرقية» ومجموعة سادسة من الطوابع الانكليزية موشحة «BMA/SOMALIA» وهي الأحرف



احتلال بريطاني
إصدار ١٩٤٢



جمهورية الصومال
إصدار ١٩٦٠

B. A.
SOMALIA

احتلال بريطاني إدارة
مدنية إصدار ١٩٥٠

B. M. A.
SOMALIA

احتلال بريطاني إدارة
عسكرية إصدار ١٩٤٨

الأولى من «ادارة عسكرية بريطانية». وأخيراً مجموعة سابعة من الطوابع الانكليزية أيضاً موشحة «BA/SOMALIA» هما الحرفان الأولان من «ادارة بريطانية» وكان مجموع لك ١٧ طابعاً، وقد صدرت مجموعتان بتوشيح اضافي «SPECIMEN» قيمتهما اليوم نحو ٥٠٠ جنيه استرليني.

وفي ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٤٩ وُضعت البلاد تحت وصاية هيئة الأمم، وكلفت ايطاليا الوصاية عليها على ان تهيئها للاستقلال خلال عشر سنوات، فعادت ادارة البريد مجدّداً إلى ايطاليا.

وما بين ١ و٢٤ نيسان/ابريل سنة ١٩٥٠ صدرت أول مجموعة بالعملة الجديدة بالسنتيم الصومالي، تحمل صور مرافق البلاد التاريخية والاقتصادية مؤلفة من ١١ طابعاً، تبعتها ٤٥ مجموعة عادية وجوية وتذكارية وللبريد المستعجل والمستحق والطرود، آخرها بتاريخ ٧ نيسان/ابريل سنة ١٩٦٠ لمناسبة السنة العالمية للاجئين، وبلغ مجموع ذلك ٤٨ طابعاً وبطاقة واحدة لمناسبة الجمعية التشريعية للدستور.

وفي شهر ايار/مايو سنة ١٩٦٠، نظمت الحكومة البريطانية الوحدة فيما بين محمية الصومال البريطانية والمستعمرة الايطالية سابقاً. وفي ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٦٠ استقلت الصومال البريطانية، ثم تم الاتحاد بين المنطقتين باسم جمهورية الصومال في الأول من تموز/يوليو سنة ١٩٦٠.

وفي ٢٦ حزيران/يونيو سنة ١٩٦٠ صدرت مجموعة لمناسبة الاستقلال موشحة بالافرنجي «استقلال الصومال ٢٦ حزيران ١٩٦٠» مؤلفة من طابع للبريد العادي وطابعين للجوي قيمتهما اليوم ٤٠ جنيها استرلينيا.

وفي أول تموز/يوليو سنة ١٩٦٠ صدرت مجموعة من اربعة طوابع تحمل صورة خريطة أفريقيا مع غزال في اعلى الصورة وأخرى علم هيئة الأمم وثالثة علم الصومال والرابعة قصر النواب في روما لمناسبة اعلان الاستقلال، ثم درجت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية اسوة بباقي البلاد، وكان مجموعها لغاية أواسط سنة ١٩٧٩، ٢٩٠ طابعا و٨ بطاقات. □



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم، عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأخ د. عبدالسلام تدمري عرض موجز لرسالة ماجستير قدمها عبدالرحمن أمين صادق عن كتاب «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لتقي الدين المحبّي ومن الأخ فتحي سلطان موجز لرسالته الماجستير «العرب والصين في القرون الوسطى» نأمل أن يزيدا من اهتمام القرّاء ويشجّعا باحثينا على الانتاج العلمي المفيد.

تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف
لتقي الدين عبدالرحمن المحبي المتوفي ٧٨٦هـ./ ١٣٨٤م.

تحقيق: عبدالرحمن أمين صادق

رسالة ماجستير، جامعة الأزهر ١٩٧٩ - باشراف د.عبدالمقصود محمد نصار

عرض وتقديم
د. عمر عبدالسلام تدمري

● في موضوع الرسالة



حفل عصر سلاطين المماليك بنهضة علمية واسعة، نراها في كثرة المصنّفات التي أُلّفت في تلك الفترة، وظهور عدد كبير من العلماء النابهين في فروع متعددة من أنواع العلوم والمعرفة. وما زالت دُور الكتب في جميع أنحاء العالم تحتفظ بأعداد كبيرة من تلك المصنّفات في شكلها المخطوط. وذلك بخلاف الكتب التي فُقدت ولم نعرف عنها سوى أسمائها أو أسماء مؤلّفيها.

ومن انواع العلوم التي عنى بها علماء هذا العصر «علوم الكتابة»، وقد اسهم عدد كبير من العلماء - الذين عملوا بدواوين الإنشاء في فترات تاريخية متوالية - بالتصنيف في هذا النوع من أنواع العلوم، واختلفت مقاصدهم في ذلك، إذ اتجه فريق منهم بتصنيفه إلى ذِكْر النُظُم الخاصة بدواوين الإنشاء والمهام الموكولة إليها. وذِكر قواعد الكتابة وأدواتها من ثقافات وآداب. واتجه فريق آخر بتصنيف كتب تحوي الرسائل التي كُتبت في فترات سابقة، للاقتداء بها، والافادة منها.

وبفضل جهود علماء دولة المماليك البحرية أُضيف إلى علوم الكتابة فرع جديد هو: علم المصطَلح الشريف، وهو أهم الفروع بالنسبة لهذا النوع من أنواع العلوم. والتصنيف في هذا العلم، يتناول بالدراسة، أنواع المكاتبات ورُتَبها، وما يستتبع ذلك من معرفة لمقادير قطع الورق التي تُكتب فيها المكاتبات، وأنواع الأقلام المستعملة في كل قطع منها، والألقاب المناسبة وأنواعها وترتيبها في المكاتبات، وغير ذلك، مع

مراعاة أنواع الكتابة ورُتب المكتوب إليهم.

ولم تكن المصطلحات في ديوان الإنشاء قوالب جامدة، بل كانت تتطور باستمرار، متابعة في ذلك التغييرات السياسية والاجتماعية. ومن هنا كانت مصطلحات الكتابة في أي عصر من العصور، وثيقة تاريخية هامة. نستشف منها مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ذلك العصر، بصورة أوضح مما في كتب التاريخ. إذ يمكن أن نستنتج منها مستويات العلاقات الدولية، ومدى قوة الدولة أو ضعفها خارجيا وداخليا. كما تقدم لنا صورة للطبقات التي يتكوّن منها المجتمع، ومراكزها الاجتماعية، والمهام الموكولة إلى كل طبقة منها.

ومن ابرز الكتب التي وضعت بصماتها الواضحة في علم المصطلح الشريف في عصر دولة المماليك كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمي، المتوفي سنة ٧٤٩هـ./١٣٤٨م.، ثم كتاب «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف» لتقي الدين المحبّي المتوفي ٧٨٦هـ./١٣٨٤م. وهو موضوع هذه الرسالة، والذي أصبح من المصادر الأساسية التي اعتمد عليها «القلقشندي» المتوفي سنة ٨٢١هـ./١٤١٨م. في الجزء الخاص بالمكاتبات من موسوعته «صُبح الأعشى في صناعة الإنشا ».

ولقد عمل المحبّي مدة ثلاثين عاما بديوان الإنشاء بالديار المصرية، اكتسب خلالها خبرات مكّنته من تصنيف كتابه «التثقيف» واستوعب فيه المصطلحات الكتابية السائدة في الثلث الأخير من دولة المماليك البحرية، أي من أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى عصر السلطان الأشرف شعبان بن حسين.

وأنواع المكاتبات الواردة في التثقيف، إما رسائل صادرة عن سلاطين مصر إلى حكام الدول الأجنبية ونوابهم ووزرائهم، وغيرهم ممن لهم أهمية خاصة للمكاتبة إليهم، أو إلى أرباب الوظائف العسكرية أو الديوانية أو الدينية وغيرهم في داخل البلاد المماليكية، وإما مكاتبات خاصة بالتعيينات (التقاليد والمراسيم والتواقيع) لأرباب الوظائف في الدولة، وإما مكاتبات خاصة بالمنح والإقطاعات (المنشورات)، وغير ذلك من نسخ العهود والأَيْمان والأمانات والهدن والمواصفات والمفاسخات، ثم أخيراً صيغ المكاتبات المتبادلة بين الأصدقاء. كما استوعب المحبّي في المكاتبات الخارجية، جميع أسماء القانات والملوك والحكام والأكابر وغيرهم، ممن كُتب إليهم عن سلاطين المماليك في هذه الفترة، ومن هو في مظنّة أن يُكتب له. فيعطينا بذلك فكرة واضحة عن العلاقات الخارجية في النصف الأخير من عصر دولة الممالك البحرية.

و«التثقيف» كتاب وثائقي، يضع النقط على الحروف لفترة تاريخية هامة من التاريخ الاسلامي، كما انه صورة مجسّمة للمظاهر الحضارية السائدة، في عصر المماليك البحرية، التي تظهر بوضوح من خلال العديد من المكاتبات المتنوعة الواردة فيه.

● في التحقيق والمنهج:

إلتزم المحقق «عبدالرحمن أمين صادق» مناهج التحقيق العلمية في تحقيق النص، وعمل على تقديمه سالما من الخطأ قدر إمكانه، وقام بترتيب فقراته، وترجم ما ورد به من أعلام الأشخاص، وتأكد من صحة الأماكن الواردة فيه، كما قام بتوضيح الألفاظ الاصطلاحية سواء ما يتعلق منها في داخل الدولة أو خارجها.

وقدّم على النص دراسة عن حياة المحبّي مؤلّف الكتاب، ثم عن عصره العلمي والعلاقات الخارجية في عصره من خلال كتابه. ثم اتبع ذلك بدراسة لكتاب التثقيف موضحا أهمّيته بين كتب المصطلح. ثم ختم ذلك بفصل خاص عن الرتب والألقاب السائدة في عصر المحبّي. وجاء ذلك في نيِّف ومائة صفحة فولسكاب، من أصل (٣٥٥) صفحة هي مجموع حجم الرسالة – الدراسة، مع الخاتمة والفهرس والمصادر. وافتقرت الرسالة إلى فهرس للأعلام والبلدان والأماكن الواردة في التحقيق. غير أن هذا لا ينقص من قيمة البحث العلمي والجهد المبذول في التحقيق والذي اعتمد على مصادر كثيرة بين مخطوطة ومطبوعة، وقد بدا اجتهاد الباحث السيد «عبدالرحمن صادق» في استخدام المصادر الأصلية لكل اتجاهات الكتاب التي امتدت مكاتباته شرقا وغربا وشمالاً

وجنوباً، وغطّت فترة زمنية ليست بالقصيرة. ويظهر الجهد الواضح في الهوامش المحققة والتعليقات التي تناولت التعريف بالأعلام والأماكن والمصطلحات.

● في تقسيم البحث:

قسم السيد «صادق» بحثه إلى قسمين وخاتمة. خصّص القسم الأول منه للدراسة المتعلّقة بالبحث، والقسم الثاني لتحقيق نص الكتاب.

أما القسم الأول الخاص بالدراسة، فقد اشتمل على بابين:

الباب الأول: حياة تقي الدين المحبي وعصره.

الباب الثاني: دراسة كتاب تثقيف التعريف للمحبي.

وجاء كل باب من البابين في فصلين.

(أ) الفصل الأول من الباب الأول: حياة تقي الدين المحبي، مولده ونشأته، ونبذة عن حياة والده، وثقافته، وشيوخه، وأهم العلماء الذين أثّروا فيه من كُتّاب الإنشاء، والوظائف التي تولّاها. ووفاته.

(ب) الفصل الثاني، يتناول الحركة العلمية والعلاقات الخارجية في عصر المحبي من خلال كتابه التثقيف.

(ج) في الفصل الأول من الباب الثاني: تناول الباحث تطور ديوان الإنشاء وظهور كتب المصطلح وأهمية كتاب «التثقيف» بين كتب المصطلح، مع مقارنة بينه وبين كتاب «التعريف» لابن فضل الله العمري المتقدم عليه - وكذا بينه وبين كتاب «صبح الأعشى» اللاحق به للقلقشندي. وتحدّث عن محتويات الكتاب موضحاً أقسامه وأبوابه وفصوله في إيجاز.

(د) الفصل الثاني من الباب الثاني: تناول التعريف بالرتب والألقاب مبيّناً أهميتها في كتب المصطلحات، مع توضيح مقادير قطع الورق وأنواع الأقلام، والألقاب وأنواعها وأساليب ترتيبها وتنظيمها.

أما القسم الثاني من الرسالة فهو خاص بالتحقيق، حيث قدّم المحقق ذكر نُسخ الكتاب وأماكنها، ووصف النسخ التي اعتمد عليها، ثم أورد النص محققاً وهو العمدة في البحث والدراسة التي نال عليها السيد «عبدالرحمن أمين صادق» درجة الأمتياز في الماجستير.

□

العرب والصين في القرون الوسطى

(دراسة سياسية حضارية)

١-٧٦٩هـ / ٦٢٢-١٣٦٨م

فتحي سلطان

رسالة ماجستير - جامعة الموصل ١٩٨٠ - اشراف الدكتور عبدالمنعم رشاد محمد

نالت العلاقات العربية الصينية السياسية والتجارية عناية كبيرة وشغلت بعضاً من الباحثين، وترجع العلاقات العربية الصينية إلى فترة قديمة، قد ترجع إلى ما قبل الميلاد، لكن الاشارات لا تسعفنا حول هذا الموضوع إذ تشير أول اشارة مدونة لهذه العلاقات إلى سنة ٤١٤م، حيث الكثير من التجار السبائيين (Sa-Bo) في سيلان التي كانت تشكل احدى المراكز التجارية بين بلاد العرب وبلاد الصين. وقد تطورت العلاقات بين بلاد الصين وبلاد

العرب قبل الاسلام حيث انتشرت المراكز التجارية العربية كالابلة ودارين ومسقط وغيرها من الموانىء العربية، حتى لقد سميت الابلة بفرج الهند.

وعندما قام المسلمون بنشر الاسلام في البلاد المجاورة، كانت الصين هي الحدود الشرقية لهذا الانتشار، إذ وصلت إليها جيوش المسلمين بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي، وجرى تبادل الوفود بين المسلمين والصين، إذ تم عقد صلح بين الطرفين، وقد لزمت الصين بعد هذه الاتفاقية جانب السلم تجاه المسلمين، إذ أنها لم تستجب لنداءات وجهت إليها من قبل حكام سمرقند الاتراك لنجدتهم ضد المسلمين، ثم تتطور هذه العلاقات بين المسلمين وبلاد الصين إلى علاقات حربية في الفترة العباسية، حيث جرت موقعة تلاس سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م، ودحر فيها الجيش الصيني، بعدها تحسنت العلاقات إلى علاقات صداقة وحسن جوار، عندما طلب امبراطور الصين النجدة من السكان المسلمين في مقاطعات التركستان من أجل اعادته إلى العرش.

تضمنت الرسالة خمسة فصول تناول الفصل الأول منها جغرافية الصين، فتضمن موقع بلاد الصين ومساحتها، مع التكلم على المناخ والتضاريس والموارد المائية والسكان والزراعة، بالاضافة إلى تناول الاقاليم الادارية وأهم المدن، وتأتي اهمية هذا الفصل لتوضيح الصورة للقارىء في التعرف على بلاد الصين، وفهم الاحداث السياسية والاقتصادية التي سيتناولها البحث، كما يبين هذا الفصل أيضا مدى مساهمة الجغرافيين العرب في امدادنا بالمعلومات عن حياة شعب الصين السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما الفصل الثاني فقد شمل الكيان السياسي وتناول الامبراطوريات التي حكمت بلاد الصين ابتداء بامبراطورية التانغ وانتهاء بطرد المغول من الصين مع اهم التكلم على اهم الأوضاع الداخلية.

أما الفصل الثالث فقد تناول الأوضاع الادارية في بلاد الصين، وتم تقسيم الفصل إلى فقرات عديدة منها البلاط وما يشمله كمركز للادارة الصينية، والادارة، والجيش، والدولة والحياة الاقتصادية، والرعاية الاجتماعية، والمدن، واهتمام الدولة بطرق المواصلات، فالنظام المالي.

اما الفصل الرابع فتناول العلاقات التجارية مشيرا إلى الطرق المؤدية إلى الصين مع العناية بالطرق التي تربطها بالبلاد الاسلامية البرية منها والبحرية، مرورا بالمراكز التجارية، ثم تناول أهم السلع المتبادلة بين البلاد الاسلامية وبلاد الصين، ثم دراسة للنشاط التجاري ومعوقات التجارة، ثم الضرائب التي كانت تفرض على السلع التجارية.

وتناول الفصل الخامس المسلمين في الصين ابتداء بالعلاقات السياسية العربية الصينية، ثم انتشار الاسلام في الصين فالحرية الدينية للمسلمين، ثم دراسة لأوضاع المسلمين في الصين ويبين هذا الفصل أهمية المسلمين في الصين، وتأثيرهم في مجرى بعض احداثها السياسية إضافة للاحداث الاقتصادية، حيث لعب المسلمون دورا مهما في تعزيز اقتصاد الصين. ◻



■ أما ان يقضي الانسان على الحرب، أو تقضي الحرب على الانسان نهائيا...»

كريشنا مينون

■ عندما تتم الوحدة العربية يصبح للعرب قوة دولية تكفل حل قضايا العالم العربي، وفي مقدمتها قضية فلسطين.

«توينبي»

مظاهر النجدة والحميّة

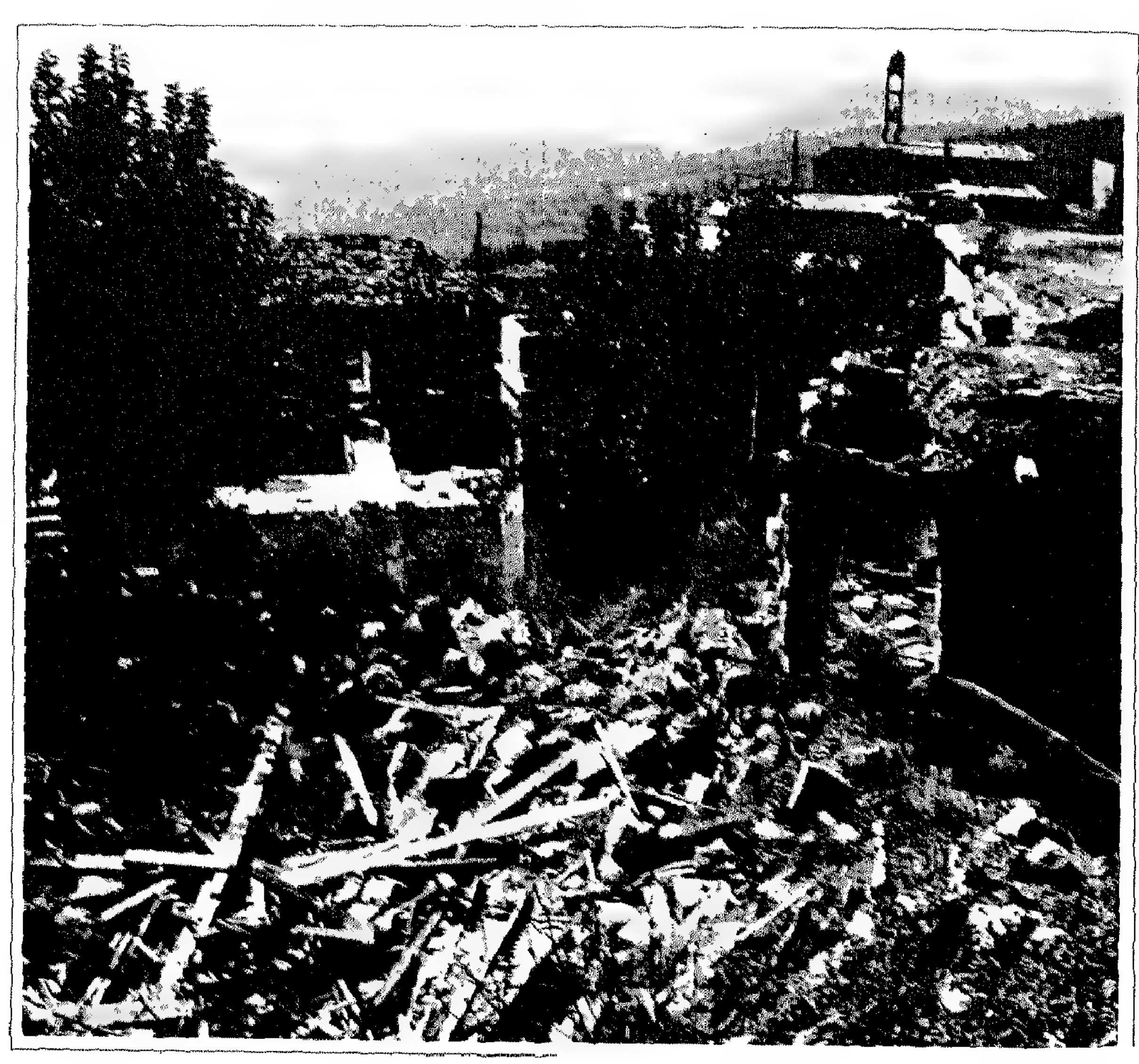
في تاريخ جبل عامل

علي الزين

إن توالي الحروب والوقائع الدامية بين العامليين وبين جيرانهم من مشايخ فلسطين وأمراء وادي التيم ولبنان أضرم في نفوسهم شعلة النجدة والحمية، وباتوا حذرين متحفزين لدفع كل ملمة حتى بلغ من شدة حذرهم في زمن الشيخ عباس المحمّد في أواسط القرن الثامن عشر، أن رجلاً منهم كان قائماً على مزرعة يحرسها من الوحوش، أطلق عياراً نارياً، فظن أهل القرى المجاورة أنه أطلقه مستغيثاً أو مخبراً بدخول العدو، فأجابوه بإطلاق الرصاص طلباً للنجدة وتبعهم في ذلك أهل القرى المجاورة حتى امتد الصوت – على ما قيل – من جباع الحلاوي في سفح جبل لبنان إلى قرية البصّة على حدود عكا، وما انجلى عمود الصبح حتى كانت الألوف من الرجال ترد وتحتشد والفرسان مهيئة للطعان[1]. ويؤكد هذا القول ما يرويه الريكيني – وهو من المعاصرين للحوادث – بقوله: «وفي ليلة هذا الاثنين، أعني ليلة العيد على ما شهدوا به: أنه أول شوّال قوصوا المدافع في مدينة صور في وقت العشاء بعد الغروب بساعتين، فظن الناس من القرى أنها كبست صور، فركبت الخيل والزلم. فظهر أن سبب ذلك أنها ما تحققت الشهادة (برؤية الهلال) إلا بعد العشاء فقوّصوا المدافع في غير وقت رؤية الهلال ولهذا ظن الناس أنها كبسة (أي غارة مفاجئة).

– واقعة جزّين سنة ٦١٣هـ –

ومن الحوادث التي توضح وتؤكد مظاهر النجدة والحمية في سجايا أبناء جبل عامل، ما يرويه البطريرك اسطفان الدويهي نقلاً عن الحريري إذ يقول: «وفي سنة ٦١٣هـ أقبل الفرنج بفارسهم وراجلهم من البحار وخرجوا الى عين جالوت ليأخذوا القدس، فخاف الملك العادل وعجز وتأخر وتهيأ أهل دمشق للحصار وتحصنوا واختبط الناس، وبعث الملك العادل يستحث عساكر البلد وتأخر الى مرج الصفر. وضجّ الخلق إلى الله. ثم تأخر الفرنج الى ناحية عكا بعد أن حاصروا الطور أياماً ثم أمر العادل بتخريب الطور، وسارت خمسماية من الفرنج ليأخذوا جزّين، وما حولها من القرى (– وهي يومئذ من أكبر المراكز العلمية والسياسية لشيعة جبل عامل –) ونزلوا إلى مرج العواميد وهو وادي تحت جزين فأخلاها أهلها، ثم تجمعت المسلمين من تلك البلده فكبسوا الفرنج وقتلوا أكثرهم وأسروا مقدمهم وفرقوهم وأبادوهم عن آخرهم. فلما بلغ ذلك صاحب عكا غضب وشن الغارات على جزين وما حولها فسار إليهم الملك المعظم عيسى بعساكر دمشق فتأخر الفرنج إلى عكا»[2].



من قرى جنوب لبنان... اليوم

- نوازع الحمية والأنفة -

ومن نوازع الحمية والأنفة عند العامليين ما يرويه الرحالة ابن جبير بقوله: «ان راحتنا مدة إقامتنا في صور كانت بمسجد بقي بأيدي المسلمين ولهم فيها مساجد أخر. فأعلمنا به أحد أشياخ صور من المسلمين، إنها أخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمس مئة هجرية بعد محاصرة طويلة، وبعد استيلاء المسغبة عليهم، ذكر لنا أنهم إنتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وأنهم حملتهم الأنفة على أن همّوا بركوب خطة عصمهم الله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبنائهم في المسجد الجامع ويحملون السيف عليهم غيرة من تملك الأعداء لهم، ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه؛ فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام، فكان ذلك وتفرقوا في بلاد المسلمين، ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب لهم بشروط اشترطوها(٣)».

ومنها واقعة عيناتا سنة ١٠٢٣ هجرية

إن الأمراء المعنيين لما اطمأنوا إلى مستقبلهم في الحكم أخذوا يفكرون في أساليب الانتقام ويهيئون الوسائل الجهنمية للتنكيل بالعامليين وشنّ الغارات على مراكز الحكم والقوة في

بلادهم، كما يستشف من قول الصفدي «وفي هذه الشتوية - شتوية سنة ١٠٢٣ هجرية - كان طويل حسين بلو كباشي سرداد قلعة الشقيف أرسل ناساً من السكمان ومن خدمه الذين يخدمونه لينهبوا من بلاد صيدا قرايا وينهبوا العرب المعتادين بالنزول في الحولة فيبيعوا نصف المكسب ويصرف في علف الطائفة السكمانية[٤] والنصف الآخر يتقاسمونه بينهم، فعند ذلك جعل للطائفة التي في قلعة بانياس الغيرة وقالوا لسردارهم حسين اليازجي أرسلنا نحن أيضاً إلى مكان يحصل لنا منه فائدة فعين من عنده ثلاثماية من الرجال وأرسلهم إلى طويل حسين بلوكباشي بقلعة الشقيف، فعين الطويل من عنده نحو مايتي رجل، فتوجه الجميع وكبسوا قرية عيناتا من بلاد بشارة وكان قد جاءهم النذير فجمعوا اليهم ناقلي العدد من القرايا القريبة منهم ووقع بينهم القتال، فقتل علي قول أوغلي سردار السكمانية فأنكسروا وعادوا إلى مواضعهم فتبعهم أولاد شكر وجماعتهم إلى قرية عين الدقيقة من الحولة، وفقد منهم عشرون رجلاً وجرح منهم مجاريح، فعند ذلك عملت الطائفة التي في القلاع الميدان[٥] على البلوكباشية إلى حزين الواقعة وعدتهم ستة أنفس على وجه السرعة وطووا بيارقهم وأعادوهم إلى حزب النفر[٦].

* * *

ولدى التفكير برواية الصفدي - وهو كما يتضح من مقدمة كتابه لم يؤلف تاريخه هذا إلا تقرباً من الأمير فخر الدين وانقياداً لحكمه ومشيئته مما يفرض عليه أن يكيف الحوادث وأسبابها ومسبباتها بالصور التي ترضي الأمير ولا تمس كبرياء المعنيين أو تفضح دخائل سياستهم العارمة. ومع هذا يبدو لنا من خلال الرواية أن هذه الغارة التي شنّها قادة المعنيين على آل شكر لم تكن وليدة الصدف أو من وحي الطمع بالنهب والسلب، وإنما كانت عن سابق تصميم ونتيجة مخابرات طويلة بين القادة، وبعد تفكير دقيق في وضع الخطط الجهنمية للغدر والفتك وإلاّ فمحاولة النهب وحدها لا تقتضي المعنيين أن ينظموا قوتهم ويوحدوا قيادتهم ويحشدوا مثل هذا العدد الكافي للإيقاع بجيش كبير منظم، كما قد أوقع علي الظاهر إبن الشيخ ظاهر العمر بجيش عثمان باشا الصادق وشتته واستولى على أسلحته وذخائره بمثل هذا العدد وبمثل هذه المباغتة التي حاولها رجال المعنيين يوم باغتوا الشكريين في قرية عيناتا على بعد المسافة بينها وبين قلعة الشقيف وقلعة بانياس، ومع وجود قرى أقرب وأخصب وأيسر تناولاً للنهب والسلب منها؟.

وابتداء المعنيين بآل شكر دون غيرهم من قادة العامليين بهذه الغارة الكبيرة وهذه المباغتة المنظمة للفتك والتنكيل والانتقام.. يشعرنا بما كان للشاكريين يومئذٍ من مزيد السطوة والنفوذ في عاملة، فلو لم يكونوا إذ ذاك نقطة الدائرة في سياسة البلاد أو أنهم هم القوة التي يخشى بأسها لما كانوا أول من يسعى المعنيون - الى كسر شوكتهم وتشتيت كلمتهم - بهذه الحملة المدمرة وهذا الأسلوب الغادر الذي يشف عن مدى الحقد والنقمة عليهم وعلى ساستهم ومدبريهم. كما يشعرنا بما كان ينطوي عليه آل شكر ورجالهم من شدة الحذر والنجدة والحمية في الملمات.

ومن الحوادث الدالة على مدى النجدة والحمية عند العامليين:

* * *

- واقعة تربيخا والدولاب -

يقول الركيني وهو من المعاصرين للحادثة: «وفي سنة ١١٨٠هـ في يوم الاثنين ثامن جماد الأول كبس ظاهر العمر قرية تربيخا وصار بينه وبين الشيخ ناصيف (النصار) وقعة عظيمة انكسر فيها الشيخ ظاهر كسرة عظيمة وقتل من عسكره مائة وخمسون رجلاً وأخذ من عسكره أيضاً مائة قليعة (أي مائة فرس قتل فارسها وبقيت معدة بسروجها للركوب) وقتل عشرون رجلاً من عسكر الشيخ ناصيف»

«لاحظ ص٦٢٨ من العرفان م٢٧.. ثم لاحظ بعد ذلك ص٢١ من العرفان م٥» حيث يروي عن مخطوطة الشيخ علي سبيتي ما نصه: «وسنة ألف ومائة وثمانين كانت وقعة تربيخا مع ظاهر العمر وانكسر ظاهر وقتل منه مائة قتيل ونهبت منه خيل ومن الجملة فرسه البرصاء».

«ثم لاحظ ص١١٢ – ٢٢٤ من مخطوطة خنجر بك الصعبي حفيد الشيخ علي الفارس ما يقوله الشيخ ابراهيم الحاريصي في مدح علي الفارس ورجاله من العامليين وفي تمجيد مواقفهم الباسلة في معركة تربيخا والدولاب مع الوصف الاجمالي لأهوالها.

له يوم تربيخا على الخصم غارة … تكاد بها شم الجبال تفطّرُ
أحاط بها الأقوام من كل جانب … وللحقد أبدوا والضغائن أظهروا
وداروا بها شرقاً وغرباً وأقبلوا … بعسكر بغي لا يباديه عسكر
فلما دنا أن يأخذوها ولم يكن … لسكانها شيء سوى الله ينصر
أتاهم علي في كماة أعدها … ليوم الوغى كل على الموت يجسر
سباع إلى كسب المعالي تسابقوا … محجلة أيامهم ليس تُنْكرُ
فمذ أبصر الأعدا بريق صفاحهم … تولوا على أعقابهم ثم أدبروا
وعافوا هناك الخيل والبيض والقنا … ولم يطلبوا إلّا النجاة فقصروا
وحاق بهم سوء العذاب فأصبحوا … على الأرض صرعى منهم الدم يقطرُ
هم جردوا سيفاً من البغي قاطعاً … فلم يُنْجهم منه دلاص ومغفر
سل الوعر عنهم كيف سالت دماءهم … عليه وفي أكنافه كيف بعثروا
وكيف انثنوا والسيف يغري رقابهم … وكيف عرتهم دهشة فتحيروا
فيا لك يوماً ظلت الخيل طوله … صياماً تلوك اللجم والسيف مفطر
بدولابَ غادرْت الكماة على الثرى … ومنهم جريح هاربٌ ومعفّرُ
وأيتمت أطفالاً وأيمت نسوة … هناك ولولا الوعر لم ينج مخبرُ
وإبْتَ بحمد الله للحي سالماً … تقود المذاكي هكذا كان عنتر

* * *

هذا ما يرويه لنا التاريخ عن ماضي الآباء والأجداد. فما عسى ان يرويه لمن بعدنا عن واقع الأبناء والأحفاد اليوم وقد غزاهم العدو الصهيوني في عقر دارهم وأباحها بمن فيها للقتل والنهب والتدمير، وهم لا يزالون منقسمين على أنفسهم يكفّر بعضهم بعضاً ليستحلّ قتله وسفك دمه بحجج لا تمت إلى منطق الدين والانسانية في شيء.

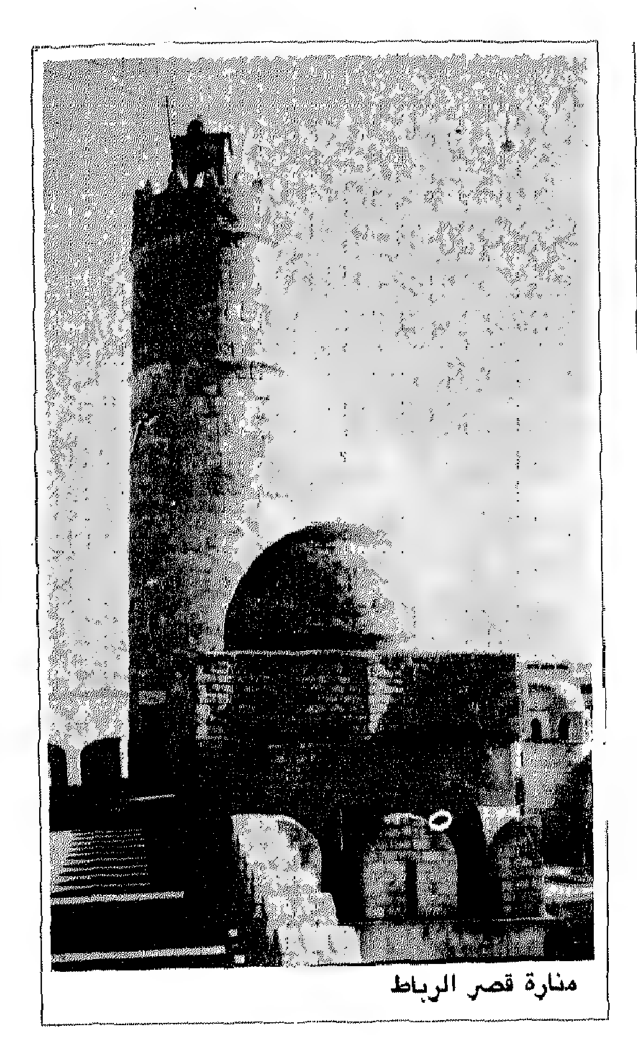
□

الهوامش

(١) «لاحظ ص٢٨٧ من مجلة العرفان مجلد٢ رواية الشيخ أحمد رضا.
(٢) (لاحظ ص١٠٤ من تاريخ الازمنة للبطريرك اسطفان الدويهي طبع اليسوعية سنة ١٩٥٠).
(٣) لاحظ رحلة ابن جبير ص٢٧٩ طبع بيروت سنة ١٩٦٤.
(٤) لاحظ ص٣٩-٤٠ من تاريخ الامير فخر الدين المعني للصفدي، ثم لاحظ ان المراد بالعلوفة هنا المعاش وبالطائفة: الجماعة؟ والسكمانية - بفتح السين - الجند الماجور.
(٥) والمراد بقوله (عملوا الميدان) عملوا المؤتمر أو عملوا الاجتماع للنظر في أمر هؤلاء القادة المنهزمين.
(٦) ومن قوله «وطووا بيارقهم وأعادوهم إلى حزب النفر». طووا رتبهم العسكرية، وأعادوا كلّاً منهم إلى مستوى النفر، لأن البيارق والطبول كانت من شعارات الرتب العسكرية يومئذٍ.

سُوسَة

جَوْهَرةُ الساحل في تونس يرجع تاريخ المدينة إلى الألف الثانية قبل الميلاد. وتعتبر سوسة من أكبر مراكز السياحة في تونس العصرية. وتبعد سوسة حوالى ١٤٥كلم عن العاصمة تونس. يبلغ تعدادها حوالى ٧٠ ألف نسمة، حسب الاحصاءات الأخيرة. مشارف سوسة منازل بيضاء صغيرة يحيط بها سوق قديم ضخم وفي وسطها قلعة أثرية ضخمة هي قصر الرباط المشهور الذي بناه الأمير الأغلبي زيادة الله الأول عام ٢٠٠هـ. ومن وسط قصر الرباط ترتفع المنارة الضخمة التي تعتبر من اقدم المنارات في العالم الإسلامي. تتميز مدينة سوسة بوجود مجموعة كبيرة من المباني الأثرية التي لا يوجد مثلها في المدن التونسية الأخرى والسبب في ذلك يرجع إلى تاريخ هذه المدينة القديم الذي يعود إلى القرن التاسع ق.م حين نزل الفينيقيون والكنعانيون Punics إلى أرض تونس حيث أسسوا مراكزهم التجارية على السواحل وكانت سوسة من أول المراكز التجارية التي اسسها هؤلاء الفينيقيون أو البونيقيون وأسموها هدروماتوم Hydrumetum أو كما يقول بعض المؤرخون «حضرموت» وأزدهرت المدينة اثناء الحرب البونيقية الثانية عام ٢٠٣ق.م حينما جعل منها القائد القرطاجي الشهير هنيبعل Hynnibyl مقر أركان حربه الذي زحف إلى مدينة «جامة» حيث دارت معركة رهيبة بينه وبين قوات الرومان دارت فيها الدائرة على هنيبعل فأنسحب مرة أخرى إلى (سوسة) ولكن قرطاجنة فضلت الصلح. وهرب هنيبعل إلى المشرق وعندما قامت الحرب البونيقية الثالثة



منارة قصر الرباط

استولى الرومان على سوسة واعترفوا لها بالاستقلال الذاتي ولقبوها بالمدينة الحرة. وازدهرت المدينة في عهد يوليوس قيصر واستمر حكم الرومان لهذه المنطقة حتى جاء الفاندال واحتلوها في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي واستمر احتلالهم لها ما يقرب من ٩٥ عاما من (٤٣٩م إلى ٥٣٤م).

وفي عام ٥٣٤م احتل البيزنطيون سوسة ورحب أهل البلاد بالجيوش البيزنطية وقام الأهالي بتغيير اسم بلدهم من «حضرموت» إلى «جوستنيابوليس» نسبة إلى الأمبراطور جوستنيان كتعبير عن شعورهم بالامتنان له لتحرير بلدهم من حكم الفاندال.

وفي عام ٦٤٧م دارت معركة بين قوات الامبراطور قسطنطين والقوات العربية بقيادة

عبدالله بن الزبير في مدينة سوسة. واستطاعت الجيوش العربية الحاق الهزيمة بقوات قسطنطين ولكن عبدالله بن الزبير عاد إلى مقر الجيش العربي في ذلك الوقت بمدينة «جلولة» وترك سوسة ليدخلها عقبة بن نافع الذي جعل عليها حامية عربية. وبدأت سوسة تتقلب تحت عهود مختلفة من الحكام العرب. فأتى الأغالبة الذين أعادوا بناء سور المدينة والجامع الكبير وقصر الرباط وانطلقت قوات الأغالبة من ميناء سوسة بقيادة اسد بن الفرات إلى صقلية حيث فتحوها واصبحت سوسة في عهدهم قلعة من قلاع الجهاد ونشر المذهب السني الاسلامي وزالت دولة الأغالبة في نهاية القرن الثالث الهجري وحل محلهم الفاطميون تلاهم بنو زيري وأشهر من له فضل على سوسة منهم هو «المعز ابن باديس». ودام حكم بني زيري من عام ٣٦٢هـ. إلى ٥٥٥هـ. وتلاهم الموحدون ثم الحفصيون وفي عام ١٥٣٥م فتح الاسبان سوسة ولكن أهلها قاوموهم بشدة ووضعوا انفسهم تحت حماية درغوث باشا الذي اشتهر بأنه بحار تركي شديد المراس وله اسطول اقض مضاجع اوروبا به. ووقعت سوسة تحت حكم الاتراك الذي استمر من عام ١٥٧٤ حتى عام ١٨٨١م وسادته الفتن والثورات والدسائس وادى ذلك إلى زوال حكمهم واستيلاء فرنسا على تونس كلها واستمر الاستعمار الفرنسي لتونس حتى قام الشعب بثورته وحصل على استقلاله عام ١٩٥٥.

تنقسم سوسة إلى قسمين رئيسيين:

١ - الحي القديم ويحيط به السور ويقع في وسطه الرباط المشهور وبه الآثار العربية والرومانية القديمة.

٢ - الحي الحديث يمتد ٥ كلم على شاطىء البحر ويتميز بفنادقه، يوجد فيها ١٥ فندقا لكل فندق شاطئه الخاص وحمام سباحة وملاعب وملهى ليلي وحديقة جميلة.

ان سوسة اسم اطلقه العرب على المدينة أما اصله التاريخي فهو غير معروف وان كان البعض ينسبونه إلى وجود أشجار السوس في ذلك الوقت بهذه المنطقة، ولكن المؤرخين ينفون هذا تماما. ويبلغ عدد سكانها ٧٠ ألف نسمة.

وكانت «سوسة» قبل الحرب العالمية الثانية ثاني مدينة في تونس كلها بلا منازع فهي ميناء هام يتم تصدير الفوسفات منه. تم انشاء أول فندق سياحي بالمدينة عام ١٩٦٣ وأطلق عليه اسم (نزل بوجعفر) وهو عالم من علماء السنة مدفون بجوار الفندق.

وتم انشاء مطار في مدينة «المنستير» التي تقع على بعد حوالى ٢٠كلم من سوسة. وبلغ عدد السواح في السنة حوالي ٨٠ ألف سائح في مدينة سوسة وحدها.

وفي عام ١٩٦٦ تم انشاء مدرسة السياحة والفنادق في «سوسة» بالتعاون مع خبراء البلاستيك. سويسريين، ويوجد في المدينة:

١ - مصنع للبلاستيك ٢ - مصنع للآلات الميكانيكية ومصنع لتجميع السيارات عدا مصانع النسيج الآلي، التي تنتشر في القرى المحيطة «بسوسة» وأهمها «قصر هلال».

جرجيس اشكراني الموصل-العراق □

الجامع النوري الكبير ومنارته الحدباء

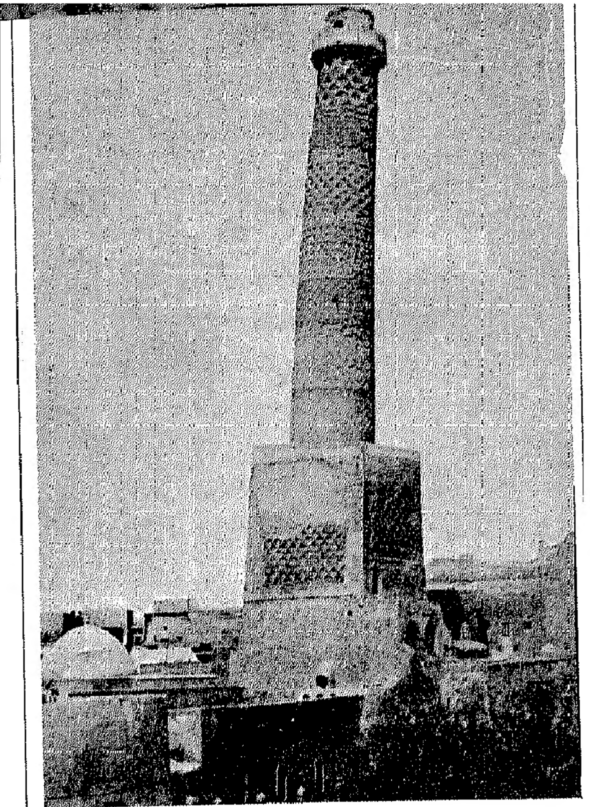
تعتبر مدينة الموصل من أعظم مدن العراق وأشهرها، تمتاز بموقعها على جانبي نهر دجلة. وفصل الخريف فيها يشبه فصل الربيع لذلك سميت بأم الربيعين.

من أشهر المعالم الموجودة فيها الجامع النوري الكبير الذي يمتاز بمنارته الحدباء التي أطلق اسمها على المدينة أيضاً يقع الجامع في وسط المدينة القديمة في المحلة المسماة باسمه. بناه نورالدين آل زنكي في الفترة بين (٥٦٦ - ٥٦٨هـ) وقد أهمل أمر الجامع في الفترات اللاحقة ثم تصدعت معظم أجزائه بفعل الاضطرابات التي عمت المدينة بعد سقوطها بيد

المغول. وقد جرت محاولات لترميمه في السنوات (٨٧١هـ، ١١٥١هـ، ١٢٨٦هـ) وبعدها جددت مديرية الأوقاف العراقية مصلاه وأعادت إليه أعمدته الأصلية إلا أن هذا التجديد ذهب بالقبة التي ترجع إلى عهد البناء الأول.

وعلى الرغم من مرور الجامع بأدوار معمارية متعددة ذهبت معظم معالمه الأصلية، إلا أنه لا زال يحتفظ بعناصر فنية ومعمارية ذات قيمة أثرية كبيرة بعضها يرجع إلى عهد البناء الأول والبعض الآخر يرجع إلى فترات سابقة وأخرى لاحقة فيها أعمدة مزدوجة ومضلعة ذات تيجان مشغولة وعدة محاريب مجوفة مزخرفة بزخارف التوريق العربية وبالكتابات المنفذة على مهاد زخرفي.

ولعل أبرز ما يميز الجامع من بين عناصر معمارية هي منارته المزخرفة بأفاريز من الزخارف الأجرية، علاوة على ارتفاعها الشاهق الذي يبلغ ٥٠ متراً وضخامتها وميلانها نحو الشرق واحتوائها على سلمين. هذا ويزين المتحف العراقي ببغداد تحفة من الزخارف الجبسية التي تمثل جزءاً من الواجهة المزخرفة بالكتابات والزخارف الجميلة العائد لهذه المنارة وفي السنوات الأخيرة خشي على المنارة من الانهيار حيث ظهر في بنائها بعض التصدعات مما حدى



المنارة الحدباء

بمديرية الآثار العراقية بتكليف إحدى الشركات العالمية بالتعاون مع الأيدي الفنية العراقية للقيام بترميمها على طريقة ترميم برج بيزا في إيطاليا والعمل قائم الآن بذلك على قدم وساق.

سمية محمود الحاج قاسم
الموصل- العراق الجمهورية العراقية

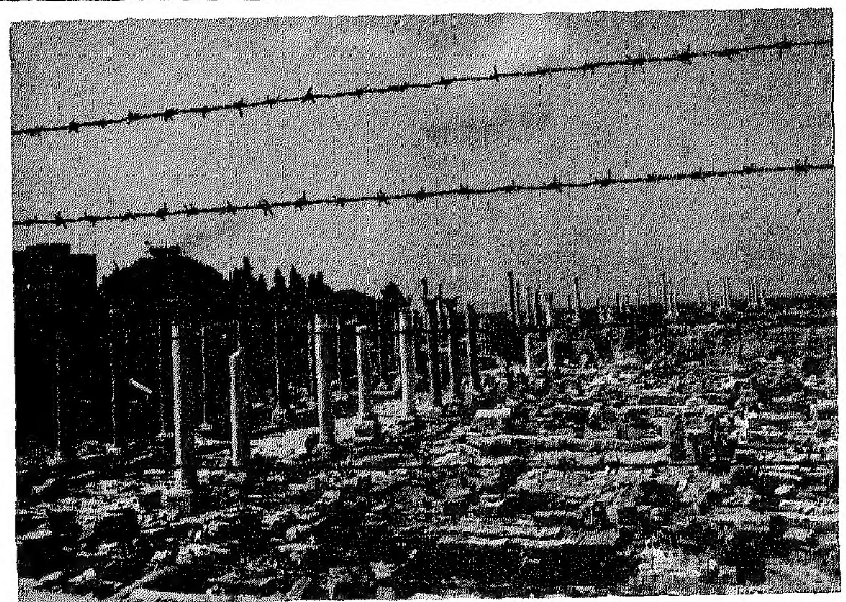
خورفكان
(عروسة الأمارات)



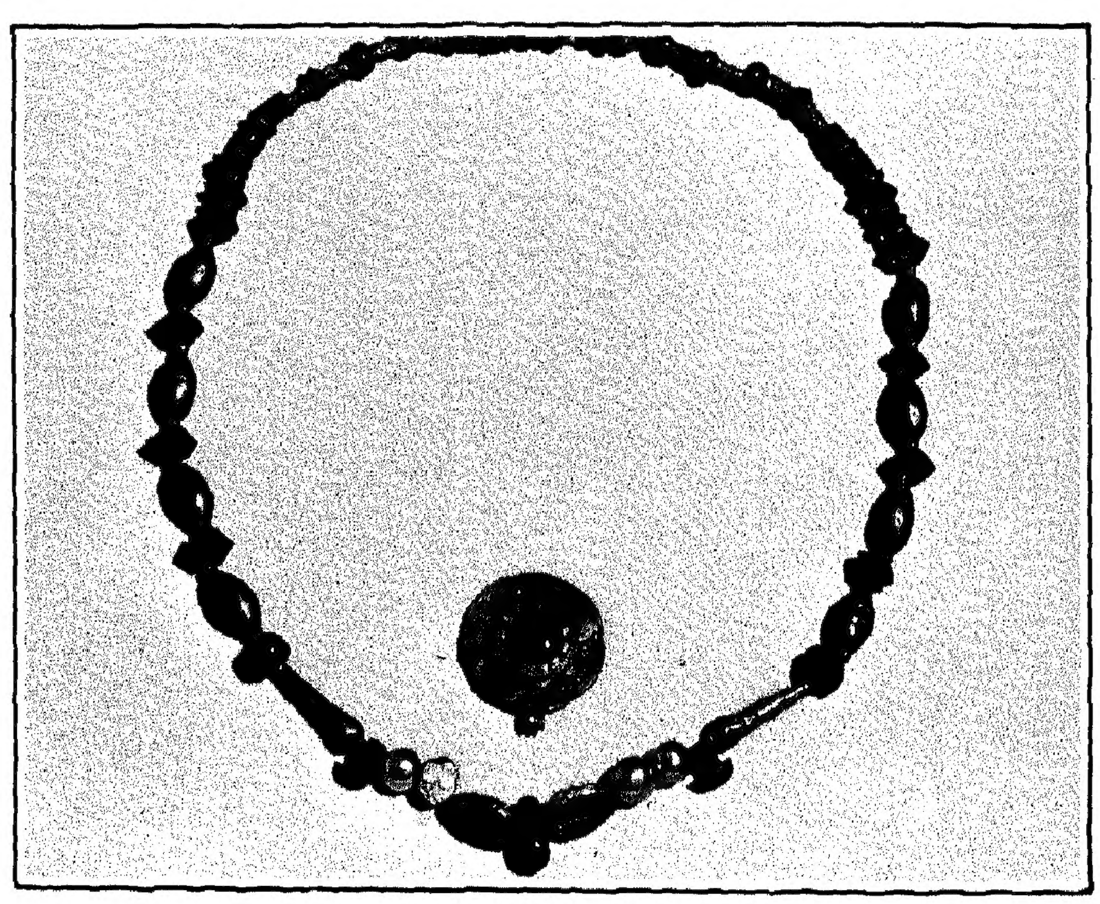
تقع خورفكان في المنطقة الشرقية من دولة الامارات العربية المتحدة على ساحل خليج عُمان، وتطل هذه المدينة على خور طبيعي محاط بالجبال وتعتبر من أجمل المصايف في العالم لنعومة ساحلها وصفاء مياهها... وقبل حوالى ٦٠٠ عام زار الرحالة ابن بطوطة منطقة خورفكان، فامتدح عذوبة مائها وجمال طبيعتها وقال عنها انها «فكان بينهما خور»... ومن مميزات خورفكان أنه على طول ساحلها تقع جبال رؤوسها داخل البحر، كانت مغاصات غنية باللؤلؤ... إلى جانب اشتهارها بوجود (الصفد) الذي يبلغ حجم بعضه أكثر من ١٠سم مكعب على اشكال عديدة غاية في الروعة والجمال ولا يزال يُمارس عملية استخراج اللؤلؤ حيث أنه موجود بدءاً من ١٢ باع إلى أدنى عمق في هذا البحر وهو باع واحد، ومن اشهر هذه الرؤوس، رأس القلقي ورأس الرقة ورأس السعيدة ورأس العبسي ورأس الخرست ورأس الصفاح ورأس عقبة الصفيرة ورأس مسحاب المدفع ورأس الحريمة، ورأس البري وتمتاز خورفكان بوجود الأبراج القديمة فيها واشهرها برج المنصوري الذي يقع على جبل المحيني ويرجع عهده إلى أكثر من ٣٠٠ سنة، وبرج الرابي ويرجع عمره إلى أكثر من قرن كامل.

عبدالكريم عبدان بغداد - العراق

في العدد المقبل



الجنوب
اللبناني
مأساة
تتحدّى



علم الآثار



للمسافر المرتبط دائماً بأعمال كثيرة يقدم
طيران الشرق الاوسط عدة رحلات سريعة إلى ١٢ مدينة
مهمة في اوروبا. وإلى كل مراكز الاعمال في الشرق الاوسط
وغرب افريقيا وقد اشتهر طيران الشرق الاوسط بحسن
ضيافته وقدرته على جعل كل رحلة من رحلاته
غاية في الراحة والمتعة.
هذه الأرقام الهاتفية تفتح لكم أبواب السفر
إلى الشرق الأوسط، أوروبا وأفريقيا
لمزيد من المعلومات الرجاء الاتصال بوكيل سفركم المعتمد
أو بالرقم ٣٦٨٠٠٠ المكتب الرئيسي للمبيعات لطيران الشرق الاوسط،
مركز جفينور أو أقرب مكتب للشركة:
٣٢٦٠٢٢ (أوتيل الكسندر)، ٨٠٣٥٦٨ (شارع فردان)، ٤١٦٣٤٠ (جل الديب)
٩٣٢٧٦٥ (جونيه)، ٦٢٧٢٧٥ (طرابلس)، ٧٢١٤٦٠ (صيدا)
٨٣٢١٤٤ (مكاتب الحجز تفتح ليلاً ونهاراً)
3680000
First Class
MEA
MEA